المسألة الإسلامية

تاريخ الشرق الإسلامي في قرن كامل

أنور الجندي

للمؤلف

(١) قضايا الأقطار الإسلامية (أول وثانى) « نفد »

(٢) الإسلام يزحف إلى قواعده

(٣) انهيار الحضارة الغربية « نفد »

(٤) قائد الدعوة

(٥) تاريخ الاحتلال الانجليزى لوادى النيل (خمسة أجزاء)

  (١) أخرجوا من بلادنا « نفد »

  (٢) مناورات السياسية

  (٣) بين لاظوغلى وقصر الدوباره

  (٤) تاريخ الأحزاب السياسية

  (٥) النيل لا يتجزأ

(٦) الأخوان المسلمون فى ميزان الحق « نفد »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه

بيعـــــــــــة

أستاذنا الامام ومرشدنا الحبيب وقائدنا المظفر وأخونا الأكبر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

منذ أن عرفناك ، آمنا بأنك على الحق ، تسير على نهج محمد ، وتقتفى سنته ، وتبلغ رسالته وتدعو بكتاب ربه لا تحيد ولا تتحول .

وكل يوم يمضى فى تاريخ هذه الدعوة الكريمة يزيدنا إيمانا بالدعوة وثقة بقائدها ويدعم هذا فى أنفسنا تدعيما بليغا ، وقد تكشفت لنا الأيام فى هذه القيادة عن الرجولة الصائبة حين ترمى ، الحكيمة حين تعمل، االبصيرة حين تواجه الظروف ، المحنكة حين تقاوم الأعصار ، الحازمة حين تواجه العواصف .

وما يزال هذا الحق يرقى حتى علا عن الشبهة والمظنة وسما عن المطمع والغرض وازدرى بكل مطلب غير وجه الله أو غاية غير مرضاته تبارك وتعالى .

تشهد بذلك حياة كلها عفه عن رغبات الدنيا ، عفه عن قدره ، وازورار عن تمكن ، عفة المؤمنين المقتدين ، وسمو المخلصين ، وعزوف الشهداء ، ولذلك قصص وعبر لاتكتب ، وليس كل ما يعرف يقال ، بل تظل هذه الأحداث خفية بينك وبين ربك ، يجزيك بها ويمدك بالتأييد والتثبيت .

منذ أن عرفناك علمنا أن دعوة الأخوان هى الامتداد الطبيعى المتجدد لدعوة الإســـلام ، على طريقها تسير ، وبنهجها تقتفى ،

ومنذ أن عرفناك بايعناك على الجندية للدعوة ملخصه فى الفناء فى القيادة ، وكل يوم يمضى يزيدنى ثقة فى نصر الله لك فلطالما رأيتك صابرا محتسبا ، ومجاهدا مناضلا ، لا تكل ولا تجهد ، تشق طريقا صعبا ، وتنحته نحتا فى الصخر الصلد ، فتنير ظلامه وتشرق شمسه ، ورأيت الزوابع تثور من حولك فما أن تصل إليك حتى تتكسر وتتحطم على صخرة الإيمان الثابتة التى وهبها الله إياك . ورأيتك تقابل الأحداث والخطوب بالقلب الثابت الواثق والواجه الباسم الباش والنفس المطمئنة الراضية لا تخاف شيئاً من دون الله ولا يخشى أحدا سواه وإنى لأنتهز الفرصة فأجدد البيعة وأثبت العهد أن كون دائما على إيمانى وثقتى بالدعوة والقيادة كلا لا يتجزأ ووحدة لاتنفصم . ومن حق الدعوة علينا أن نكون لقائدها طائعين وبه واثقين ولأمره منفذين نعتقد فى رأيه الحق ونفترض فى أنفسنا الخطأ ونضع حق القيادة فوق حق الأهل والنفس - والقائد ولا شك رمز الدعوة ومظهرها الحى

أننا قد عاهدناك على أن نبيع أنفسنا وما نملك لله خالصين مخلصين فادفع بنا إلى الوجه الذى تريد تجدنا لدعوتنا صادقين ولقائدنا طائعين مخلصين ؟

تصدير بقلم فضيلة الأستاذ الامام

حسن البنا
المرشد العام للاخوان المسلمين

الوطن الاسلامى

بين أطماع الاستعماريين وآمال الشيوعيين

أخذت الدول الأوربية منذ قرون خلت تفتح أعينها على مافى الشرق من خيرات وتنصب الحبائل والشباك وترسم السياسات البعيدة المرامى والمقاصد لتقسيم تركة الرجل المريض ولتقنص هذا الصيد السمين .

وتسابقت فى ذلك انجلترا وفرنسا وأرادت كل منهما أن تتغلب على الأخرى وأن تبسط نفوذها السياسى والثقافى والاقتصادى ، ولكن القاهر الأصيل تغلب فى النهاية وكان يخرج من كل شوط من أشواط هذه المنافسة بما يريد .

فانجلترا هى التى حطمت أمبراطورية محمد على وحالت دون مصر ودون ثمرات حروبها وفتوحها وانتصاراتها وقضت على أسطولها وحدت من قدرة جيشها ووقفت لها بالمرصاد تقاوم كل نهضة فيها وتحول دون أى خير يأتيها حتى انتهى أمرها باحتلالها والاستئثار بالسودان دونها .

وانجلترا هى التى أوقعت العداوة والبغضاء بين الترك والعرب فى أقليم الجزيرة ، وأذكت نار الحقد والحسد فيما بينهم حتى جندت من العرب جيوشا تناصرها وتزاملها فى السلاح ، وتقف إلى جانبها فى وجه إخوانهم فى العقيدة والدين ، ثم قلبت لهم ظهر المجن فاحتلت أرضهم وباعت فلذة كبد هذه الأوطان لليهود ، وتربصت بشريكتها فرنسا الدوائر حتى أخرجتها من الميدان وطردتها من الجزيرة نهائياً لعلها تستطيع أن تنفرد بشىء من السيطرة والسلطان .

وانجلترا هى التى أغمضت العين عن فرنسا لتلتهم أفريقية الشمالية وتبتلعها لقمة سائغة فى نظير إغضائها عن عدوان انجلترا على مصر والسودان ، ثم هى التى تضيق عليها الخناق الآن وتحاول بكل سبيل أن تقصيها عن هذه الأرض ليخلو لها حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولتقيم على آثارها أمبراطورية أفريقيا الانجليزية كما تعلمون .

وانجلترا هى التى حطمت دول الإسلام العزيزة المجيدة فى الهند ، وأوقفت تياره المتدفق على هذه البلاد بالخير والبر والرحمة والنور والهداية لتقيم للوثنية نصبا وتماثيل ومحاريب مادام ذلك سيمكن لها فى هذه الأرض ويدر عليها ما تطمع فيه من خيراتها وثروتها وموادها الخام ويجعل منها سوقا نافقة للبضائع الانجليزية .

وانجلترا هى التى وقفت على باب اليمن لتسد عليها المنافذ ولتقيم حولها حصارا بريا وبحريا فى عدن والمحميات فلا تشم نسيم الحرية ولا تجد إلى الاتصال بالعالم من سبيل .

انجلترا هى التى فعلت بالعالم الإسلامى ، وبدول العروبة والإسلام الأفاعيل ووقفت لها بالمرصاد ثلاثة قرون أو تزيد تحطم من كيانها وتهد من بنيانها حتى تم لها ما أرادت وأصبحت هذه الدول جميعاً الآن منطقة

نفوذ لها تتحكم فى مقدراتهـــا وتتدخل فى أوضاعها وتضع العقبات فى طريق قوتها المادية والأدبية والعسكرية والاقتصادية .

ولـكنها مع هذا كله عجزت عجزا تاماً عن قتل روح الشعوب العربية والإسلامية فلم تهن ولم تضعف ولم تستسلم لهذا الجبروت يوما من الأيام ، وهذه الثورات المتعاقبة فى مصر وفى العراق وفى فلسطين وفى سوريا أقرب شاهد وأوضح دليل .

وظهرت روسيا فى الميدان ترسم لنفسها مجالها الحيوى ، وتطل مراكبها على البحر الأبيض المتوسط ، وتدخل فى منطقة نفوذها أوربا الشرقية جميعاً وتطالب بسهمها الحرام فى أفريقيا وفى آسيا تنافس هذا النفوذ القديم فى القارتين معاً ، ويبدو هذا الصراع واضحا جليا عمليا فى مناطق النفوذ والاحتلال وسياسيا فى مؤتمرات الصلح وجلسات مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة .

وأغرق المتنافسان فى الخداع ، ولبس كل منهما مسوح الرهبان وجلود الضأن على قلوب الذئاب ، وحاول كل منهما أن يستر الطمع المادى بدعوى رسالة السلام والاصلاح تقدمها انجلترا باسم الدمقراطية وتقدمها روسيا باسم الشيوعية .

والعالم العربى والإسلامى والشرق كله يترقب وينظر فى حيرة بين هذه الإطماع والآمال ، ويتهيأ للعمل ولـكن لم يعمل بعد .

لقد خطت انجلترا خطواتها البارعة فى ميدان السياسة وهى الخبيرة العليمة بهذه الخطوات فجمعت دول العروبة فى ظل الجامعة العربية وهى تحاول أن توسع النطاق بربط هذه الجامعة بميثاق سعد آباد ولا أظنها ستقف عند هذا الحد حتى تربطها بالهند الجديدة وبما وراء الهند من أمم إسلامية وأصقاع ولعلها تذهب إلى أبعد من ذلك لاحبا فى سواد عيوننا ولا رغبة فى تقويتنا وتجمعنا ولـكن لتقيم من هذه الأمم سورا أمام إطماع خصومها وأعدائها وإن شئت قلت حلفائها وأصدقائها وقاتل الله رياء السياسة .

ولـكننا مع هذا يجب أن نرحب بهذه الخطوات وأن ننتفع بها وأن نستفيد منها وان نحولها لمصلحتنا نحن وذلك بصلابة الحـكومات ويقظة الشعوب . وان يمر بنا ظرف ابدع واوفق واكثر ملاءمة لتحقيق مانرجو من استقلال ووحدة كهذا الظرف الذى نحن فيه .

فعلينا إذن ان ننتفع بالفرصة السانحة والا ندعها تفلت من أيدينا أبداً . يجب أن تتصلب الحـكومات وتتشدد وألا تخشى التهديد والوعيد فهو سراب خادع لا وجود له ، ويجب أن تتيقظ الشعوب وتنهض فان الكلمة لها والأمر امرها وعلينا ان نضع امام العقيدة عقيدة ومعنا الحق ومعهم الباطل ولا يستويان .

علينا ان نعلن الإسلام بأصوله السابقة وتعاليمه العالية ، وقواعده الحقة امام ديمقراطيتهم التى ترادف الفوضى والاباحية وامام شيوعيتهم التى ترادف الالحاد والدكتاتورية الدولية .

وعلينا ان نتجمع ونتشجع ونتساند ونتكاتف ونعمل ونجاهد فى كل ميدان ، ميدان الدعاية الدولية وميدان الـكفاح العملى حتى نصل ، وإنا لواصلون والله غالب على امره ؟

حسن البنا

هي خصومة للإسلام

تنسم الفجر ، وأشرق النور ، وبدت بواكير الصباح ، زاهية مشرقة ، ريانه بالعطر والندى .

وأقبل عصر البعث الجديد والايمان الجديد على الشرق الاسلام يدفع الظلم والظلمات دفعا ، ويحطم حصون الاستعمار والاستغلال والاستعباد ، والمسلمون بحمد الله فى يقظة جديدة ، وإشراق نفس ، يزحفون إلى قواعدهم وفى إهابهم إيمان بالحق الذى بعث الله به نبيهم وثقة بالنصر الذى وعدهم الحق تبارك وتعالى به ما أخلصوا له الوجه وانتفى من قلوبهم الخوف لسواه أو الخشية لغيره .

ولم يقف هذا البعث عن حدود العمل لتحرير الوطن الاسلامى من الغاصب الدليل، ولكنه وصل إلى أبعد من ذلك بكثير ، إذ أنه أثار قضية إعداد المجتمع إعدادا إسلاميا وصبغه بالصبغة الاسلامية وتوجيهها وفق هدى الشريعة السمحة بتنفيذ أحكامها وإقرار تشريعها .

والواقع أن القضيتين قضية تحرير الأرض الاسلامية وقضية الدعوة الاسلامية كلتاهما مرتبطتين تمام الارتباط، متصلتين تمام الاتصال تكاد تكونان وحدة: المقدمة والنتيجة ، أو الغاية والوسيلة ، فلا يمكن للأوطان الاسلامية أن تتحرر إلا إذا فهمت رسالتها الاجتماعية والروحية فهما صحيحا وهى لن تستبق هذه الحرية فى يدها وتدعمها فى وطنها إلا إذا أقامتها على أسس من الشريعة الاسلامية وقواعد من الصبغة الاسلامية التى توج بها الاسلام الشرق منذ طويل والتى هى الحائط الفولازى القوى فى وجه الاستعمار .

والاستعمار يعلم ويفهم ويقدر أن هذه الريح الاسلامية حينما يفوح عبيرها وينتشر شذاها وينبعث ركبها ويتأجج نورها تشرق الدنيا بضيائه وناره فتلمع القوة فى إهابه ، فيكون ذلك هو اليوم الأخير فى حياة الاستعمار .

فما قام الاستعمار إلا فى غفلة من تعاليم الاسلام وما عاش إلا على نضال جبار فى أقصاء روح الاسلام وإبقاء مظاهرة وهوامشه وإخفاء لبابة وحجب حقائقه

ولقد بقى الاسلام قرنا كاملا يخشى كلمة الاسلام ومايزال يلح عليها حتى اختفت وراء أسماء خادعة كالقومية والوطنية والمصرية وكان يفهمنا دائما أن الاسلام دين وطقوس وروحانية وعادات هى علاقة بين الإنسان وربه أما أن الإسلام حكم وتشريع ودولة ونظام وقانون ودستور وجهاد وقيادة تسيطر بتعاليمها القرآنية الربانية السماوية على كل ميدان من ميادين السياسة والاقتصاد والقانون والقضاء والوطنية والمجتمع فهذا ما كان الاستعمار يشككنا فيه ويبعدنا عنه ويحاول أن لا نعلمه فإذا علمناه فلا بد من تحريفه أو تمتمه .

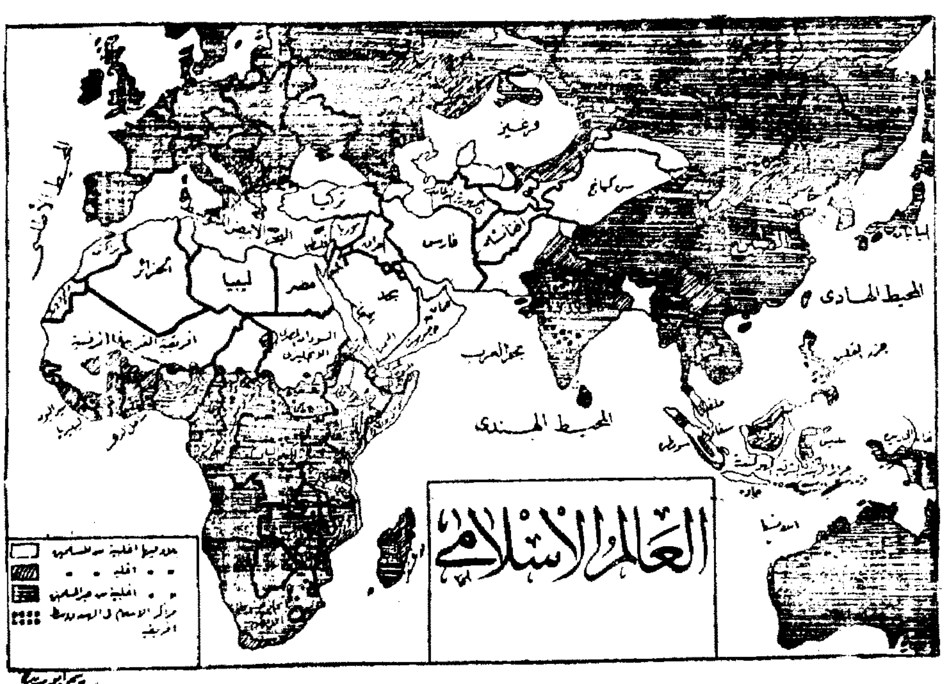
ولكن ذلك كله كان له نهاية ، ولابد أن تتداول الأيام الأمم يقظة وقوة ، وضعفا وهوانا ، وما القوة وما الهوان إلا أحداث الطبيعة التى لا تتخلف فى جسد الأمم والشعوب .

وهكذا ترانا وقد استيقظنا مرة أخرى على إنكار للحضارة الاباحية والثقافة الالحادية وعلى خصومة للاستعمار الظالم والاستعباد الظاغى والاستبداد المرير بعد أن ألهبتنا سياطه وجردتنا قيوده من كل حق وحرية وكرامة ، نعم ترانا اليوم قد تفتحت عيوننا إلى الحقين فى وقت واحد وإلى النضال فى ميدانيهما معا

فلا يمكن قيام تشريع القرآن وقواعد الاسلام فى وطن مستعمر فلابد من حرب للمستعمر ونضال للغاصب ولا يمكن بقاء الوطن الاسلامى حرا عزيزا إلا بسياج من هذه القوة الربانية الكاملة ، قوة التشريع الاسلامى والصبغة الاسلامية .

* * *

المسألة الاسلامية



أريد أن أحدد موضوعى هنا تحديدا دقيقا فالكلام عن المسألة الاسلامية قد يفهم على أنه أحد هذين الشقين : الوطن الاسلامى أو الدعوة الاسلامية أو كليهما وهو فهم واسع فسيح الجنبات .

وكلما كان الموضوع محددا كان الكلام فيه واضحا جليا والغرض ظاهراً سليما .

فنحن هنا نتكلم عن الأرض الاسلامية أو قضية الوطن الاسلامى . وهى قضية الصراع العنيف بين الأقطار الاسلامية العربية وغيرها الموحدة تحت لواء الخلافة والقرآن والمجد وبين الاستعمار الصليبى الغادر الظالم المختفى وراء الأسواق والخامات والرأسمالية والحضارة البربرية الاباحية .

وكيف كان هذا الصراع عنيفاً حادا ، وكيف كان المستعمر يطغى ويستبد ويظلم ويستطيل على أهل الوطن الاسلامى فيجردهم من كل حقوقهم وإنسانيتهم ، وكيف كان يفسد عقائدهم وأخلاقهم ونظم مجتمعهم ويجرهم إلى الدجل والظلام والاثم .

وكيف مزق الاستعمار هذه الأمة الموحدة فبلبل اتجاهاتها وتفكيرها . وفتنها بزعاماتها .

ثم نشرح قضايا هذا الوطن الاسلامى القومية الوطنية التى قامت بعد ذلك . وميادين الصراع الجديدة بعد الحرب الأولى وموقف المسلمين والعرب من الوحدة والجامعة وماذا ينتظر فى القريب على ضوء هذه الأحداث .

أما الحديث عن الاسلام ذاته كدعوة ورسالة ونظام . وكيف واجه هذه العواصف الهوج وما هى الاتجاهات والمنافذ التى زحف منها الاسلام وما هو أثر الحضارة الاستعمارية فيـــه - وكيف امتد فى آسيا وأوربا وأفريقيا .

وما هى قضية الشك والالحاد والتبشير والتغريب .

وما هى دعوات التحديد واليقظة سلفية وصوفية وسياسية ، وهابية وسنوسية ومهدوية .

وماهو موقف العلماء والمجتهدين والمجددين كشامل وعبده والأفغانى وهل صح موقفهم أم أنهم أخطأوا فأخفقوا

ذلك كله حديث لا موضع له هنا وإنما مجالة رسالة أخرى هى رسالة « تاريخ الدعوة الاسلامية »

ومعنى هذا اننا هنا فى دراسة سياسية جغرافية محضة وأن تلك دراسة تاريخية اجتماعية ولـكنهما لا ينفصلان لأنهما يجمعان قضية الاسلام (دعوة ووطن) وعذيرى فى فصلهما ضخامة البحث وعمقه واتساعه .

* * *

هل هناك مسألة إسلامية ؟

الدلائل الصادقة المدعمة كلها تثبت أن الخصومة بين الوطن الاسلامى وبين الغرب كانت خصومة دينية مذهبية،فإن هذا الاستعمار الغاصب الظالم فى لونية المقنع والسافر ما هو إلا مظهر (ناعم) للحروب الصليبية التى شنتها أوربا على العالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى . ولـكنها ليست ثوبا من المصالح والمواصلات والخامات والأسواق .

وأنها كانت رغبة انتهزلها الغرب فرصة ضعف الشرق واغفائه لهجوم مباغت ، تجارى حربى،مركز متصل لا يقف فى جهة شيء .

تحجب هذا الاستعمار فى أيام قيام الدولة العثمانية ومنار الخلافة ثم سفر حين هدم هذه الدولة العاتية التى قاومت الفناء أربع قرون وهنا تـكشف الاستعمار عن نهم عجيب وقتال عنيف على احتلال المواقع والسيطرة على الموانى ومفاتيح البحار .

وترى هذه الخصومة بين الغرب الصليبى والشرق الاسلامى فى أن الدول المستعمرة كلها غربية والدول المظلومة المحتلة كلها شرقية مسلمة ، وإنه لا توجد دول غير إسلامية محتلة ولا توجد دول إسلامية حرة

وترى دليلا لهذا المعنى فى هذا التآمر على كل يقظ فذ فى الشرق الاسلامى يقوم بدعوة أو يحاول جمع الشعث الممزق أو يطعم الوطن الاسلامى بدم جديد كمحمد على والشريف حسين وغيرهما فلقد تآمرت أوربا على الأول وتجمعت على ما بها من من خصومة على حربه والـكيد له وتمزيق دولته وهدم بنيانه وطعنت الشريف حسين من الخلف وأعطته العهود والمواثيق ثم لم تنقضها فحسب بل أنكرتها وتبرأت منها واستغلته فى إيقاد الثورة العربية وتجنيد العرب المسلمين لقتال الأتراك المسلمين وإجلاءهم من الحجاز وفلسطين وسوريا ثم مكنت انفسها فضربت بعهودها عرض الأفق وأقامت نفسها فى هذه الدول مقام الحماية والاحتلال بدلا من الأتراك وكأن العرب المسلمون قد قاوموا الأتراك المسلمين لا ليتحرروا بل ليقدموا هذه الأقطار لقمة سائغة للانجليز والفرنسيين

الذين تعاهدا على اقتسامها سرا فى الوقت الذى تعهدت انجلترا للشريف حسين باقامة دولة عربية بها ثم لم يقف الأمر عند هذا ، بل أنها أعطت لليهود وعدا باقامة وطن قومى فى فلسطين وتبرمت بمعاهدة ، الشريف حسين ـ مكما هون ،وأنكرتها فى الوقت الذى نفذت فيه معاهدة التقسيم بينها وبين فرنسا (سكس باكو) ونفذ اليهود (وعدها) لهم بالقوة ووصلوا به إلى أبعد حدود الخطر على الشرق الاسلامى كله

بل إن (اللنبى) عند ما دخل فلسطين بجيوش العرب قال (الآن انتهت الحروب الصليبية) أى أن احتلال الغرب لهذا الوطن الاسلامى بعد هزيمة تركيا هو خاتم هذه الحروب الصليبية التى قامت حوالى سنة ٧٠٠ هجرية ولما دلف الأنجليز إلى قبر صلاح الدين قال قائلهم (هانحن قد جئنا ياصلاح الدين !)

بل إن تمزيق إنجلترا للوطن الاسلامى دولا وأمما ودويلات لمن أدلة هذه الخصومة

هذه سوريا قسمت أربعة أجزاء وهذه فلسطين مكنت انجلترا فيها لليهود فأوجدت أكبر فتنة بين العرب واليهود ووضعتهم وجها لوجه فى خصومة ، هى خصومة الفناء !

وإيقاد نار الخصومة بين المسلمين والهندوس فى الهند مما وصلت أثاره أحيانا إلى أن يذبح الهندوس ٣٠ الفا من المسلمين ذبح الأغنام لهو من سياسة الخصومة بين الغرب الصليبى والشرق الاسلامى هـذا فضلا عن إيقاد انجلترا وفرنسا نار الخصومة بين أبناء الوطن الواحد كالمصريين والسوادانيين أو السنة والشيعة أوالبربر والعرب أو الأكراد والعرب أو العرب والترك

كل هذا كان يرمى فيه الاستعمار الغربى الصليبى عن قوس واحدة بالكيد للوحدة الاسلامية وقتل الروح الاسلامى وتمزيق الوطن الاسلامى الموحد ومازالت تلك المؤامرات تلح على المنار الاسلامى الضخم، منار الخلافة الاسلامية حتى انهدم هذا المنار وتمزقت أشلاؤه وألحت عليه الفتن والمؤامرات حتى تجزأ وانشغل كل قطر من الأقطار بمأساته الخاصة وهمه الفردى

وما زال الاستعمار الصليبى الغربى يلح على الحقائق الاسلامية التاريخية والقواعد الاسلامية الصحيحة ويستغل لها بعض العلماء وبعض الأذناب حتى وسع شقة الخلاف بين الفرق الاسلامية وجردها من الفهم الصحيح للاسلام وأبقى فيه معنى التواكل والاستسلام ورفع منه معنى العزة والقوة ودفع الظلم والاعنات وما زال يلح بالدراسات الإلحادية والتجريدية على التاريخ الاسلامى والتراث الاسلامى حتى تنكر له الشباب، وسخر به، وجنح عنه إلى صور ضالة مغرية من الحضارة الاستعمارية والأدب العربى المكشوف

ومازال ذلك المعنى يتصل بالوحدة القومية نفسها بعد أن مزقت الوحدة الكبرى فعمل على هدمها بالحزبية الطائشة الآثمة القائمة على الهوى والضلال وعلى المغنم المادى والمطمع الحكمى وبلغ فى ذلك آخر الشوط فجعل الحكم والتسلط هو غاية الغايات وبذلك تكالب الزعماء على الغنم وتنازعوا على المطمع وألقوا وراء ظهورهم القضية الوطنية وتجردوا من خلق الاسلام وكرامته ورجولته باسم السياسة . والسياسة الحزبية مناورات ومؤامرات ولف ودوران ومساومة وتسليم للغاصب رجاء رضاءه واذعان له بغيه البقاء فى الحكم وهى تربص بالحاكمين واتهام لهم بالباطل أو الحق ، وهى خصومة عنيدة حاقدة لا تعرف وجه الحق والعدل فلا تعرف الانصاف من النفس ولا تذكر فى الغضب الحسنات ،وكذلك جردت الحزبية الحياة الوطنية والاجتماعية من معنى الاسلام ولم تقف

منه موقف الحيدة والاغفال فحسب بل قاومته وخاصمته عته من برنامجها وحاربت دعاته . ذلك لأن الاسلام إيمان بالغره، وقيام على الحق ، وشورى فى الأمر وهو ما تتنكر له الحزبية الجامحة القائمة على الظلم والطغيان والاعتساف والتسلط الفردى والزعامة المقدسة التى لاتخضع لقانون ولا تسمع لرأى ولا تقبل النصح

هـذه صورة خاطفة لذلك النضال وهذه الخصومة تـكشف بوضوح عن أنها كانت خصومة بين الغرب الصليبى والشرق الاسلامى وأن ميدانها الاسلام نفسه والوطن الاسلامى والمسلمين ،ولذلك كله اعتبر أن مسألة الوطن الاسلامى هى مسألة إسلامية بحتة

وليست مسألة عربية أو شرقية أو وطنية

• • •

والمسألة الاسلامية تعنى فى الوقت نفسه هذه الروح الجـديدة التى آمنت بالوحدة والتى حطمت الأغلال والقيود والتقت ، وأعان على لقائها المؤتمرات الدولية وجمعها موسم الحج وإن كانت هناك مناطق فى هذا الوطن الاسلامى لاتزال هناك حوائل دون الوصول اليها أو الاتصال بها كشاطىء البحر الأبيض الافريقى الاسلامى من حدود مصر الغربية إلى المحيط ، وهو بوضعه الحالى ممنوع ارتياده وإن كان زعمائه وأقطابه قد هاجروا منه إلى مصر وإلى الشرق وكشفوا عن مظالمه وأعمال الطغاة الظالمين فيه ما أوضح الـكثير من حقائق الاستعمار التى حاولت فرنسا أن تخفيها عن المسلمين بالحيلولة دون ارتيادهم لهذه الأوطان الحبيبة الغريرة

والعالم الاسلامى فى الواقع يتجمع ويتوحـد ليقاوم الاستعمار فى قوة وإيمان وهو يزحف زحفا سريعا إلى الوحدة والجامعة لايعيقه شىء ما ، وأصبح من المستحيل رده القهقرى أو منع سريان صوته فى كل مكان

والواقع أن كل حركة لاتشمل الوطن الاسلامى هى حركة محلية غـير ناجحة ، ، وليست هى حركة كاملة وكل حركة جزئية إنما هى حركة زحزحة وانتقال الجيوش من مصر إلى ليبيا أو إلى فلسطين مثلا ليس بحل عملى لأنه إنما تـكون على حساب قطر آخر

وقد وضح هـذا المعنى تماما فى نفس المسلمين فعرفوا أن كل حركة جزئية لاقيمة لها وأنه الجهاد للحرية يتطلب عملا حاسما سريعا جماعيا ولذلك اتجهوا إلى الوحـــدة واستجاب لها الوطن العربى أولا بحكم تقارب أقطاره وبحكم تجمعه على وحدة اللغة

وقد سعى العرب إلى الوحدة منذ أكثر من خمسين عاما وظهرت حركتهم فى لونها العملى منذ بدأ الأتراك يعملون للجامعة الطورانية وبرز هذا المعنى رسميا فى حركة الثورة العربية الـكبرى سنة ١٩١٧ وقد تحقق هذا سنة ١٩٤٢ أى بعد ربع قرن كامل ولـكن البوادر تدل على أن الجامعة الاسلامية سوف لاتستنفذ من الوقت أكثر من عشر سنين إن لم يكن أقل من ذلك بكثير

وكل البوادر الآن والارهاصات تدل على أن الجامعة الاسلامية التى حطمها الاستعمار منذ وطئت أقدامه أرض الشرق وشيكة التحقيق ، وإن آمال التجمع والترابط بين أبناء الوطن الواحد الذى لا تحده حدود ولا تفصله فواصل ولا تقف فى وجه سهله الممتد الخصيب من المحيط إلى المحيط سدود ولا قيود ـ قد أذنت باشراق

وأن تلك الأوضاع التى صنعها الاستعمار بنفسه لنفسه لم تحل مطلقا دون اتصال الأرواح وتواصل القلوب وإيمان النفوس بالوحدة الكاملة الشاملة بين أبناء أمة وحدها القرآن وجمعها الاسلام وانتظمتها وحـدة كاملة

من الأخلاق والعادات والآمال والآلام ، كانت الجامعـــة العربية مرحلة أولى لإيقاد سراج الجامعة الاسلامية عما قريب

وليس شك فى أن الشخصية الاسلامية فيها سمه التشابه والتقارب مما لا يظهر بوضوح فى أى مجموعة أخرى من المجموعات الوطنية أو الجنسية وأن ظاهره الوحدة فى الفكره الاسلامية والحضارة الاسلامية والدول الاسلامية لاتدع شكا لشاك فى أنها وشيكة التحقيق

وإن سماتها الروحية فى الإيمان والرجولة والعزة والوحدة الدينيه بين معتنق الإسلام والوحدة الاجتماعية فى المستظلين بظل مجتمعه وحضارته ، هذه الحضارة التى أخذت من كل الحضارات بطرف فهضمتها وحولتها إلى صميمها وأحالتها إلى لونها وتغلبت عليها بروحها الجبار القوى

كل هذا يؤكد أن المسألة الإسلامية هى مسألة اليوم ومسألة الساعة وإنها أخطر مايعترض الدوائر السياسية فى الشرق والغرب ، بل إن بعض العليمين يتكهن بأن ميدان الحرب العالمية الثالثة التى ستنشب قريبا سيكون فى الشرق الإسلامى وأن (البترول) اليوم يجعل من هذا الشرق مصدراً خطيراً تتدافع اليه الدول المستعمرة بالمناكب وتحاول أن تستغل أصحابه وتسيطر عليهم أو تتحايل على كنزهم الثمين عماد المصانع وعتاد الحروب

ويزيد هذه المسألة قوة وجلالا وخطراً قيام دولتين اسلاميتين كبيرين فى الشرق الأقصى والأوسط كما يسميه المعاندون الذين لا يطيقون كلمة (الشرق الاسلامى)

اما اولاهما فهى اندونسيا وبها ٧٠ مليونا من المسلمين اى فى ضخامة الجامعة العربية كلها بعد ان تضم اليها بلاد الشاطىء الأفريقى المسلم وهى دولة فتية مجاهدة مؤمنة لن ترى لها محيصا من ان ترتبط بالشرق الاسلامى وتتعاون معه وتناضل فى خط دفاعه

والثانيه هى دولة الباكستان الجديدة التى تضم فى الحاضر ٧٠ مليونا وتضم فى المستقبل مائة مليونا من مسلمى الهند المكافحين المناضلين الذين اعلنوا فى وضوح وجلاء انهم سيقيمون دولتهم على اساس التشريع الاسلامى الكامل

فهاتان القوتان الاسلاميتان لن يكونا الامدداً للقوة العربية الثالثة ولضخامة عددهما سيتغلب اللون الاسلامى على اللون العربى خاصة وان ايران وافغانستان وتركيا بسبيل إلى الترابط فى هذا الحائط الفولازى القوى

ولن تتفارض الجامعة العربية مع الجامعة الاسلامية ابدا ، وما العرب فى الواقع إلا امة واحدة شأنها شأن الباكستان مثلا لولا فواصل خفيفة لاقيمة لها فى اوضاع الحكم ونظمه

ومهما قيل من ان الجامعة العربية صنعها الأنجليز ومهما كان نصيب ذلك من الصحة فان الجامعة الآن هى جامعتنا روحا وقلبا وقالبا ولا بأس من أن يسعى الإنجليز لتكوينها لأن لهم مصلحة فى تضامن الشرق العربى فى وجه الشيوعية ولا مانع مطلقا من أن تسعى انجلترا أيضا لأن تقيم جهة اسلامية واسعة النطاق حدودها الهند وايران وتركيا ومصر لتكون حصنا قويا بدفع امواج الشيوعه المكتسحة ذلك لأنه إن كانت انجلترا تسعى إلى وحدة المسلمين فانما ذلك مآل المسلمين وأملهم طال الزمان أم قصر . وإن كانت تحاول أن تصد بهم تيار الشيوعية فانما هم مكلفون من قبل اسلامهم ومن قبل وطنهم بكفاح هذه الجرثومة الخبيثة كما هم مكلفون بمكافحة

جرثومة أشد خطراً وفتكاهي الصهيونية رضيت بذلك انجلترا وامريكا أم غضبتا . . . فنحن فى طريقنا سائرون ولا تستطيع انجلترا أوغيرها أن ترد هـذا النهر القوى المتدفق المنطلق إلى مصبه ولـكنها تحـاول أن تفيد منه ولن تستطيع أن تفيد منه الا إذا آمنت به ايمان التقدير والمساواه عملت معه على أساس الند وعمل معهامتحررا من قيودها السياسية والاجتماعيه والعسكرية والاقتصادية آخذاً طريقه التى يجمع فيه بين كيانه الذاتى القوى وما يراه صالحا من الحضارة الغربية

وقد يقول قائل أن الجامعة الاسلامية شىء لا يزال بعيدا أو أن التفكير فيه سابق لاوانه ولـكن النظر الفاحص الدقيق يثبت بأن المسألة الاسلامية أصبحت مسألة لها جلالها وخطرها

وان قيام ١٧٠ مليون مسلما فى الشرق الاسلامى من أقصى جناحه الأيمن لهو من أجل الأحـداث وأخطرها بعد الحرب الـكبرى الثانية،وهو من أكبر العوامل على بلوغ المسألة الاسلامية أوج قوتها وجدها وبتحرير الهند تصبح هذه الممالك العربية التى كانت دائما حجة للاستعمار بأنها طريق الهند ومواصلاته ، تصبح غيرذات موضوع ويسقط الدليل القـائم على أهميتها لغرض خاص وإن كان الغرض فى حد ذاته لايثبت للحق ولا للقوة ولا للايمان بحقوق الأوطان

الاستعمار

اتخذ الاستعمار فى نفادة إلى الشرق أساليب كثيره وطرائق عده
استعمار محجب ثم استعمار سافر
استعمار يلبس ثوب التجارة ويحتل الموانى والمواقع وينال الامتيازات
استعمار اقتصادى فحربى فسياسى فاجتماعى فثقافى

هجوم على الأوطان والأرض ، وعلى الأديان والروحية وعلى التشريعات والمجتمعات والتقاليد
حـكم من وراء ستار واصطناع للاذناب والعيون والأرصاد والاغراء بالمرأة والمال ثم التهديد بالسجن والنفى والارهاب وتمزيق الوحدة وأثاره الحزبية والخصومات

ويحارب الاستعمار الاسلام لأنه يدعو اتباعه للاعتصام بالله وبالعزة وبالـكرامة وينبذ كل ولايه لاتتفق مع تعاليمه

ولذلك فقد الشرق الاسلامى فى ابان ضعفه : روح الاسلام الحق واستبقى الشعائر الظاهرية

فقد الامراء رقابة العلماء واستكان العلماء لنضار الامراء البراق فشملت روح الاستسلام والضعف الأمة كلها والأمة على دين علمائها .وتركت الاتجاهات العملية واكتفى الناس بالـكلام ، وانتشرت المناقشات البيزنطية والمجـادلات الضالة والمساجلات الظـالمة التى لاتتقيد بأدب أو بدين . وفقدت روح التصوف مقوماتها وانعزل المسلمون عن العـالم وجمدوا عن التجديد فى الوقت الذى زحف فيه الاستعمار بثوب التاجر والجاسوس والرحالة والعالم

واستعمل (الغرب) المسيحية كوسيلة من وسائل الغلب والاستعمار والتمزيق للوحـدة القائمة وقضاء المآرب السياسية

وليس شك فى أن اوربا هى التى أثارت الفتنة سنة ١٨٦٠ فى سوريا ولبنان باسم المذهبية المعروفة ، هذه الفتنة التى اصطدم فيها الدروز المسلمون باللبنانيين النصارى والتى انتهت بتدخل فرنسا الفعلى فى لبنان وسجل التاريخ كلمه المارون (امنا فرنسا)

وادخل الغرب — للشر لا للخير وللتمزيق لا للوحده ـ فكرة الوطنية القومية أو الانتساب إلى جنس معين أو مكان معين فى الوقت الذى يسود الشرق كله جماع من الروابط الموحدة سواء من الناحية الروحية أو الدينية أو الاجتماعية مما لا يتوفر لأمة أخرى ، والاسلام فى الواقع رابطة ووطن وجامعة

وهكذا تمكن السلطان العسكرى والاحتلال السياسى والغزو الاقتصادى والاستعمار الاجتماعى بزحف رؤوس الأموال والمصارف للعمل، والجيوش لحمايتها ،والحضاره والمراقص والخمور والعادات الآثمة والنظرات الالحادية والاوضاع الخليعة الماجنه التى طوت فى اعماقها احتقار الدين والوطن والانسلاخ من العقائد والتقاليد الشرقية الاسلامية والسخرية بالعروبة والاسلام وتاريخة وامجاده ، واذاعه الشك والالحاد والاباحه بواسطة المدارس والارساليات والمستشفيات ووصل أثر ذلك إلى النظم التشريعيه والسياسية والثقافية وتغيير قواعد الحكم والقضاء والتعليم فاستغربت المدرسة والمحكمة والدولة وصور الغاصب الاسلام للناس تصويرا قاصرا فى حدود العقائد وضروب العبارات مع اطلاق العنان للخمر والمسرح والمرقص والكتاب الآثم والقصة الخليعة والسينما الضارة

وكان البترول والرأسماليه والخامات والاسواق من أهم ما ثبت أقدام الاستعمار فى الشرق ومكن له واصبح بهذه العناصر موضع النزاع والصراع بين روسيا وانجلترا وامريكا ، ولم يقف الأمر عند خطر الاستعمار والرأسماليه فحسب ، بل زحفت على الشرق موجات جديدة آثمة قتاله كالشيوعية والصهيونية وكلاهما خطر جبار لا بد من دفعه والاجتماع على حربه ونضاله

وبدأ الاستعمار أول امره تحت ستار التجارة وكانت فرنسا تناوىء انجلترا على مناطق النفوذ فى الشرق حتى انهما اختصمتا عند فتح نابليون لمصر ثم فى موقعة فاشودة ولكنهما اتفقتا على محمد على واتفقتا سنة ١٩٠٤ بالاتفاق الودى المعروف ، الذى كان أول لبنه فى صرح الاستعمار وعرف بها أن الغرب كله يصدر عن رغبه فى المطامع والاستغلال حتى يصل ذلك إلى أن تتفق دولتان على أن تطلق احداهما يد الأخرى فى مصر مقابل أن تطلق الاخرى يد الثانية فى المغرب . ومنذ ذلك اليوم اشتد الاستعمار على مصر والمغرب وازداد ضغطه واشتدت إثامه وضرباته

وهكذا بدا الاستعمار بالتجارة ثم بالتبشير ثم بالاحتلال السافر والمغالطات الواضحة والوعود الخادعة وتسمى هذا الاستعمار مرة باسم حماية العروش أو المواصلات الامبراطورية أو باسم حماية المصالح أو باسم الدفاع المشترك !

وكان الاستعمار الفرنسى قاسيا آثما لايعترف بحقوق الشعوب ولا يرعى كرامتها فى الوقت الذى كانت انجلترا تعمل على اساس التعسف والمغالطة والاختفاء وراء الظلمه الأذناب من أصحاب الاوطان الذين كانوا تحلب قط لها تضرب بايديهم ويقمعون الشعب بسلطانها

خصومة الغرب للاسلام

لست اعتقد ان التاريخ الحديث كله ـ وهو تاريخ النضال بين الشرق والغرب ـ يتسم بميسم واضح صريح . إلا هذه الخصومة الطاغية التي شنها الغرب على الاسلام بكل صورة وعلى كل لون وتحت كل عنوان ، وهي لا تخرج عن انها رغبة عنيفة في الانتقام ، وشوق عجيب إلى الدماء ، وطمع متصل في التشفي والاذلال ، وتطلع إلى استعباد هؤلاء الذين يعيشون بين الهادى والاطلسى ويتسمون باسم المسلمين

ولقد حاولت كثيرا ان انظر الى الأمر من وجوه اخرى ، وان ادفع عن طريق تفكيري هذا الراى فوجدت الأدلة تنساق إلى سوقا فتدعم هذا الرأى تدعيما وترقى به إلى الحقيقة الصادقة التى لا ينالها الشك والتكذيب

رايت كل ملحظ فى تاريخ ذلك الصراع بين المسلمين والغرب يدل على ان اوربا فى الماضى وامريكا واوربا فى الحاضر كانتا — ولا زالتا — تطمعان فى ان تضعا يدهما على الشرق كانه التركه التى لا ملاك لها ، محاولة إطفاء نور رسالته ودمر كرامة اهله

ظهر معنى هذه الخصومة بعد أن إستيقظ الغرب واستفاق وفتح عينيه على تراث الشرق الكريم الذى تسرب إلى أواسط أوربا عن طريق إحتكاك الغربيين بالمسلمين فى الأندلس واتصالهم بهم فى تركيا والبلقان وكذلك عن طريق جنوب إيطاليا .

وتفتحت عيون الغربيين ـ فى دهش بالغ ـ على مدى خطر هذه الرسالة وجلال هذا الاسلام الذى أقام دوله وكون أمة ، هذه الأمة التى زحفت فى أقل من قرن إلى العالم فافتتحته باسم الله وحكمته برسالة القرآن وشرعة الرحمن وأنارته بنور العدالة والاخوة والمساواة . وامتدت فى زحفها إلى أقاصى المحيط شرقا على حدود الصين وإلى نهر اللوار غربا فى قلب فرنسا ، ولولا أن الخليفة فى دمشق طلب إلى موسى بن نصير أن يعود لكان يسيرا عليه أن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة اسلامية فى وقت قليل كما فعل المسلمون من قبل بالبحر الأحمر .

ورأى الغربيون كيف أن المسلمون يضعون أيديهم على منافذ البحار ومفاتيحها فى الشرق والغرب فقد كان فى أيديهم الدردنيل ومصر وبوغاز جبل طارق وباب المندب .

وعرف الغربيون أن السر فى هذا الانتقال الخطير هو هذه التعاليم الرائعة الباهرة ، وهذا الفيض من العلم والهدى ، وهذا الخلق الكريم الذى رسمه القرآن ونفذه محمد رسول الله وصحبه ومن جاء بعده فدانت لهم الدنيا وأسلمت إلى أيديهم قيادها فحكموها خير حكم وسعدت بهم وفى ظلهم فاءت إلى الكرامة والرجولة والعزة والسداد .

ورأى الغرب كيف أغار المسلمون على أطرافه فانتقصوا أطرافه فى فرنسا والأندلس عندما اقتحمها طارق وموسى وفى تركيا والبلقان عند ما وصل محمد الفاتح إلى أسوار فينا ، وفى جنوب إيطاليا وجزائر الدوديكانيز .

شهد الغرب روح المسلمين القوية المؤمنة التى ردت الغزوات الصليبية مهزومة مدحورة فاستفاق على نزعة ظالمة طاغية ، هى أن يزحف من جديد على هذه الدول الاسلامية فيرى فيها رأيا وبدأ زحفه هيابا وجلا خائفاً ، وسار على شواطىء البحار وسواحلها متوجسا ، باسم التجارة والسلع فلما اصطدم بالمسلمين مرة ومرة

تكشف له الأمر عن ضعف سببته تلك الغفلة التى رانت على المسلمين فأصابتهم سنة من النوم وجعلت بأسهم بينهم ، وجعلتهم صرعى للمناقشات البيزنطية ، والجدل والـكلام .

أنهم غفلوا عمن حولهم وعما يراد بهم ، أما الخلافة فقد استنامت إلى الضعف والهوان ومن ثم بدأت أوربا تؤجج نيران الفتنة وتخلق أسباب الاتصال وتوسد لنفسها عوامل البقاء فحرضت العناصر باسم الحرية وحملتها على التمرد باسم الجنسية وبدأت أوربا الطامعة الراغبة إلى استعمار المسلمين واحتلال وطنهم ترى فى هذا الشرق الغافل ميدانا خصيبا للسيطرة والاستيلاء ورأت فى المسلمين ضعفا وتخاذلا وانصرافا عن التراث الخالد والمجد الجبار ،ولمست منهم ضعفاً واضحا عن إداء الرسالة وتخلفا لاظاهراً عن أحكام الله ، ورأت أن هذا هو مقتلهم ، فليس فى المسلمين قوة تظاهرهم أكبر من عزة الايمان برسالتهم والتمسك بكتابهم وتنفيذ تشريعهم ، ومن ثم بدأت تؤلب العناصر المسيحية وغير المسيحية ، وبدأت تتدخل بواسطة وكلائها وسفرائها ، وبدأت تزحف بتجارتها إلى الشواطىء والموانىء وتنال الامتيازات ، وأخذت تعد العدة لعمل منظم ثابت ، فأنشأت المدارس والمستشفيات والملاجىء تجعلها حصونا ظاهرها الرفق والخير وباطنها الشر والإثم والغواية .

وقذفت الشرق بالفتنة الغربية الممثلة فى المرأة والخمر ، وأعدت لأهله المصارف والشركات لتقرضهم المال وترهن الأملاك ، لتنفق هذه الأموال فى أسواق الغانيات ، ومصارف الإثم والشهوات ، وهيأت هذا الميدان بالوان صارخه ، وأضواء كاشفة ، وزخارف وأصباغ وعطور وبخور ، نافست ألف ليلة وتسلطت بذلك على الباب الشباب فصرفته عن أسرته وأهله ، وكرامته ورجولته ، وعفافه وغيرته ، وعرضه وإيمانه .

فلما تمكنت منه تماما تهدمت الأسرة وتمزق البيت وتحطم الجسم وضاع المال وأصبح الشاب القوى الفتى ، الذى يتفصد حماسة ويتقد غيرة ، رخواً ضعيفاً ، مخنثا مريضا ، متهالكا ذليلا ، لارجولة فى قلبه ولا قوة فى جسده ولا إيمان فى روحه ولا علم فى عقله ، إنما هو انسان تافه لايستحق اسم الانسان .

وقذفت أوربا الشرق الإسلامى بالشك الغربى ومذاهب الفلاسفة المغرقين فى الالحاد والمروق ، والسخرية بالماضى والاستهتار بالتاريخ ، والنافرين من الدين والرسل والـكتب المنزلة ، المتطلعين إلى حكم العقل وحده ، وهو قاصر وإلى مبادىء الحس ومنطق الطبيعة وحساب الرياضيات وهى لجه ففتنوا الشباب عن إيمانه بربه فشك فى الخالق ونفروه من الدين فأنكر الرسل وهزأوا تبراثه فاستخف بالقرآن ، ومضى ساخراً بتاريخ الاسلام وتاريخ الوطن لايراهما إلا نوعا من الأساطير أو لونا من الخيال المصنوع .

وتسلطت أوربا على العلماء فأطمعتهم فى الذهب الوهاج والمناصب العليا ، والمركب الذلول ، والملبس الأنيق فضاعت من نفوسهم معالم الدين ، وماتت على أفواههم كلمة الحق ، ومحيت من عقولهم أصول الإسلام .

ومن ثم ساروا فى ركب الغاصبين يأمرون الناس بطاعة أولى الأمر ، ويذلون للحاكم المستعمر ويسيرون وراء كل دولة وينعقون وراء كل ظالم ، وافهموا الناس أن الاسلام صلاة وصيام ، ومساجد ومسابح ، ودروشة واعتكاف ، فانصرف الناس عن حقوقهم أذلة ، وعن اوطانهم ضعافا ، ورضوا بالحياة الهينية اللينة ، ودخل إلى انفسهم ان هذا هو الاسلام فسلموا بذلك .

ولقد عرف نابليون قدر هؤلاء الناس فاستعان بهم وقال عنهم أنهم ضعاف مسالمون لا يركبون الخيل .

وهكذا زحف الغرب إلى بلاد المسلمين زحف القارد المنتقم الشديد اللدد والعداء ، للاسلام والمسلمين وصال خلال هذه السنين صولات طويلة وجولات قوية ، يرمى إلى استعباد المسلمين وتحطيم تعاليم الاسلام ففاز بالأولى وعجز عن الثانية فان تعاليم الاسلام ظلت خالدة باقية ، وقد حفظت قوية كاملة لم تزعزعها خطوب المسلمين ولا أحداث العالم ، وإن غشيت على قلوب الناس غاشية فنسوها أو جهلوها ، أو بعدوا عنها ومن ثم ألح الغرب على منار الخلافة ، وهو قاعدة الوحدة . فأتى عليه ، ألح عليه بالدسائس والمكائد ، والأزمات والمشاكل وإثارة العناصر والثورات ، وخلق المؤامرات والفتن ، فهوت الخلافة تحت ضربات هذه المعاول

النزعة القومية والوطنية الضيقة

وقذف الغرب البلاد الاسلامية بنزعة القومية والجنسية فتنبه لها الناس وسرت فى النفوس مسرى الكهرباء فأوسعت شقة الخصومة بين العرب والترك وألح الترك على العرب بالفكرة الطورانية يريدون أن يعملوا على تتريك العناصر ، وتنبه العرب إلى ما يراد بهم فبدأوا يفكرون فى الوحدة العربية وبيتت انجلترا للوحدة العربية مكيدة غادرة فأوعزت إلى الشريف حسين تمنيه بالامبراطورية فتمكنت فى نفسه الفكرة وما كان الانجليز لها صانعين وإنما كانوا مستجيبين يريدون أن يحولوها إلى مصلحتهم. فلما جاءت الحرب الكبرى اتفقوا معه اتفاقا رسميا مكتوبا تداولته خطابات متصلة استمرت وقتاً طويلا حتى حددت ما يريد فاطمأن لها وأعلن الثورة على الترك وقطع علاقته بهم .

واستيقظت نزعة القومية فى مصر بعد الاحتلال الانجليزى وغذتها انجلترا التى كانت تريد أن تفصل مصر عن تركيا لتكون لقمة سائغة لها وحدها ، فظهرت دعوى (المصرية) وكان من دعاتها أنصار الاستعمار وأصدقاء الانجليز وأبناء حزب الأمة . ولم يرد هؤلاء بها لمصر خيرا بقدر ما أرادوا بها خصومة لتركيا وتمزيقا للجامعة الاسلامية الممثلة فى منار الخلافة العثمانية، وقد كانت النزعة العربية والمصرية فى مصر والطورانية فى تركيا – وقد سار فى تيارها من بعد مصطفى كمال – وسائل عملية لقتل كلمة الاسلام وتمزيق شمل الوحدة وهدم منار الخلافة وتفريق هذا الجميع الملتف حول اسم واحد .

وقد احتدت هذه المعانى القومية الجديدة ، وكانت ريحها تهب من أوربا باسم الجنس وباسم الوطنية ثم أتبعها الانجليز باعداد منظم حتى نادى المصريون بالعودة إلى الفرعونية وقال غيرهم بالاشوريه والبابلية . وقالت تركيا بامجاد جنكيزخان وتطرف الاتراك فى هذا المعنى حتى ردوا كل عظماء التاريخ إلى أصل تركى واعتبروا النبى الأول سيدنا آدم من أصل تركى ومن ثم هيأت هذه النزعة الفرصة للانجليز لأن يمزقوا الدولة الموحدة وكان أظهر صورها وأشدها عنفا حركة مصطفى كمال حين قلب تركيا من دولة إسلامية إلى دوله لا دينيه وألغى السلطنة والخلافه وفرض لباس القبعة وأخرج المرأة بالقوة إلى الشارع والمرقص وألغى اللغة العربية وترجم القرآن وكتب من الشمال وبلغ به التطرف والاغراب فى التغريب أن احتفل بزواج أول مسيحى لمسلمة ! . .

وتآمر الانجليز على العرب فوعدوهم ومنوهم بدوله وخلافه فلما خاصموا الأتراك وانضموا إليهم وثاروا ثورتهم وفاز الحلفاء بهذا الجناح العربى نكثوا بالعرب ، ومزقوا الوطن العربى ووقعوا فيما بينهم (معاهدة

كسكس باكو) التى أباحت فلسطين وشرق الأردن لانجلترا وسوريا ولبنان لفرنسا ، ولم تكن هذه المؤامرة الاستعمارية هى الأولى وإنما سبقتها مؤامرات ، كانت المؤامرة الأولى يوم تجمعت الدول الغربية المتخاصمة جميعها فى معاهدة واحدة ، لتقف ضد مصر أيام محمد على وفى هذا مافيه من معنى الخصومة للوحدة فى الشرق وللأسلام ولو اختلفت المطامع .

ويظهر هذه المعنى مرة أخرى عندما كانت فرنسا تناصر المصريين على انجلترا وتدعى أنها حامية الحريات وتهاجم انجلترا فى (فاشودة) لتخرجها من مصر ، ثم تنجلى هذه المناورة عن خدعة المطامع والتقسيم ، ويتبخر هذا المعنى تماما بعد أن عقدت انجلترا مع فرنسا معاهدة الوفاق ١٩٠٤ هذه المعاهدة التى أطلقت انجلترا لفرنسا يدها فى شمال أفريقيا مقابل أن تطلق انجلترا يدها فى مصر .

وهكذا خدع العرب بالانجليز وحاربوا معهم وقتل المسلمون العرب إخوتهم من المسلمين الأتراك فى حرب ضروس حتى أجلوهم عن الحجاز وفلسطين وسوريا ودخلها الانجليز مع العرب ولم يدروا أنهم إنما كانوا يفتحونها بدماء المسلمين ويستخلصونها من أيدى الأتراك ليكون لقمة سائغة لانجلترا وفرنسا يقتسمانها بينهما . وأن العرب قد تخلصوا من الأتراك المسلمين ليسلموا أنفسهم للانجليز والفرنسيين وأن هؤلاء قد حطموا منار الخلافة وأشعلوا نار العصبية والجنسية والقومية ليصرفوا العرب عن الاسلام إلى القوميات ، وليمزقوهم دولا وأمما ، وأقل من الدول والأمم

وهكذا سار الانجليز على مبدئهم الخطير « مزق تسد » وقسموا هذا الوطن الواحد إلى أوطان منفصلة وضعوا بينها الحدود والحواجز

وهم الذين وقفوا ـ من قبل ـ فى وجه الاسلام فى البلقان فردوا نفوذه إلى آسيا الصغرى وأجلوا سلطانه عن أوربا كما أجلوا من قبل سلطانه من الأندلس .

وفتحت فلسطين بجيوش العرب لحساب الدوله العربية الموعودة ، فاذا (باللنبى) يقف على رباها ويقول فى حقد بالغ يملأ نفسه تلك الكلمة الصليبية ! فيسجل على أمته الظالمة هذه الخصومة الظالمة ، خصومة الطغاة ، التى كانت تعمل على الانتقام حتى وأتاها الحظ بالتغرير بالمسلمين والخداع للعرب والضعف للشرق .

وعود وتصريحات

ورأت انجلترا أن فلسطين مرقع استراتيجى هام ، وأنه لو بقى منضما إلى سوريا لنال استقلاله فسلطت عليه اليهود واباحته لهم وصرح بلفور تصريحه المشئوم فى ٢ - ١١ - ١٩١٧ بالوعد بوطن قومى لليهود ، هذا الوطن القومى الذى وعدت به انجلترا إنما كان باستثارة معانى الاشفاق والعطف ء المشردين الذين لامأوى لهم فاذا بهم بعد قليل يتمردون ويطغون ويعتبرون انفسهم اصحاب البلاد ويطالبون فى جراة عجيبة بقيام دولة لهم ، ويصل الأمر بدعواهم الباطلة ان تسمع لهم هيئة الأمم المتحدة وتعتمد وكلائهم ، دون العرب ، ويقدم العرب الاحتجاجات الصارخات ليكونوا على قدم المساواة مع اليهود امام اللجان ، وليعترف باللجنة العربية العليا ، واحسرتاه . .

وكم فى شهر نوفمبر من احداث ؟ من احداثه تحول الوطنية المصرية القومية الثائرة المخاصمة للانجليز ، المعلنة لعدائهم إلى سياسة المناورة والصداقة والمساومة بالحقوق وقبول التجزئه ،

فقد تم فى هذا الشهر ، فى ١٣ نوفمبر مقابلة من انتدبوا انفسهم للاتصال بالمندوب الانجليزى » وقدموا له العروض السخية فى القضية المصرية وحددوا موقفهم بأنهم يطالبون مساعدة انجلترا حامية الحريات ، ولا يتحدثون فى مصر إلا معها ولا يتحدثون فى اوربا إلا معها وصرح كبيرهم بأنه يضع تحت امرة انجلترا قناة السويس كضمانه وتعالفها على اعدائها وتقدم لها فلذات الأكباد ليحاربوا معها . . وباللخزى والعار .

وخدعة اخرى من خدع سنة ١٩١٨ هى خدعة تصريح (ولسن) وحق تقرير المصير ، هذه الدعاوة الكاذبة المضللة التى خدعت الشرقيين والمصريين والعرب والمسلمين وظنوا ان وراء هذه الألفاظ البراقة حقا ، فاذا بالمصريين يبرقون إلى (ولسن) ويطالبون بحق مصر فى تقرير مصيرها فتجيب امريكا بأن تصريح ولسن لاينطبق على مصر وانها تقر حماية بريطانيا وسلطانها عليها .

وهكذا تنهزم الأقوال المغرية امام التجارب المؤلمة . . خاصة إذا كان الأمر فيما يتعلق بالدول المسلمة امام الدول الغربية المتجمعة على الطغيان والسيادة .

ولعل هذا المعنى ، معنى استعباد المسلمين واحتلال بلادهم يبدوا واضحا جدا إذا نظرت الآن إلى خريطة العالم فوجدت اللون الأحمر من نصيب كل مأذنه ومسجد . .

وتظهر خدعة اخرى فى هذه الحرب مشابهة لخدعة ولسن هى خدعة ميثاق الأطلنطى الذى عقده طاغيتان من ائمة الاستعمار هما روزفلت وتشرشل فى عرض المحيط وقررا فيه حق الشعوب فى الحرية والاستقلال وطنطن له المصريون والعرب والمسلمين ونسوا انهم خدعوا فى المرة الأولى ويمثل هذا التصريح ، وإن هذا التصريح ماهو الارجاء الغريق فى الانقاذ ، فإذا أنقذناه لوى وجهه فى كبرياء ونسى الفضل وقال إنما هو لاعبيدا!.

ومن التصريحات الخطيرة التى أصابت المسلمين بالطغيان الظهير البربرى (١٦ مايو سنة ١٩٣٠) الذى أصدرته فرنسا فى مراكش لتجعله تكأة لها لتنصر المسلمين ولتفصل البربر ولتمزق الوحدة ولتطعن الاسلام والتشريع والعربية بخنجر مصقول

وهى ماتزال تعمل إلى اليوم لإضافة هذه الأقطار إلى الولايات الفرنسية وتعتبرها فرنسا الجنوبية وتحول بينها وبين العرب وتهدم دينها وتمزق تشريعها

ولقد لقى المسلمون من هذا الزحف الطاغى أثارا سودا فقد وصلت وحشية أوربا إلى حد أثار المذابح والثورات الدامية فى مصر والعراق وسوريا وفلسطين والمغرب والهند وأندونيسيا قاسى منها المسلمون العزل أهوالا من رصاص الانجليز والفرنسيين ، ومات منهم عدد ضخم ، صرعى فى ميدان الكفاح فى سبيل الحرية

وسلطت انجلترا فى البلاد التى احتلتها ـ أبناء البلاد بعضهم على بعض وأثارت بينهم الفتن الطائفية والمذهبية التى استفحلت فى كثير من هذه الأقطار وكان لها أبعد الأثر فى تمزيق الوحدة وإيقاد الخصومة والتمكين للعدو الدخيل

فهى قد قذفت عرب فلسطين باليهود وأمدتهم بالسلاح والذخيرة وأعانتهم على العرب بقوة البأس وسلطان القانون فتزاحمت شراذمهم الآثمة على أرض العرب وجردتهم من أرضهم وأقامت عليها المصانع والحصون

وأوقدت فى محيطها عواصف إرهابية قامت على أثرها الثورات بين العرب من ناحية واليهود والانجليز من ناحية أخرى ، وكان العرب فيها هم أصحاب الغرم وهم الضحية

وأعانت فى الهند الهندوس بالسلطان على المسلمين ، أصحاب الأوطان وحكام البلاد ، وسلطتهم على المسلمين فأصابوا منهم ، وهددوهم فى أوطانهم وذبحوا منهم منذ وقت قريب فى معركة واحدة حوالى الثلاثين ألفا

وتسلطت فرنسا على المسلمين فى سوريا مرتين أولاهما سنة ١٩٢٠ فى معركة ميسلون والثانية فى ثورة الشام على الاستعمار الفرنسى البغيض سنة ١٩٢٥ وخسرت سوريا فى كلتاهما شبابا كريما ورجالا أبطالا ولم تكن التضحية الأولى ، بل كانت دموع المآقى لما تجف بعد على شهداء سنة ١٩١٥ الذين علقهم على أعواد المشانق جمال السفاح .

وسلطت فرنسا الآثمة حكامها على المسلمين فى المغرب فأذاقوا المسلمين ألوانا من الظلم والاعنات والنكال وقتلوهم اكثر من مرة وذبحوا منهم فى معركة واحدة قريبة التاريخ اكثر من ٤٠ الفا

وكذلك فعلت اوربا بالمسلمين فى البوسنة والهرسك وفى البانيا فكم اقيمت المذابح ليصلاها المسلمون ، والمسلمون وحدهم هم شهداء مذابح الغرب .

* * *

اما فى مصر فان حوادث دنشواى والشوبك والعزيزية والتل الكبير وضرب الاسكندرية بمدافع الأسطول واثام الانجليز خلال ذلك التاريخ وقتلهم الشباب بالرصاص سنة ١٩١٩ ، سنة ١٩٣٥ ، سنة ١٩٤٦ كل هذا كان تحديا ظاهرا لاشك فيه وصوراً من صور القصاص للخصومة الظالمة التى ذهب الغرب فى الانتقام لها إلى ابعد الحدود .

ولقد حاربت انجلترا الظالمة دولة أندونيسيا المسلمة دون سبب إلا لتقف حائلا دون قيام دولة إسلامية تعدادها ٧٠ مليونا فى الشرق الإسلامى فى أقصى جناحه الأيمن فظاهرت هولندا على المسلمين وأخذت تقتص منهم وتكيد لهم .

واستعانت انجلترا لخصومتها هذه فى فلسطين ومصر والعراق والهند بأساليب عجيبة :

استعانت بضعاف الوطنية من أبناء البلاد ، فاستعانت فى مصر ببطرس غالى ومصطفى فهمى وفتحى زغلول فى توقيع اتفاقية ١٨٩٩ الباطلة والانتقام الرهيب من المصريين المظلومين فى حادث دنشواى واستعانت بالحزبية المصرية وبالزعامة الوطنية على قتل الشعور الوطنى وتحويله من الجهاد والنضال إلى المساومة والاستخداء واستعانت بزعماء ١٣ نوفمبر وموقعى معاهدة ٣٦ وحكام ٤ فبراير على سحق الكرامة المصرية حتى وصلت آثار هذا الإستسلام إلى أن فرض على مصر تقديم وسائل الترفية عن الجنود الانجليز خلال الحرب الأخيرة من خمر ونساء ، نساء هن من المسلمات سلمت أعراضهن للجيوش الانجليزية باسم معاونه الحلفاء وتنفيذ المعاهدات

واصطنعت انجلترا لها فى كل قطر فريق من الخونة يقفون فى وجه العاملين أو يحولون التيار القوى الصادق إلى التخدير والضعف والركود ، ويصطنعون لذلك كل وسيلة من وسائل الأعزاء بالمال والمراة والنصب أو وسائل الانتقام كالسجن والنفى والتشريد .

واستعانوا إلى ذلك أيضا بمن هو أقسى من ذلك وأشد !

استعانوا برجال من الانجليز ، اسموهم أصدقاء العرب ليضللوا بهم على العرب ، وليكونوا عيونا لهم وإرصاداً ، أمثال (بلنت) فى مصر و (لورنس) فى سوريا و (فيلبى) فى الحجاز وغير هؤلاء . . . هؤلاء الذين يؤججون الرأى العام ويثيرون الفتنة كما فعل بلنت مع عرابى حين حرضه على الخديو ، وأمكن للانجليز من التسلط على البلاد ، وكما فعل (لورنس) حين غرر بفيصل والشريف والعرب حتى قدموا الضحايا فى فتح سوريا وفلسطين ثم سلموها لقمة سائغة للانجليز والفرنسيين ـ والانجليز ـ كما قلت ـ يعرفون جيدا ، إن الإسلام هو مصدر الخطر على سلطانهم فى الشرق فهم قد حاولوا ويحاولون دائما أضعاف صوته بتجريده من معناه وتسليط أضواء الحضارة ومغرياتها حتى تصرف الناس عنه ، وبأثاره روح القومية حتى ينشغل كل قطر بنفسه فلا يتلاقى المسلمون فى معنى أو فى وحده ، وبتأجيج الخصومات بين الأقطار حتى لاتتصل وكان ذلك استجابة عملية لقول غلادستون الصريح فى مجلس اللوردات الانجليزى فى أواخر القرن الماضى حين أمسك بيده (القرآن الكريم)

وقال (مادام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلا طمع لنا فى إخضاع المسلمين)

وقد صدق ، وستثبت الأيام أن ماذهب إليه هو الحق ، وأن المسلمون الآن قد عادوا إلى القرآن بأقوى ما عرف غلادستون فى ١٨٧٠ فلا طمع لهم فى إخضاع المسلمين . إن هذا القرآن ، هو أستاذ العزة والرجولة والكرامة التى لاتقبل الذل ولا الهوان ولا الضعف ثم هو أستاذ التشريع وتنظيم المجتمع وقيادة الأمة إلى الهدف الموحد وإلى العدل الكامل ، وقد اعترف الغرب فى مؤتمر لاهاى سنة ٩٣٨ ووشنطون سنة ٩٤٥ بأن الشريعة الإسلامية شريعة كاملة مستقلة .

وها نحن والحمد لله نرى خطوات الوحدة تسير واسعة ثابته فمن مرحلة القومية إلى دور الجامعة العربية وهانحن اليوم على أبواب الجامعة الإسلامية تظهر اليوم فى هتاف الهند لقضية فلسطين وهتاف أندونسيا لقضية المغرب وهتاف تركيا لقضية العرب واستجابه أقصى الجناح الأيمن لأقصى الجناح الأيسر فى حب وأخاء بل وفى تضحية وفداء واستعداد للبذل والدماء .

وهكذا نزحف إلى الغاية فى قوة تبدد أحلام انجلترا وأمريكا فى الرأسماليه ، وأحلام اليهود فى الصهيونية ومطامع روسيا فى الشيوعية وتقضى على أطماعها على اكتساح الشرق ، نعم أن هذا الوعى الجديد سيضع حدا يحول دون إنفاذ الغرب الصليبى الغادر لأغراضه الخبثة وسوف تتحطم فى القريب هذه النظم على رؤوس أصحابها وسيكون للغرب مع المسلمين يوم ، يوم أحمر ملتهب ، هو يوم القرآن ، يوم يحقق المسلمون رسالة الحق التى تنوء إلى ظلها الأمم بمختلف طبقاتها وأديانها راضية سعيدة مطمئنة بالعدالة والأخاء ، بل لاأبالغ إذا قلت أنها ستكون الترياق الشهى للإنسانية المعذبة ، والعلاج الكريم للأدواء المستعصية والهدى الذى لاتضل بعده أبدا والحق الذى هو منار الإنسانية الأول والأخير .

(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)

ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريبا

القارعة الأولى

سبقت البرتغال الدول إلى المحيط الهندى وأرست مراكبها بشواطىء الهند فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بقيادة هنرى الملاح وفاسكودى جاما .

ثم تلتها إلى هذه الشواطى هولندا فاستقرت فى الخليج الفارسى ومصايد اللؤلؤ .

ثم اقتحمت هذه الشواطىء يعد لأى فرنسا فاستقرت فى الهند حتى زاحمتها عليها انجلترا واستطاعت بعد قليل إجلائها .

وفى سنة ١٨٥٨ انقلبت شركة الهند الشرقية التى أسستها انجلترا فى الهند إلى حكومه .

قبل هذا بقليل فى سنة ١٧٩٨ تحرك نابليون من فرنسا يخوض البحر الأبيض حتى وصل إلى مصر تملأ نفسه مطامع ضخمة وآمال واسعة فى أن يقيم أمبراطورية فى الشرق .

وقد كان وصوله إلى مصر سببا من أسباب يتقظ انجلترا إلى موقع مصر الجغرافى وإدعائها بأنها طريق المواصلات إلى الهند .

* * *

كان مركز مصر الخطير موضع التقدير من أوربا حين تفتحت عيناها الاستعماريتين على عزو الشرق خاصة ، سيما بعد أن أصبحت شركة الهند الشرقية سلطانا مسلحا فى الهند .

فضلا عن أن مصر هى قلب الشرق الأوسط وزهرة الشرق أجمع ، فلابد من أن ترنوا إليها فرنسا وتهتم بها ، وفرنسا بعد فى فجر نهضة نابليون وهى طامعة لأن تراجم انجلترا وتسابقها .

ولكن الروح المصرية القوية ، الممثلة فى القيادة الاسلامية التى يدين بها الشعب إذ ذاك لعمر مكرم كانت كافية رغم ضعفها فى العدد والآلات لأن تقاوم الفرنسين وأن ترعجهم وأن تنغص عليهم أيامهم فلا يجدون اطمئنانا ولااستقراراً ، إلى أن قام الشعب بثورته الجائحة فى أكتوبر سنة ١٧٩٨ مما اضطر الفرنسيين إلى التفكير فى العودة إلى بلادهم وعادوا فعلا فى العام التالى ١٧٩٩ يخفى حفين وخاصة بعد أن هزم نابليون فى عكا - والواقع أن هذا الزحف الفرنسى كان القارعة الأولى على أبواب الشرق الأوسط وعن طريق مصر ... وقد لفت هذا الموضع الجغرافى الأنظار فاتجهت إليه أهداف المستعمرين وسبق إليه نابليون ثم بدأت انجلترا ترنو إليه فى رغبة عجيبة إلى احتلاله والسيطرة عليه وهى التى آزرت تركيا على مقاومة نابليون وأرسلت من وراءه (ولسون) لخطم أسطوله،فعلت ذلك لا لترد عن تركيا ومصر عادية المغير وإنما لتحفظ لنفسها الحق الأول فى السيطرة على مصر .

واعتقد أن (حمله نابليون) هى أول عوامل الزحف الاستعمارى الغربى بحق ، وإن كان قد سبقت إلى ذلك حركات هولندا والبرتغال وفرنسا فى خليج فارس وشاطىء المحيط الهندى إلا أن هذه الحركة كانت تحمل طابع

الاحتلال وروح الطمع فى إقامة مستعمرة ضخمه كتلك التى كان يحلم بها نابليون ومنذ هذا اليوم ، يوم مقاومة الانجليز للفرنسيين من أجل مصر وقد اشتعلت نار التنافس الحادة بين فرنسا وانجلترا واستمرت وقتا طويلا فلم تنتبه إلا فى سنة ١٩٠٤ حينما اتفق الاستعمار على تقسيم الغنيمة وابتلاع الأوطان الاسلامية .

وقد بقيت الخصومة وظل الخلاف قائما بين انجلترا وفرنسا بعد غزو نابليون لمصر ، ووقفت كلتاهما من الدولة العلية موقفا مباينا فى الوقت الذى صادقت فيه فرنسا محمد على واتخذها هو عونا له كانت انجلترا تصادق الباب العالى وتعقد معه أواصر الصداقة وتعينه على محمدعلى وفرنسا ، وإن كانت فرنسا لم تكن بوماخلصة فى هذه الصداقة فقد غدرت بمحمد على فى آخر الأمر بعد أن أحسن الظن بها وكان لموقفها معه أبعد الأثر فى تسليمه بمعاهدة سنة ١٨٤٠ كما سنبين فيما بعد

واشتدت هذه الخصومة عندمااتفقت فرنسا مع مصر على حفر قناة السويس وعارضت انجلترا فى حفرها أشد المعارضة فلما أنشئت عملت انجلترا على شراء أسهمها سرا فى شبه مؤامرة وفى أزمة من أزمات مصر الحادة

وظل الخصام قائما بين انجلترا وفرنسا وازداد حده بعد أن احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ إذ كان أسطول فرنسا وانجلترا قائمين فى البحر الأبيض معا عند أزمة يناير سنة ١٨٨٢ ثم آثر الأسطول الأول العودة ، وبعد أن كانت السيطرة المالية فى سياسة الديون وصندوق الدين والرقابة الثنائية فى مصر تقوم عليها فرنسا وانجلترا أصبحت تحت سيطرة انجلترا وحدها مما استدعى بعد ذلك وقوع حادث فاشوده الذى اضطرت انجلترا أن تعلن أمام فرنسا أن هذه الأرض أرض مصرية .

وظل بعض زعماء الوطنية فى مصر يرى أن فرنسا تعطف على القضية المصرية حتى انكشف هذا الأمر عن مؤامرة الوفاق سنة ١٩٠٤ حيث قبلت كل من فرنسا وانجلترا أن تطلق كل منهما يد الأخرى فى قطر من الأقطار الاسلامية ومنذ هذ اليوم زاد ضغط الاستعمار فى مصر حدة وقسوة فكان من أثاره حادث دنشواى

وكل ما أريد أن أستخلصه من هذه القارعة الأولى أنها كشفت لأوربا ضعف الشرق عن مواجهة الحركات الحربية الجديدة فى الغرب مما قوى مطامع انجلترا على التوغل فى الشرق وعلى محاوله الاستيلاء على مصر ومما دعاها فى إرسال حملة فريزر فى مارس سنة ١٨٠٧ أى بعد ثمان سنوات ، هذه الحملة التى هزمها الشعب المصرى قبل أن تتنبه لها الحكومة والجيش الرسمى !

نعم . هزمتها رشيد الباسله هزيمة منكرة وردتها على أعقابها خاسرة بعد أن وقعت معاهدة بالجلاء وبتأكيد استقلال مصر وحريتها

* * *

وكانت زعامة مصر الشعبية خلال ذلك التاريخ معقودة للسيد عمر مكرم ، هذه الزعامة التى قاومت نابليون وتعرفت إلى أسباب العزة والتخلص من الغاصبين وقد جاهد عمر مكرم الظالمين من المماليك والأمراء ووقف فى وجه الدخلاء وقاد الشعب ضد نابليون ثم اختار محمد على لولاية محمد واختلف معه بعد ذلك عندما استبد

محمد على بالأمر وحين شعر أن الشعب ملتف حول عمر . وقد كان من قرارات المؤتمر المصرى فى ١٢ مايو ١٨٠٥ : برئاسة عمر « ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها العلماء والأعيان » وفى ١٣ مايو ١٨٠٥ خلع عمر مكرم الوالى التركى خورشيد وعين محمد على .

وكتب هذ النص الاسلامى القوى الذى يعتبر مقياسا للشعور الاسلامى القائم فى نفوس الشعب إلى ذلك الوقت (إن للشعوب طبقا لما جرى به العرف ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق فى أن يقيموا الولاه ، ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم) وقد أزعج هذا الشعور الاسلامى الدفاق نابليون . فحاول أن يترضى المسلمين باسلامه ، ثم ظل هذا الشعور يقظا متسلطا حتى جرفته أسباب الاحتلال والرقابة المالية والتدخل الأجنبى وسادت الأوضاع الغربية الخادعة وانطوت هـــذه الصفحة المشرقة إلى حين .

والواقع أن هذا الشعور كان مما حارب الاستعمار فيما بعد .

وللذين يقولون أن الدين لايتدخل فى السياسة نضع هذا الملحظ من حياة السيد عمر مكرم فيما عرضناه آنفا

° ° °

ولا نستطيع أن نذكر هذا الجانب دون أن نسجل الجانب الآخر ، جانب العلماء الضعفاء الذين ينطوون دائما تحت أكناف الاستعمار ويسيرون فى ركاب الغاصب ، هؤلاء العلماء الذين استخفهم نابليون بالمال والمناصب ومتاع الحياة وترفها فأطاعوه ، واعتبروا الاحتلال الفرنسى من قدر الله الذى يجدر ان يقابل بالتسليم وكان من نداءاتهم إلى الشعب قولهم (فعليكم ألا تحركوا الفتن ولا يطيعوا أمر المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ونصيحتنا لكم ألا تلقوا بأيديكم إلى التهلكه واشتغلوا بأمور معايشكم وأمور دينكم والدين النصيحة) وهكذا سخر نابليون هذه الطائفة لهواه ووهبها ذهبه وغذى مطامعها فى المناصب والسلطان ، وهكذا تتكرر المأساة فى كل عصر ، فنرى من يتهم عمر مكرم ومن وراءه من المؤمنين بالحرية بأنهم (مفسدين ومنافقين) والتاريخ يعيد نفسه . وهكذا يكون أمثال هؤلاء فى كل زمن حرباً على الحق والحرية وعوناً للمستعمر والغاصب والدخيل .

ويقول نابليون عن هؤلاء فى مذكراته (لكى نسوس هؤلاء الناس ـ أى المصريين ـ لابد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، وقد كان لابد أن نقيم عليهم رؤساء وإلا أقاموا رؤسائهم بأنفسهم ولأن للعلماء خلقالينا ولأنهم أكثر أهل البلاد فضيله (!) ولا يعرفون كيف يركبون حصانا ولا قبل لهم بأى عمل حربى وقد أفدت منهم كثيرا واتخذت منهم سبيلا للتفاهم مع الشعب وألفت منهم (ديون القضاء)

وقد استطاع نابليون حقا أن يستغل هذه الطائفة خوفا من أن يقيم المصريين من أنفسهم رؤساء (كالسيد عمر مكرم) وقد وصف نابليون العلماء (علماء عصره !) هذا (الوصف) الخاطىء ، بأنهم ضعاف لينون ، وأنهم لايركبون الخيل ولا قبل لهم بأى عمل حربى ، ولكن السيد عمر مكرم كان قويا شديداً يسقط الأمراء يقود الشعب إلى النضال

والواقع أن نابليون اشترى هذه الطائفة التى رضيت بالمتاع والنضار حتى استطاع أن يحملها على أن

تقول (ونخبركم أن الطائفة الفرنسوية يحبون المسلمون وملتهم ويبغضون المشركين وطبقتهم) وهكذا جبن علماء الدنيا وعلماء القطيفةوذلوا فلم يناصبوا الغاصبين المستعمرين العداء ، بل كانوا لهم عونا حتى اعتبروهم ممن (يحبون الاسلام والمسلمين) وماكانوا يوما إلا حربا على المسلمين والاسلام .

أليس هؤلاء الفرنسيين الظلمة هم الذين امتهنوا كرامة الأزهر واقتحموه بخيولهم وأحذيتهم وكانوا أول من حمل إلى مصر الخلاعة والتهتك والتهالك على الخمر وأول من عبث بتقاليد المسلمين وأهدر كرامة المصريين

إن فرنسا كانت ترى فى اقتحامها الازهر واستبدادها بالمصريين انتقاما من وراء الوعى ترد به على هجمات مسلمى الأندلس على حدودها واقتحام بلادها .

إنها ثارت نهر اللوار وموقعة بلاط الشهداء ! .

ولكن قوة المؤمنين بحقهم ، الذين قادهم عمر مكرم كانت أعظم من قوة العلماء الرسميين الذين يستمدون سلطانهم من الصليب الفرنسى ! وانتهى الأمر بعودة الفرنسيين وسيطرة هذه الروح الشعبية سيطرة تحكمت بها مصر فى مصاير الأمور حتى استطاع عمر مكرم إن يخلع الوالى حين جار وزاغ ؟

بذور الوحدة العربية

بغزو نابليون لمصر ، تنبه الغرب ، إلى أن الشرق ضعيف منحل ، وأنه لا قوة له على المقاومة وأن منار الخلافة فى القسطنطينية فى حالة النزع ، حتى أطلق عليه دولة الرجل المريض !

كان هذا مما دعى دول الغرب على أن تفكر فى تقسيم الأمبراطورية العثمانية فى جد ويقظة وأن تحاول كل منها أن ترد الأخرى حتى لا يكون لها سلطان زاحف ، وكانت أوربا لا تحب لتركيا أن تقوى فكانت تحارب كل حركة يقظة فى داخلها وتظل تعين العناصر الرجعية الضعيفة على العمل والبقاء ، وكانت أمم الغرب فى الوقت نفسه تتنافس على خطب ود الباب العالى يريد كل منها أن يحظى بامتياز جديد ، وكانت التجارة هى الميدان الأولى لهذا التسلط ولهذا الإستعمار المحجب .

وكانت المدارس والملاجىء ودور التبشير التى تنشر الثقافة الغربية الشاكة الملحدة المضللة هى الوسيلة الثانية وقد استطاعت فرنسا أن تنجح فى هذه المهمة فيكون لها حصونا من الكنائس والمدارس والملاجىء فى لبنان وشاطىء البحر الأبيض الشرقى .

وكانت هذه الدول تؤلب العناصر المختلفة على الثورات والفتن لتزعزع أمن الدولة الشيخة ولتعجل بانهيارها فقامت ثورات البلقان وحرب المورة وحرب القرم .

وكان لروسيا فى هذا النضال القدح المعلى وتلك خصومة قديمة عنيفة بينهـــا وبين تركيا ، لعل مصدرها (جامع أيا صوفيا) الذى تطمع روسيا فى أن تحيله كنيسة مرة أخرى ، ثم هذه المضايق التى تود أن تضع يدها عليها لتصل بها إلى البحار الدافئة .

وكانت هذه الدول أيضا تعمل من ناحية أخرى على أن تحول دون أى يقظة فى الشرق من شأنها أن تقود الأمم إلى الحرية أو توقظ الناس من هذه الغفوة الطويلة .

ولذلك كان من أكبر ما أزعجها حركتان : حركة فى شبهة الجزيرة العربية ، هى حركة الوهابين وهذه حركة دينية كانت محدودة بحدود شبة الجزيرة بين نجد والحجاز وإن كانت ذات مطمـع فى الزحف على العالم الإسلامى كله .

والحركة الأخرى هى حركة محمد على التى لبست ثوبا حربيا والتى دعت إلى الأمبراطورية العربية فكان على أوربا أن تقاومها بكل وسيلة وأن تدع خلافاتها فى قلب أوربا لتتحد على مقامه هذا الروح الجديد اليقظ الذى يريد أن يخلف تركيا فى الشرق فيضم شتات أممها وتوقظ شعوبها ، فى الوقت الذى تريد فيه هذه الدول أن تستبق تركيا على حالتها من الضعف والوهن وحالة الممالك الإسلامية على وضعها الممزق المتصدع . .

كانت حركة محمد على حركة ذات بريق ، وكان رجلا ذا طموح ، وقد واتته الظروف بكل ما يمكن له ذلك من جيش حربى معد ، أسطول بحرى قوى ، أمم غافية ضعيفة عن المقاومة ، وبطل قائد مغوار (ابراهيم) ولو سار محمد على على الخطة الطامحة الجريئة التى رسمها ابراهيم على ضوء الحوادث والمواقع التى كان يبلى فيها لنجحت نجاحا

تاما ، ولـكن الفوارق بين شباب حاد قوى مجازف فى ابراهيم وشيخوخه مترينه ذات إناه وضعف فى محمد على كانت سببا فى أن تفشل الخطط الأولى ، فلما جاءت المحاولة الثانية كانت أوربا قد أعدت كل شيء لمقاومتها .

جاء محمد على فى أعقاب ثورة شعبية وطنية إسلامية من قيادها إلى السيد عمر مكرم الذى ناهض الفرنسيين والمماليك والتى قامت على أساس الجهاد الدينى والتى استطاعت أن تتغلب على كل شيء فى طريقها . وقد قيل لعمر مكرم : كيف تثورون على ولاة السلطان الآمرين عليكم ؟

فكان رد عمر ، هذا الرد القوى المفحم ، إن قال .

ألا فاعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحمله الشريعة والسلطان العادل . وهذا الحاكم الذى أرسلـكم ماهو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها . فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه . على أننى لا أكتفى بذكر ماجرت عليه عادة البلاد من قديم بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيره الجو والظلم كان لهم عزله وخلعه)

هذا القول لايخرج مطلقا عن التشريع الاسلامى الصحيح ولـكن الأستاذ حسين مؤنس فى كتابة الشرق الاسلامى يحلو له أن يردد قولا لا أساس له من الواقع أو الحق أو التاريخ حين يقول معلقا على تصريح عمر مكرم الذى سجلناه من قبل (إنه قبس الـكثير من آراء الفرنسيين وأفاد منها ، فليس من موروث الحـكمة الاسلامية السياسية ما يؤيد السيد عمر فى موقفه ولم يحدث دائما فى أى دولة إسلامية أن خوطب الحاكم بهـذه اللهجة الصادقة الواضحة ، ولم يوجد بين المسلمين من يصارح الخليفة بحق الرعية فى عزله إذا استبدأوا ساء)

والواقع أن هذا التصريح مزعج أشد الازعاج وخاصة من رجل مؤرخ مسلم ، وهو مالا يمكن أن يصدر عن أى كاتب غربى مهما بلغ به التعصب أو سوء الفهم !

وقد كنت أحب أن يرجع مؤرخونا إلى حقائق التاريخ الاسلامى ليرو ـ قبل أن يسجلو ـ ما إذا كان أمثال هذا وأشد منه قد حدث فى عصور الإسلام أم لم يحدث .

والواقع أن التاريخ الاسلامى حافل بأمثال هذه الصور ، وما عمر مكرم فيها إلا بهداهم اقتدى ولعل هناك من المواقف ما هو أقوى أثرا وأجل خطرا وأن السيد عمر مكرم الذى حارب الفرنسيين بقواعد الاسلام لم يكن ليأخذ من الفرنسيين ، بل أن الفرنسيين أنفسهم لا يوجد لديهم هذا المعنى إلا بعد أن سبق به الإسلام بألف عام أو يزيد .

إن السيد عمر مكرم يأخذ من معين الاسلام من غير شك ، أما الفرنسيين فهم أظلم الناس وأبعدهم عن الحرية والمساواه والأخاء ، هذه الألفاظ الخداعة التى ضللوا بها الناس ودلوا بها على روح استعماريه ظالمة طاغية ، ونفس ماجنة داعره لاتقر على وضع من أوضاع الرجولة ، ولا تطمئن إلى نظام من نظم الـكرامة والخير .

وآية ذلك أنها خرت صريعة ، كما تخر الغانية ، على قدميها عند ما هاجمتها ألمانيا وصرح زعماؤها بأن الروح المعنوية الفرنسية مصابه برخاوة ومجانه وانحلال مما حال بينها وبين المقاومة .

هذه فرنسا الظالمة الغادرة التي أذاقت المسلمين في المغرب إلى اليوم وفي سوريا من قبل أشد ألوان الاعنات والطغيان وذبحت منهم الآلاف المؤلفة دون ذنب أو جريرة والتي أبت إلا أن تكون دائما علما في الاعتداء على الحقوق والكرامات ، ولتكون دائما مثلا في الغدر وإنكار حقوق الانسان وحرب على مبادىء الثورة الفرنسية الكاذبة التي جعلت منها (عبودية وظلم واستبداد)

إن فرنسا قد خدعت فريقا من شبابنا فسبحوا بحمدها وتنكروا لتاريخهم ووطنهم لينسبوا كل صورة من صور الخير يلمحونها في الشرق إلى مصدر غربي ، ونسو أن في أعماق التراث الاسلامي الذاخر أحداثا عجبا ، وآيات تقبض بالرجوله والايمان .

إن في الاسلام من أمثال ذلك صوراً لاتعد ولاتحصى وإن ذلك الذي قال لعمر « أنا والله لنقومك بسيوفنا ياعمر » لمن أمثال هؤلاء ، وإن ذلك الذي رد عليه حين قال من فوق المنبر أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ففاجئه بقوله لا نسمع ولا نطيع ياعمر لمن هؤلاء أمثال عمر مكرم وأن العلماء الذين وقفوا في وجه معاويه وعبد الملك وهشام وفي وجه المنصور وهارون الرشيد ومنهم أبي حنيفة ومالك والشافعي وعطاء لمن سبقوا عمر مكرم في هذا الميدان وأن أمثال عز عبد السلام والصاوى وغيرهم ممن قاوموا الظاهر بيبرس وغيره لمن هؤلاء أيضا الذين جاء عمر مكرم ليسير في طريقهم .

بل إن أمام الاسلام الأول يرسم هذا الوضع في وضوح فيقول (أعظم الجهاد كله حق عند سلطان جائر)

فليس هذا بغريب على الإسلام بل انه من سقيا منبعه ، ومن اشعاع ضياءه ونوره .

ويعلق الاستاذ شفيق غربال على معنى الاستنفار الإسلامي الذى كان قوام جهاد عمر مكرم فيقول (كان لابد أن يحال بين الناس وبين دعوات الجامعة الاسلامية لأن الوطنية الاسلامية شيء غير الوطنية القومية وانهما يتعارضان تمام التعارض وقيام إحداهما ينفي وجود الأخرى) .

ويقف هنا هذا الأستاذ المؤرخ موقفاً (غربياً) محضا ، وبقليل من المراجعة لأهداف الفكرة الاسلامية الصحيحة يتضح أن الوطنية القومية جزء من الوطنية الاسلامية وأن قوة الجزء وحريته وسيلة إلى سعادة الكل وسلطانه وليس من الصحيح — كما يقول الاستاذ حسين مؤنس — إنها تباعد بين الانسان وبين وطنه وتزهده فيه وتوجه مشاعره وحبه وعواطفه نحو شيء واحد جدير بالحب والحماية والتضحية وهو الاسلام والدولة الاسلامية)

ومن مثل هذه الآراء التي تعرض على هيئة حقائق يستفيد المستعمر وقد استغلتها انجلترا في موقف مصر من الدولة العثمانية وموقف العرب ، وموقف المسلمين في الهند من تركيا .

وعله العلل في خطأ الفهم لهذه الحقائق هو أن الوطنية الاسلامية — التي يقصدها مؤرخينا — هي الصورة الضعيفة التي كانت تركيا تقاسيها في أيام ضعفها وانهيارها ولكن الوطنية الاسلامية التي تقوم على شريعة القرآن وعلى النظام الاسلامي الكامل إنما يرى في كل شبر عليه مسلم أرض إسلامية ووطن

إسلامي وترى أن المسلمين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

والوطنية الاسلامية تقوم على الدفاع عن كل جزء من أرض الاسلام ولا تقبل الوطنية القومية كنهاية لان التحرر هنا إنما يكون على حساب جزء آخر من الوطن الاسلامي .

وأن الفكرة القومية إنما هى أثر من ريح الجنسية التى هبت على أوربا منذ أواخر القرن الثامن عشر والتى تبخرت اليوم على أثر الدعوات العالمية الجديدة التى تدعو (تشرشل) اليوم ليطالب بولايات متحدة أوربية وتدعو أمريكا لأن تقيم (جامعة انجليزية) بحكم الاشتراك اللغوى بينهما .

فالدولة الاسلامية أولى بأن تتوحد وأن تنادى وأن تشترك فى الآمال والآلام ، والاسلام جامعة تنتظم المنطوين تحت لواءه جميعها ، لأنها تصيغهم فى صورة واحدة وخلق واحد واتجاه واحد .

وليعلم من لم يعلم أن تثبيت الفكرة القومية والعمل على نسخ الفكرة الاسلامية إنما هو مقتل من أكبر المقاتل الاستعمارية لروح الوطنية الحق ، إذ أن الوطنية فى الواقع جزء من الاسلام قبل أن تكون معنى مستقل بنفسه ، وأن الدفاع عن الوطن على أساس المثل الاسلامية العليا فى الايمان والجهاد ومقاومة الغاصب لأروع مظهراً وأبعد أثراً وأدنى إلى القلوب من هـــذه الوطنية القومية الجافة التى لاهدف لها .

وأن النزعة القومية ما قامت إلا لتعلى من قيمة العصبية والجنسية الخاصة ولذلك قامت معها ريح الفرعونية والأشورية وغيرها ، وكان ذلك من وسائل الغرب للقضاء على (الاسلامية) التى هى مصدر الخوف والانزعاج له ومصدر النضال والنزال والحياة للشرق الذى لايستطيع أن يعيش بغير نسبه الاسلامي ، الذى ينظم الحياة دنيا ودولة ومجتمعا وقانونا وتشريعاً واقتصاداً .

* * *

وأظهر موقف وطنى فى عهد محمد على هو هزيمة الشعب بقيادة عمر مكرم للانجليزية فى قرية الحماد سنة ١٨٠٧ ولقد كان هذا الموقف الوطنى الرائع ، مما أزعج محمد على ورأى فيه أشد الخطر على سلطانه فقد كاتب الناس عمر مكرم ولم يكاتبوه وكان محمد على ويكره أن يعلوا صوت بجوار صوته وخشى من نفوذ عمر وجلال مكانه .

لقدكان عمر ، وهو الذى رفع محمد على إلى الملك ، يريد أن يكون رقيبا على الحاكم يرده عن البغى والظلم والطغيان بالنصح والتوجيه خالصا لله فكان ذلك مما توجس منه محمد على وخشاه أشد الخشية ونفاه لأجله

وكان عمر قد وقف من محمد على موقف الخصومة عندما ضج الناس بالضريبة التى فرضها محمد على على المساكن مما أدى إلى أن أمر بنفيه إلى دمياط بعد أن حاول أن يغريه بالمال فأبى فى عزة ورجولة وأصر على موقفه ولم يتزعزع عنه

واعتقد أن محمد على كان مخطئا فى هـذا التصرف لأنه كان ينشىء مجتمعاً جديداً ودولة جديدة فلابد أن يجمع حوله الزعامات الشعبية ويجعل لها الكثير من السلطان والتصرف ولو فعل ذلك لاستفاد استمرار النهضة التى بدأها والتى خمدت بمجرد موته ، ولحال دون تسجيل انجلترا ذلك عليه ، ومحاولتها حربه وقص جناحه باسم هذا المعنى حيث تقول —

(إن محمد على رجلا مسنا يعمل منفرداً وسط نيام ومن المنتظر أن تدركه منيته بين يوم وليلة فما العمل لو حدث هذا وماذا تكون النتيجة لو هدم محمد على الدولة العثمانية اليوم ثم تهدمت دولته نفسها غداً . ألا يجر ذلك إلى نتائج سياسية خطيرة أقل ما فيها حرب عالمية بين الدول على تقسيم هذا التراث الذى آل إليه ثم انفرط من بين يديه) .

* * *

صحيح أن هذا القول فيه رائحة التحيز والغرض وفيه رغبة انجلترا فى الحيلولة دون قيام دولة قوية فى الشرق تقوم مقام دولة الخلافة وتنزع منها مجدها وخاصة ومحمد على يدعو باسم الأمبراطورية العربية وهى دعوة محببة إلى النفوس إذ ذاك ، قريبة إلى القلوب ، كذلك هى لا تريد أن تقوم فى مصر بالذات نهضة من شأنها أن تعوق احتلالها لمصر ولذلك فهى قد سارعت — كما قلت — بالاتفاق مع محمد الالفى وارسال حملة فريزر لتقطع فى الأمر مع محمد على وتنهى أمر النهضة الجديدة فى مصر ولكنها لم تتمكن ولذلك وقف بالمرستون عدو مصر الأول أمام محمد على يناهضه فى شدة ويخاصمه فى عنف .

ولكن محمد على لو أعد لهذه النهضة وهذه الفتوح وهذه الدولة عدتها من القيادة الشعبية وجمع حوله العاملين لأمكن أن لا يستمر هذا النشاط بعد محمد على ، بل ما كانت الدول الغربية تستطيع أن تقف من محمد على وهو فى شيخوخته هذا الموقف أو يستدعيه هذا السن المتقدم إلى التسليم .

كانت انجلترا تحقد على محمد على لأنه أنشأ المصانع والمعامل واستغنى عن احتكارات انجلترا ووارادات بلادها وزاد الضرائب على الصادر والوارد

وأثرت قوته وفتوحه فى الحجاز والشام على مركز انجلترا فى البحر الأبيض والخليج الفارسى وقد حول البحر الأحمر باستيلائه على الحجاز والسودان بحيره مصرية

وقد وقف من قناة السويس موقفا دل على حصافه وعقل وبعد نظر وقال لا أريد دردنيلا آخر وفى الوقت الذى كان الانجليز يتهمونه بأنه يعجز عن النهوض بإعباء الدور الذى يقوم به وأنه لا يستطيع أن يحل محل الدولة العثمانية ، كان محمد على قويا وكانت انجلترا تخفى وراء هذا القول خوفها من بأسه وقوته وصلابته ، التى لم تنتهى به إلى التسليم إلا بعد أن غدرت فرنسا به وطعنته من الخلف

كان محمد على باعتراف الغرب (أكبر قوة فى الدوله الاسلامية) وكان يفكر فى إقامة دولة عربية باسم رابطة الدين واللغة مما تخاف منه الدول الغربية على مصير تركيا فهم يريدون كما يقول الأستاذ حسين مؤنس (١) — بقاؤها ذليلة خاضعة مفتحة الأبواب مهيضة الجناح لتكون كسبا تجاريا وسياسيا لا تحصل عليه (الدول الأوربية) إذا ووريت التراب ونمت مكانها دويلات طامحة) والواقع أن حركة محمد على كان من شأنها أن تفقد الخلافة أطرافها فلا تبقى تركيا إلا فى حدودها الخاصة

وانتهزت الدول هذه الخصومة التى قامت بين محمد على وبين والباب العالى وهى لم تكن خصومة تستطيع أن تحمل هذا الاسم إلا بتأجيج هذه الدول وإثارتها لتركيا على محمد على فى الوقت الذى تخاصمت فيه هذه الدول بالذات على الفريسة وكان موقف هذه الدول من تركيا كما يصوره مؤلف كتاب (الشرق الاسلامى) حيث يقول (بعد أن اختلف الأعداء ، كتبت السلامة للفريسة ، فوقفت كل منها عن كثب حذر الأخريات

---

(١) ص ٢١٤ الشرق الاسلامى

وأخذت كل منهن تحتال على الأخرى وتخادعها وتعتز بها ، أخذ الروس يتقربون من الانجليز ويتوددون اليهم حتى يوافقون الأخيرون على تقسيم تركيا وكانت كل من روسيا وانجلترا على حذر من انجلترا)

* * *

عقيدتى كمؤرخ يستشف الحقيقة من وراء النصوص أن خصومة انجلترا لمحمد على إنما هى خصومة للاسلام تريد انجلترا أن تموت الامبراطورية العثمانية فتقسم الدول الغربية تركتها وتمزقها شر ممزق . وهى بالتالى لا تشجع أى حركة جديدة تحمل اللون الاسلامى لأنها ستكون خطرا على مطامعها

شرع محمد على فى تكوين دولة عربية تمتد من السودان جنوبا إلى الفرات شرقا وجبال طوروس شمالا وقد لقى هذا المشروع أعنف المقاومة من انجلترا حتى صرح بالمرستون أنه خطر بالغ يهدد مواصلات الامبراطورية ويكتب قنصل انجلترا فى بغداد فى ٦ / ٢ / ١٨٣٣ يقول (إن أبصار الشعب العربى متجهة فى هذه الفترة نحو ابراهيم باشا ، ويكتب معتمد النمسا إلى دولته فى ١٦ - ٧ - ١٨٣٣ يقول (إن فكرة تأليف الامبراطورية العربية لاتزال حية ولا تزال موجودة . وأرى إلى جانب ضعف الباب العالى وهزاله جيشا عربيا قويا مدربا على أحدث مبادىء القتال وأرى أسطولا قويا . أضف إلى ذلك يقظة الروح العربية بعد سباتها)

* * *

كانت الحملة على الحجاز فى م - ٩ - ١٨١١ تبعتها طلائع الوحدة إلى الجنوب (السودان) ١٨٢٠ ثم جاءت موقعة (نفارين) سنة ١٨٢٧ هذه الموقعة التى كانت أول عوامل المسألة المصرية . فقد كانت شبه جزيرة المورة تريد الانفصال عن الدولة العثمانية وعجز السلطان عن قمع الثورة ومقاومة الثائرين فعين محمد على حاكما على كريد والمورة وأصدر إليه أمره بإرسال كتائبه لقمع الثورة فأرسل إلى كريد حملة مكونة من ١٧ الف جندى وكان أسطول هذه الحملة مكونا من ١٩٨ قطعة مابين حربية ونقليه وتجارية فقمعت الثورة وسقطت أثينا فى ١٨٢٧

عند ئذ تدخلت أوربا المسيحية لتحمى اليونان من تركيا المسلمة دولة الخلافة ومن مصر القوية الفتية فأقرت هذه الدول معاهدة لندن سنة ١٨٢٧ التى تقضى بفصل اليونان نهائيا عن تركيا وقد وقعتها انجلترا وروسيا وفرنسا واشترطت هذه الدول أن من حقها التدخل بالقوة ومن ثم أرسلت هذه الدول أساطيلها إلى خليج نفارين وتوقف الباب العالى ولم يعترف بالمعاهدة وساء التفاهم بين رجال الأسطول المصرى والأوربى فدارت معركة نفارين فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ وقد تحطم الأسطول المصرى فى هذه المعركة وتجمعت الدول الغربية كلها ضد مصر الاسلامية وتركيا دولة الخلافة هو أول صور الانتقام والخصومة والافتئات، فقد أزعج أوربا أن ترى أسطول مصر القوية يضرب ضرباته القوية فى شبه جزيرة المورة فآلت هذه الدول على أن تحطم هذا الأسطول وتسحقه عدوانا وظلما

بدأت الحملة إلى الشام فى أكتوبر ١٨٣١ فوصلت دمشق ١٦ يونية وإلى جبال طوروس فى يولية ١٨٣٢ وظلت الحملة بين سوريا وتركيا حتى وقعت معركة (نصيبين) فى ٢٠ يونيو ١٨٣٩ وبها تحدد موقف الدل من مصر وقد كانت الطريق ممهدة أمام محمد على وجيشه ليواصل الزحف حتى يصل إلى قلب القسطنطينية لكن كفاءة الجيش

المصرى من ناحية وحسن قيادته وسمو مطامح ابراهيم وسوء حالة الجيش التركى كانت تمكن من ذلك فى يسر وسهولة ولكن هذا الزحف كان مزعجا أشد الازعاج للدول الغربية حتى فرنسا نفسها صديقة محمد على التى أرسلت إليه فى ٨ - ٣ - ١٨٣٢ تهديدا تقول فيه (إذا بقيت متمسكا بمطالبك فإن الأسطولين الانجليزى والفرنسى يتظاهران أمام الشاطىء المصرى فكان رد محمد على (بأى حق يجوز لك ياسعادة السفير أن تعمل على تجريدى مما غنمته . أن شعبى بأسره يعضدنى به ولو شئت لناديت الروملين والأناضولين إلى الثورة ولو شئت لأحدثت حدثا عظيما بمساعدة الشعب العثمانى

وبعد الضحايا التى قدمها شعبى أطالب الآن بالتخلى عن البلاد التى استوليت عليها وأن أسترجع جيشى . ألا ترون انكم تصدرون على الحكم بالموت السياسى) .

وقد حاول محمد على فى لباقة أن يقنع انجلترا بوجه نظره من غير أن يثير أمامها إنشاء دولة اسلامية فى مذكرته التى رفعها إليها حيث يقول (إن غايتى الأولى هى القضاء على سلطان الروس فى تركيا وأننى لن ألبث أن أعد جيشاً عدته مائة وخمسون ألفاً لمعاونة الانجليز فى تخليص تركيا وفارس من نير الروس) وقد قصد بذلك إلى محالة إغراء انجلترا لقبول اعلان استقلاله . وإن كان المكر الانجليزى لم يثنه هذا الوعد عن مقاومته والحذر منه . وقد أرسل بالمرستون إلى سفير انجلترا فى كابل :

(لقد كان محمد على يرمى إلى تأليف مملكة عربية تجمع بلاد العرب ، والمشروع جليل الشأن بذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا وهذا مالا يمكننا أن نسلم به فتركيا هى أفضل دولة تملك طريق الهند وهى خير من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد ويكون نزاعا للعمل كثير الحركة .

والواجب علينا أن نساعد السلطان على تنظيم جيشه وأسطوله وماليته فاذا استطاع أن يعيد النظام إلى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء) .

وكان رأى النمسا (وإذا اعترف باستقلال (محمد على) فإنه يستطيع بعد هذا الاعتراف بأن يحصر همه فى تنظيم ماليته وفى حشد ١٦٠ ألف جندى منظمة تنظيما كاملا فيتمكن من القيام بالمهمة الكبرى وهى إنقاذ تركيا من رسيا) . وأرسل بالمرستون إلى قنصل انجلترا يقول :

(أكلفك بأن تبلغ محمد على باشا بأن حكومة جلالة الملك تلقت تقارير عن حركات الجنود المصرية فى سوريا وبلاد العرب وهى تدل على أنه ينوى أن يبسط سلطة مصر إلى جهة خليج فارس وولاية بغداد فأبلغ الباشا بكل صراحة أن الحكومة الانجليزية لا تستطيع أن تنظر دون اكتراث إلى تنفيذ هذه المشروعات)

° ° °

وصل ابراهيم إلى قونية فى ديسمبر ١٨٣٢ وكتب إلى محمد على بعد فتحها هذا الخطاب الخطير الذى يضع تركيا فى كفة الميزان (أستطيع أن أصل إلى الأستانه فى أسبوع وأستطيع خلع السلطان حالا وبدون صعوبة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيذ هذه الخطة حتى أتذرع باتخاذ الوسائل . اللازمة لأن مسالتنا لا تسوى إلا فى استانبول فالواجب أن نذهب إلى استانبول كى نملى إرادتنا ، أنى مضطر أن أكرر على مسامعك أن بث الدعوة لا يوصلنا إلى أغراضنا وأنت إذا رميت من الاشاعات التى تذيعها إلى غرض سياسى فإننا نهدد

استانبول لتقبل شروطنا كان ذلك من العبث أن نقف فى قونية فلا نتقدم منها إلى الأمام . فإن قونية بعيدة عن رجال الأستانة فهم لا يقبلون عقد الصلح منا إلا إذا دخلنا عليهم العاصمة ، كذلك فعلوا مع الروس فلم يقبلوا عقد الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى استانبول .

فالواجب أن نواصل الزحف حتى بورسة على الأقل مع احتلال المدن الواقعة على بحر مرمرة وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا عند التحرر ، وحينئذ نستطيع أن نذيع الأخبار التى تقضى إلى خلع السلطان وإذا نحن لم نفلح فى إسقاطه توصلنا على الأقل إلى ابرام صلح يحقق أمانينا ولولا الأمران الأخيران اللذان تلقيتها منك لـكنت الآن على أبواب استانبول وإنى لا سائل نفسى ما هو الداعى إلى إصدار تلك الأوامر أهو الخوف من أوربا أم شىء آخر لا أعرفه ؟ »

ورد عليه محمد على بالتقدم فغادر ابراهيم قونية فى ٢٠ - ١ - ١٨٣٣ فكتب إليه يقول :

« اليوم بدأ الجيش يزحف إلى قونية وتدل الأخبار الواردة من استانبول أنه لا يوجد فى طريقنا قوة تقاومنا حتى أن استانبول ذاتها ليست فيها حركة الاستعداد للمقاومة .

يجب علينا أن نرجع إلى القرار الأول ، أى خلع هذا السلطان ووضع ابنه مكانه على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك يحرك هذه الأمة من سباتها العميق فاذا اعترضت على بأن أوربا تعترضنا قلت أننا لا ندع الوقت للتدخل وبذلك ينتفى الخطر من ذلك الجانب لأن مشروعنا ينفذ قبل آن يعرف وبذلك نضع أوربا أمام الأمر الواقع)

وقد أرهصت السلطان هذه الحركة فصرح بأنه يوافق (على توليته ولاية مصر وطرابلس وعكا وتولية ابراهيم باشا الحرمين الشريفين)

ولـكن هذا التصريح كان دسيسة يراد بها التفريق بينه وبين ابراهيم وهكذا فشلت المساعى وعاد محمد على إلى القتال ، وتقدمت انجلترا والنمسا لمساعدة السلطان ضد محمد على وكانت روسيا أول دولة أوربية عرضت مساعدتها لتركيا .

وتقدم ابراهيم فى الزحف وحاول الباب العالى أن يستوقفه لحين عقد صلح مع والده فلم يذعن وطلب الباب من روسيا إرسال ٢٥ الف جندى لمساعدة تركيا .

وقد وصل الأسطولى الفرنسى قبل أن يصل الأسطول الروسى ، فى الوقت الذى وصل فيه ابراهيم باشا إلى كوتاهيه ووقف بها بناء أمر والده .

ثم أرسلت فرنسا تهديدها لمحمد على قالت :

(وإن أصرارك على مطالبك توقع عليك مصائب إذا إزدادت جزعت لها . ففرنسا تتمسك بالعهود التى قطعتها وهى تملك القوة وأنا ضمين إرادتها)

فلما وصل هذا الانذار إلى محمد على عرف أن صديقته فرنسا تخلت عنه وقال (أنا أعتبر هذا حكما على بالموت ولـكنى أعرف كيف أموت شريفا وكيف أجعل موتى مجيدا وسأقابل الحكم وسيفى فى يدى فعادت

فرنسا مرة ثالثة تهدد محمد على بأن تسحب جميع ضباطها من جيشه وأسطوله وأرسلت بالاشتراك مع انجلترا أسطوليهما إلى مياه الاسكندرية .

وشعر محمد على شعورا أكيدا بهذه المؤامرة التى تحاك خيوطها حوله .

وأصر محمد على على شروطه فى الاستقلال بمملكته إلى حدود جبال طوروس وخول لإبراهيم السلطة المطلقة للمفاوضة وتوقيع الصلح باسمه إذا أجيبت مطالبه والرجوع إلى البلاد مع جيشه ، فاذا لم يجب إلى شروطه وأصرت تركيا على موقفها فهو يطلق له حرية العمل ويسمح له بأنه يواصل زحفه وأن يعمل مايرى عمله دون قيد

وعلى أثر ذلك طلبت تركيا من روسيا خمسة آلاف جندى لحماية العاصمة واصرت على موقفها بأن تعطى لمحمد على مصر ودمشق وحلب وعكا وبيروت وطرابلس الشام وتولى ابراهيم على الحبشة ومكة تكون ادنه لتركيا وادى هذا التسويف إلى وصول سفن روسيا وتسلم اذنه إلى محمد على

* * *

لجأت انجلترا اخيرا إلى سلاح طالما استعملته بل لعله هو سلاحها الاول فى الشرق ، هو الدسائس التى بدأت تحيكها فى سوريا لهدم الدولة الجديدة فى الوقت الذى عرف ابراهيم باشا بالصراحة العسكرية التى لاتمتزج بالخدعة والمكر فلم يحل ذلك دون حدوث الفتن والاضطرابات الداخلية

وسعى الباب العالى لدى فرنسا وانجلترا فى ٢٤-٨-١٨٣٤ لاسترداد ادنه وسوريا وبدأت الأحوال تضطرب والجو يكفهر فى وجه محمدعلى بعد أن فاتته الفرصة التى أوضحها ابراهيم فى رسالتيه إلى محمد على

والواقع ان ابراهيم كان يفهم الموقف على غيرما يريده محمد على وقد عبر عن هذا الموقف بقوله (إنى عندما وصلت إلى (قونيه) ألححت بكل خضوع أن نكتسب الفرصة لاعلان استقلالنا فرددت على فى الحال بانك تكتفى باسم محمدعلى وكنا فى ذلك الحين منتصرين وكانت الفرصة سانحة فلم ترد وعجبت كيف أنه بعد سنتين من تسويه المسألة وإقامة الحدود بطلب الاستقلال)

ثم تقول (لقد ابرم الترك معاهدة فى روسيا جاء فيها أن كل خطوة نخطوها وراء الحدود تعتبرها روسيا اعتداء تدفعه عن تركيا ولم تشترط فى هذه المعاهدة منع الاعتداء علينا . فالترك يملكون ضمانا منا ولكنهم احرار فى أن يهاجمونا ولا تعترض دولة من الدول عليهم ولما وثقت من أن الباب العالى يوقد الثورات فى سوريا جنحت إلى طلب الاستقلال مع أن الظروف كانت غير موافقة)

والواقع أن محمد على كان يريد الحصول على أكبر النتائج باقل التضحيات ، وكان لكبر سنه بعض الأثر فى اختلافه مع ابراهيم واليك هذا التصريح الذى يبين بوضوح مدى مطامع محمد على (إن السلطة التركية تدعى تبوأ عرش الخلافة لأنها تملك الحرمين الشريفين والأرض المقدسة وبما أن الحجاز فى قبضة أيدينا الآن فاذا نحن نلنا استقلالنا سقطت حجة تركيا من تلقاء نفسها وسقطت الخلافة عنها . لأنهم لايستطيعون أن يقولوا بعد ذلك فى المساجد عن السلطان أنه خادم الحرمين الشريفين)

اشتدت حركات التآمر الانجليزى بعد ذلك فى سوريا وفكر محمد على فى الاستقلال لأن الباب العالى بدأ يحاول هدمه سياسيا (على أساس الفرقة التامة الدآئمة بين الوطنيين العربى والتركى) وقدم مشروعه يطالب بسحب الجيوش المجندة على الحدود وأن تضمن الدول السلام ويكون الحكم وراثيا فى أبنائه فرفض هذا الطلب وطولب بالتوقف عن القيام بأى حركة ضد السلطان مع العودة إلى دفع رسوم (الويركو)

وفى مايو سنة ١٩٣٨ ضرب محمد على ضربته الآخره واستدعى وكلاء الدول وابلغهم أن فى نيته اعلان الاستقلال معتمدا على حق مصر فى انشاء الدولة العربية فعارضت الدول فى هذا المطلب ونصحته بالعدول عنه (لما يولده المشروع من اخطار)

وبدأت حركة ناشطة لمقاومة محمد على واشعلت نيران الدسائس والمؤامرات فى سوريا وحشد السلطان جنوده على الحدود استعداداً للموقعة المرتقبة

وأخذت انجلترا تستعد لاداء دورها الآثم بتحريض تركيا على رفع الحسام فى وجه محمد على مع وعدها اياها بالمساعدة ومعاونة النمسا وفرنسا وروسيا

وفى ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٨ زحفت قوات تركيا والتقى بها ابراهيم الطموح فى صدها وتمزيقها والزحف إلى ديار بكر ، وتنازل الجيشان على الضفة اليسرى لنهر نصيبين الذى يصب فى الفرات وانهزم الأتراك بعد لقاء قوى ناهض من جانب العرب والمصريين وفر المتطوعين الكرد وانجلت المعركة اخيرا عن هزيمة الأتراك بخسارة ٤٠٠٠ قتيل وجريح وخسر المصريون خسارة مماثلة تقريبا واسر ابراهيم ١٢ الف أسير و ٢٠ الف بندقية .
وتقدم ابراهيم إلى (عنتاب واورفا ومرعش) ولم يقف الأمر عند هذا ، بل أن الاسطول التركى سلم نفسه إلى محمد على فى ميناء الاسكندرية

وكان مكونا من (٩ بوارج ـ ١١ سفينة قرقاطه ـ ٥٠ كورفت ـ ١٦١٠٧ بحارة) وبذلك كانت نصراً مكتسحا وفى هذه المعارك والمعارك التى سبقتها صفحات مصرية عربية طافحة بالمجدملئة بالبطولة والتقدير لكفاية المصريين والعرب على مواجهة الأحداث فى رجولة وقوة

ولعل هذا من أهم أسباب التآمر على مصر وعلى النهضة الجديدة

* * *

كان الباب العالى اميل إلى الاتفاق مع محمد على أساس أن تكون مصر له وسوريا لابراهيم باشا وعند وفاة محمد على تسلم مصر لابراهيم وسوريا لتركيا

ولكن الدول العربية التى حرضت تركيا على مناجزة محمد على بقوة السلاح لتستفحل العداوة والخصومة عادت فلم تترك لمصر وتركيا فرصة الاتفاق مرة أخرى فضربت ضربتها الاخيرة

والواقع أن هذه الضربة من أخطر المواقف فى القضية ولها أبعد الأثر فى تاريخ النهضة الجديدة ، ذلك أن الدول (انجلترا ـ روسيا ـ فرنسا ـ النمسا ـ بروسيا) اتفقت على إرسال مذكرة إلى محمد على وإلى الباب العالى

تتفق فيها جميعها معا على محمد على وقد اسرعت بارسالها قبل أن تبدأ المفاوضات بينها
وهذا نص المذكرة :

(إن سفراء الدول الموقعين يتشرفون بان يبلغوا الباب العالى بانهم تلقوا صباح اليوم من حكوماتهم بان الاتفاق على (المسألة الشرقية) تام بينها فهم يطلبون منه أن يوقف كل قرار قاطع دون مساعدتها نظرا لما يكون له من المنافع التى يرونها)

وكان هذا مؤازرة للباب العالى على مصر ومناورة أرادت الدول بها افساد التفاهم والمفاوضة

وكانت سياسة انجلترا ترمى الى الاحتفاظ بسلام الدول وابقاء محمد على واليا على مصر واعادة سوريا الى تركيا ومقاومة نفوذ روسيا بها

فى حين أن روسيا كانت تؤيد الباب العالى دون شرط محدد لأنها كانت تطمع فى أن تلتهمها جميعها وانتهى هذا الى اتفاق الدول على حصر محمد على فى ولايه مصر بالتوارث فى أولاده وسوريا فى حياته

وصرح بالمرستون بانه (يجب أن تتخذ الوسائل التى تجعل محمد على عاجزا عن الاضرار بتركيا)

وأرسلت انجلترا فى ٣ - ١٠ - ١٨٣٩ تقول (أنها توافق على أن تضاف الى ولاية مصر بالتوارث باشوية عكا ما عدا قلعة عكا التى تظل تحت حكم الباب العالى لأنها مفتاح سوريا وأن تبدىء الحدود من جبل الكرمل) واعترضت فرنسا على هذا الاقتراح فى حين وقفت روسيا فى صف انجلترا

ثم بدأت المفاوضات بين (انجلترا - روسيا - بروسيا - النمسا - تركيا) انتهت بعقد معاهدة فى (١٥ يوليو ١٨٤٠) وقد كانت هذه المعاهدة مؤامرة واضحة على محمد على يتبين ذلك من بعض نصوصها (يتعهد اصحاب الجلالة بان يعملوا متحدين وبأن يوحدوا مجهوداتهم لاكراه محمد على على أن يتبع هذه التسوية ويتعهد كل فريق بان يعاون على بلوغ هذا الغرض تبعا للوسائل التى يستطيع استخدامها فى هذا السبيل

وقد جاء فى ملحق المعاهدة مايأتى:

المادة الاولى : ينوى السلطان أن يمنح محمد على وسلالته المباشرة اداره باشوية مصر ويعد بأن يتمتع الباشا بادارة ولاية عكا طيلة حياته وقيادة قلعة عكا مع ادارة الجزء الثانى من سوريا على أن يقبل محمد على هذه المنح بعد عشرة ايام من تبليغها إياه فى الاسكندرية على يد مندوب من لدن السلطان

وعلى محمد على أن يسلم الى هذا المندوب التعليمات اللازمه لقواد البر والبحر لينسحبوا فى الحال من بلاد العرب ومن المدن المقدسة ومن جزيره كريد وادنه ومن الاجزاء الأخرى من أملاك السلطنه الخارجة عن حدود مصر وباشوية عكا

المادة الثانية : إذ لم يقبل محمد على هذه التسوية فى مدى عشرة ايام يسحب السلطان اداره باشويه عكا على ان يظل راضيا يمنح محمد على وسلالته المباشره حكم مصر بالتوارث على شرط أن يقبل هذه المنحة فى مدى عشرة أيام تالية للأولى (أى فى مدى عشرين يوما) والسلطان يكون حرا فى سحب هذه المنح وفى إتباع الخطه التى توحى بها مصالحه طبقا للنصائح التى يشير بها اليه حلفاؤه

وصرحت فرنسا بقولها (كل المقترحات التى ترمى الى حرمان محمد على بقوة السلاح من البلاد التى يحكمها الآن من املاك تركيا مقترحات جائرة ولا نظن ان ذلك مفيدا للسلطان لأنه مالا يستطيع صيانته ولا ادراته)

والواقع ان أقل ما يقال نحو هذه المعاهدة انها تآمر واعنات خاصة وانها معتبره كمنحه والواقع انها ليست لمصلحة تركيا بقدر ماهى لمصلحة الدول الطامعه فى تركيا وهى خوف من محمد على، كيانه وقوته ورغبه الى قص جناحه وقصر سلطانه بل والاقتصار على حكم مصر وحدها

اما موقف فرنسا فانه ليس لمصلحة مصر او محمد على بقدر ماهو لمصلحة فرنسا نفسها ورغبتها فى السيادة على مصر او المزاحمة فى السلطان

اما موقف محمد على من المعاهده فهو قوله الخالد فى ١٤ اغسطس ١٨٤٠ (ان ما اخذته بالسيف لا اسلمه إلا بحد السيف)

وقد اتبع هذا القول بالرد على القناصل بعد عشرة ايام بالرفض فابلغوه بانه لم يبق له حق بولاية عكا ولم تبق الا ولاية مصر - كما جاء نص المعاهدة

ثم قدم محمد على عروضا جديدة لحل الخلاف بينه وبين الباب العالى مباشرة على قاعدة اعادة أدرنه وكريد وبلاد العرب الى السلطان وتكون له مصر ولورثته من بعده وحكم سوريا مدة حياته

ولكن تركيا المكبله بسلطان الدول المتآمرة على محمد على ارسلت له فرمانا بعزله من ولاية مصر تنفيذا للمعاهدة بعد إنتهاء المدة المقررة من ثم اصبحت مصر فى حرب مع تركيا وحلفائها واتخذت انجلترا هذه التكأه لإرسال الأسطول ثم أرسلت حملة من ٧ الآف مقاتل ٥٣٠٠ عثمانى و ١٥٠٠ بريطانى ونمسوى فى ٩ سبتمبر ١٨٤٠ واشتردت بيروت وصور وصيدا

وهكذا عادت سوريا الى الحكم العثمانى ثم عرضت فرنسا على محمد على أثر ذلك التفاهم مع الباب العالى واوقد الحلفاء نار الثورة فى سوريا ضد محمد على

فأرسل على أثر ذلك قوه عسكرية واخذت انجلترا تدبر الدسائس فى نطاق واسع فى سوريا وجبل لبنان بالأتصال بالثوار وحثهم على التمرد والمقاومة وإرسال الشكاوى الى الباب العالى وسفارتى انجلترا وفرنسا من الحكم المصرى والمطالبة بعودة الحكم العثمانى على الاحتفاظ بحكم مصر الوراثى فى اسرته وحكم سوريا مدة حياته والتنازل عن كريت وادرنه وجزيره العرب فأبلغ الباشا هذا الباب العالى فرد عليه بالرفض فتأثرت فرنسا بذلك وانصرف الاسطول الفرنسى عائدا ووقف محمد على وحده فى المعترك امام أوربا والدول العثمانية

وبذلك نفضت فرنسا يدها من المسألة المصرية وبذلك أيضا تخلت فرنسا من وعودها لمحمد على (وكذلك(١) شجعت فرنسا محمد على على مقاومة الحلفاء ورفض اقتراحاتهم وأدرك محمد على بعد تخلى الفرنسيون عنه وبعد إستيلاء الحلفاء على الساحل الشامي ان المقاومة لا تفيد وأن الأفضل له العمل

(١) ص ١٨٦ — كتاب الاستعمار الانجليزى

بالطرق الدوبلوماســية ولذلك لم يتردد فى الاتصال بالكومندان (نابيار) قائد قوات الحلفاء حين وصل إلى الاسكندرية) .

ووجه (نابيار) الذى قدم للقيام بمظاهرة بحرية رسالة قال فيها (ان الاسكندرية ليست أمنع من عكا وأن الفرصة سانحة لمحمد على ليؤلف امارته ويحتفظ بالوراثة فى أسرته) .

ومن ثم بدأت المفاوضة فى (٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠) لعقد صلح على (قاعدة جعل مصر والسودان إمارة وراثية فى بيت محمد على) .

على أن يتعهد بأن يصدر أوامره إلى ابنه إبراهيم باشا باجراء الجلاء فوراً عن سوريا ويتعهد بإعادة الأسطول العثمانى بمجرد أن يصله إخبار رسمى من الباب العالى يتنازل له عن حكم مصر الوراثى وأن يبقى ذلك الحق كما كان مكفولا من الدول .

ونشر محمد على بيانا قال فيه (عرض لنا اتفاق دولى أوربا على احالة حكم مصر لنا بطريق التوارث وبذلك صار حسم سفك دماء المسلمين وصدر الأمر بترك الشام والأذن بحضورهم إلى مصر بالجيوش التى يبلغ عددها ٧٠ ألف .

وصدر بذلك فرمانا فى ١٣ - ٢ - ١٨٤١ بتولية محمد على حكم مصر وبجعله فى عقبه وقد حدد هذا الفرمان سلطان محمد على وحدد الجيش ولم يجعل لمصرحق بناء سفن حربية إلا بإذن من الباب العالى على أن يرسل ربع إيرادات الحكومة من الجمارك والخراج والضرائب إليه وفرمان آخر بتولية محمد على إدارة أقاليم السودان وهى (النوبة وكردفان ودارفور وسنار) ومن ثم جلى عن الشام وعن بلاد العرب وأعادها إلى الأتراك .

وهكذا ترون كيف تمت هذه المؤامرة بقص جناح محمد على وتمزيق ملكه الذى كونه بحدالسيف وتألب الدول الغربية لمقاومته وإبادة قواته .

وليس الموقف مؤلما من ناحية انجلترا والحلفاء فحسب باعتبارهم متواطئين على هدم هذه النهضة الجديدة بل إن موقف فرنسا لا يقل إيلاما وكشفا عن حقائق هؤلاء القوم وعلى مدى ما يكنون فى نفوسهم من رغبة إلى مقاومة كل حركة إسلامية قوية .

تخلت فرنسا عن محمد على لما رأت أن مركزه قد تدهور ولم يقف الأمر عند هذا بل أنها طعنتة من الخلف بعد أن اعتمد عليها فى مواجهة انجلترا والحلفاء ، وقد أحسن محمد على الظن بها واعتمدعليها فخدعته آخر الأمر ونضع تصريح كوشلين إلى محمد على هذا رمزا لهذه الخدعة الآثمة

(إن المسألة ليست مصرية بل شرقية وأوربيه أيضا . إن فرنسا أيدتك ولكنها لم تستطيع أن تتخلى عن روابط السياسة التى تربطها بأوربا وانجلترا خاصة) !

وقد علق محمد على هذا التصريح فقال (لست أطلب أن تتخلى فرنسا عن أخلاقها لخاطرى وإنما وددت لو اقتصرت فلم تقف منى موقف العداء)

ولقد كان لهذا الأمر أبعد الأثر فى نفسية محمد على وفى موقفه الأخير الذى اضطر فيه أن يسلم ويقبل ما كان يرفضه أولا ، واستطاعت الدول الغربية أن تضطر محمداإلى الانسحاب من سوريا وجزيرة العرب بعد هذا الجهد الضخم الذى بذله فى فتحها

وقد دبرت انجلترا مع الحلفاء هذه المؤمرة سنة ١٨٢٧ بعد إشراك محمد على فى حرب اليونان وتم لها تنفيذها سنة ١٨٤١ جزعا من قيام أمبراطورية عربية وحكومة إسلامية بدلا من تركيا المهدمة المتخاذلة .

ويصدق الأستاذ أمين سعيد حين يصور هذه المؤامرة حيث يقول (كان(١) الانجليز هم الأعداء الطبيعيون لحركة محمد على ونهضته لأنها حالت بينهم وبين الإستيلاء على وادى النيل ، وهم أول من تحرك لمقاومته وقد مدوا أيديهم إلى الروس أحلاف اليونانين وأنصارهم متناسين فى سبيل القضاء على الحركة الجديدة كل صغن)

* * *

وكذلك نريد أن نقول بعد هذا التصوير الموجز السريع للحركة الاسلامية العربيه الأولى أن انجلترا عدوة الاسلام الأولى هى التى حاكت هذه الدسائس كلها لتمزيق هذه الحركة وكذلك وقفت انجلترا فى وجه النهضة الاسلامية منذ اليوم الآولى ثم وقفت فى وجهها مرة أخرى فى مصر والسودان ١٨٨٢ ووقفت فى وجهها مرة ثالثة فى ١٩١٨ مع الشريف حسين ومع تصريح بلفور وملنر وهور .

هذه المؤامرة المتصلة الحلقات فى الشرق الاسلامى كله والتى سنفصلها فيما بعد

ويؤخذ على محمدعلى امرين :أولهما انه لم يشرك الشعب فى هذه النهضة القوية وحارب كل زعامة شعبيه وكل رأى معارض، وثانيهما انه لم يستمع إلى رجاء ابراهيم منذ أن وصل قونيه فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٢ بالزحف على استانبول وخلع السلطان

وكذلك تحقق ما قدر الانجليز بأن ماتت هذه النهضة بموت محمد على ولم يجد الخلف الذى يكل اليه تغذية هذا النشاط بل ان استسلامه آخر الأمر كان شعوراً قويا منه بالعجز عن المقاومة لامتناع وجود الجبهة التى تسير وراءه وتحمل عنه العبء

هذه هى الحركة الاسلامية الاولى التى كشفت عن خصومة انجلترا والغرب بوضوح ووقوفها مع الدول الصليبية فى وجه القضية الاسلامية واليقظة الشرقية.

---

(١) الاستعمار الانجليزي ص٢٠٠

تاريخ الاحتلال الانجليزى لوادى النيل واثاره السوداء

مكان مصر فى المسألة الاسلامية

دخلت الدولة العثمانية فى دور الهمود والخمود ، وهو دور طال بتركيا وامتد ، ولكنه كان على كل حال دور الاحتضار .

وتطلعت الدول الغربية لمطامعها فى الشرق الإسلامى الذى كان يستظل بظل الدولة العثمانية وينضوى تحت لواء الخلافة الاسلامية .

وكانت الثارات القديمة ، والعداء المتأصل فى نفوس الغرب للشرق وفى ضمير الصليبية الغربيـة الاستعمارية للاسلام هو الذى يدفعها إلى استدناء أجل تركيا والاستعداد لتقسيم تراثها ومحاولة قمع كل حركة يقظة فى داخل تركيا العثمانية تحاول تجديدها ، أو حركة فى أى قطر من أقطارها تحاول بعث روح الاسلام .

وقد برز معنى أهمية مصر فى الحملة الفرنسية وفى النضال الانجليزى الفرنسى عليها منذ هذه الحملة إلى سنة ١٩٠٤ حين عقد الاتفاق الودى .

وقاومت انجلترا وروسيا كل محاولة فى داخل تركيا لتجديدها أو إنهاضها واتهم الداعون إلى التجديد دائما من الوطنية بالمروق والخصومة للخليفة والخروج على الدولة .

وقاومت الدول الغربية مجتمعة حركة اليقظة التى بدأها محمد على حتى قصت جناحيه فى الشام والحجاز وحجزته داخل حدود وادى النيل وحطمت مشروعه الكبير

ثم نشطت روح الاستعمار فى الخليج الفارسى والهند والجزائر فى ختام القرن التاسع عشر حتى كان احتلال الجزائر ١٨٣٠ سابقاً لاحتلال مصر سنة ١٨٨٢

بيد أنه لم يكن بالجزائر حركة إيقاظ إسلامية لها خطورتها ، وإنما كانت فرنسا باحتلالها تحاول أن تسيطر على الجزء المواجه لها فى جنوب البحر المتوسط .

ولكن مصر التى حملت لواء المقاومة الاسلامية بقيادة عمر مكرم فى عهد نابليون والتى استطاعت أن تسيطر فتعزل الولاة وتولى غيرهم فى عهد محمد على واستطاعت أن تقود الجيوش فتهزم الحمـــلات كما فعلت بحملة فريزر .

مصر هذه ، التى وجد فيها محمد على روحاً قوية فاستغلها وفتح بها جزيرة العرب وبلاد الشام ووصل بها شمالا إلى أدنه وجنوبا إلى البحيرات وكان لها أسطولا جباراً هدد الدول الغربية فى عقر دارها وهزم كتائبها فى مياه نفارين وكان لهم جيشا بريا ضخما لم ينهزم عن ضعف .

مصر هذه التى كان محمد على يقودها إلى الزعامة الاسلامية واليقظة الغربية ليكون لها سلطان تركيا ومكانها

مصر هذه التى كان يطمع محمد على أن يعيد بها مكان القيادة للعالم الاسلامى حين يصرح بأن الحرمين الشريفين

فى قبضته فلا حجة لتركيا فى الخلافة وأن الدولة التى تحمى الحرمين هى أولى بأن يكون بيدها مقاليد الزعامة ، وأنه لاقيمة للخلافة الاسلامية دون أن يكون للخليفة السلطان على الحرمين ولا تكون له فيهما يد

مصر هذه هى التى كانت موضع الخطر فى نظر الدول الغربية المتحضرة .

هذه مصر ، التى تيقظت لقيادة الشرق فى وقت غفلت فيه دول الشرق الاسلامى كله ، كانت مصدراً من مصادر الخطر على الاستعمار الزاحف ولذلك كانت أول دولة فكر الاستعمار فى قص أطرافها ، وما زال يلح عليها حتى هدم بنيانها ونقلها فى سبعين عاما من الدولة الأولى فى الشرق الاسلامى عزة وقوة وسلطانا ومجداً إلى دولة لا حول لها ولا طول رازحة تحت حماية بريطانيا ، ومكبلة بقيودها ، ومحطمة فى كيانها الاجتماعى والسياسى ،قد نفذت إليها سموم الحضارات وآثام الاستعمار وتحولت روحها الاسلامية إلى لون مضطرب من التنكر للماضى والالحاد فى الفكر والإباحية فى المجتمع والذل للغاصب .

* *

ويمكن تقسيم مراحل المسألة الاسلامية إلى ثلاثة أقسام .

القسم الأول منذ الحركات الأولى التى ظهرت على شواطىء الخليج الفارسى والهند وفى مصر وتركيا وساحل البحر الأبيض الشرقى فى صورة التجارة والعلم والامتيازات إلى الحرب الكبرى الأولى وأظهرها الحركة العربية التى قادها محمد على فى مصر فى النضال الطويل بين مصر والدول المستعمرة على قتل هذه الحركة ووضع مصر تحت السيطرة الاستعمارية .

والقسم الثانى من الحرب الكبرى الأولى إلى قبيل الحرب الكبرى الثانية وفيها ظهرت حركتان الحركة الاستقلالية الوطنية فى وادى النيل والحركة الاستقلالية العربية فى الشرق العربى .

والأولى نتج عنها ثورة ١٩١٩ وانتهت بقيام دور السياسة الحزبية التى خلفت الجهاد الوطنى والثانية نتج عنها الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ وانتهت بتمزيق الدول العربية إلى وحدات مستقلة فى الحجاز وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق لكل منها مشاكله الخاصة وأحداثه القومية .

والقسم الثالث من الحرب الكبرى الثانيه ١٩٣٩ إلى قيام الجامعة العربية وحركة أندونسيا والباكستان وغيرهما

الخصومة بين مصر وانجلترا

« الغدر » هو الرمز الأعلى لهذه الخصومة الآثمة التى قامت بين الغرب والشرق والتى تجلت فى محاولة استيلاء دول الغرب على الوطن الاسلامى وتجريده من حريته وكرامته وثروته ثم الالحاح عليه بالتمزيق ومحاولة ثلم أمجاده وتشويه تراثه وأفساد روحانيته والعلاقة بين مصر وانجلترا ، لم تسكن فى يوم من أيامها علاقة تدين ؛ ولم تقم مرة واحدة على أساس الثقة أو الوفاء من جانب الغاصب ، فإذا تعاهد القوى والضعيف نفذ المغلوب التزاماته كاملة ، وتخلف الغالب فلم ينفذ حرفا منها ، « بل لعله عمل على نقضها والمعاهدات قصاصات ورق هى غرم على المغلوب والمحتل ، وليست أمام الغالب مما يعتد به أو يأبه له ، والعقود والاتفاقات لا حرمة لها ولا كرامة ولا رعاية إذا شاء الاستعمار أن يشق طريقه داسها دون مبالاة وقد خدع عرابى يوما عن معاهدة القناة وظن أن انجلترا لن تخرق حيادها المكتوب فى الصكوك فإذا بها لا تبالى هذا المعنى ولا ترعاه . وظن المصريون يوما بعد توقيع معاهدة ٣٦ أن مصر مستقلة وأن لها حريتها فى أوضاعها الداخلية فإذا بانجلترا تخنق هذه الحرية وتهجم بهجومها المسلح لتفرض وزارة معينة وشخصا بالذات فى ٤ فبراير ، وقد ظن العرب من قبل أن اتفاقية (الشريف حسين ـ مكماهون) حجة صادقة ، وصك لا ريب فيه فاذا بالغدر الانجليزى يتجلى فى إعلان عدم اعترافه بهذه القصاصات

وخيل لبعض المخدوعين فى أعقاب الحرب الأولى أن مبادىء ولسن فى تقرير المصير هى حق مقرر ومبدأ منفذ فإذا به يصفع المصريين بما يحطم هذا الأمل ويمزق هذا الستار الخادع عن الغدر الغربى الاستعمارى حين يقر الحمايه المضروبة على مصر

ومن نفس الجحر لدغ أهل الشرق الإسلامى بميثاق الاطلنطى مرة أخرى ثم لمسوا بعد ذلك مدى التضليل والنفاق فى هذه التصريحات والمعاهدات

وخدع الناس بعصبة الأمم ثم أعلنو فشلها وهاهم يخدعون مرة أخرى بمجلس الأمن وهيئة الأمم وتبين لهم أنهما لم يخرجا فى الواقع عن تنظيم للاستعمار وتقسيم للميراث بين كبار الغاصبين والغادرين بحقوق الناس وكرامات الأمم وحريات الشعوب

والوضع القائم بين مصر وانجلترا ليس هو فى الحقيقة إلا « الخصومة » هذه الخصومة التى غذتها إنجلترا بالأحداث والآلام والمظالم والآثام منذ سنة ١٨٠٧ أى منذ أكثر من قرن ، لم تتردد إنجلترا خلاله فى أن تسوق الدليل تلو الدليل على مدى ماتكنه لمصر من غدر ، ومدى مايملأ قلبها من حفيظة ، ومدى ماتريد أن تقتل فى هذه الأمة من كرامة وعزة

ولقد واجهت مصر هذا (الغدر) مواجهة الصبر والاحتمال والأناة فى بعض الأحيان ومواجهة المقاومة والخصومة فى كثير من الأحيان ولم تلن قناة مصر للضيم ولم تستسلم للدخيل ولم تخر أبدا تحت أقدام الاستعمار

والحق أن إنجلترا لم تواجه مصر يوما مواجهة نزال أو حرب إلا مرة واحدة ، فى سنة ١٨٠٧ وقد ردت مصر هذه القوى المعتدية على أعقابها مهزومة مدحورة ، وقد كان هذا بفضل جهاد الشعب ومقاومته قبل أن تصل حملة الجيش !

ومنذ ذلك اليوم لم تحاول انجلترا أن تواجه مصر بل عملت على التآمر والغدر والخيانة إن إنجلترا الماكرة الظالمة كانت تطمع فى الاستيلاء على مصر منذ أن ألقت الحملة الفرنسية مراسيها فى الاسكندرية .وظلت تطوى النفس على هذه المحاولة وتتربص بمصر الدوائر حتى ردتها مصر خاسرة فى سنة ١٨٠٧ ومنذ ذلك اليوم ظلت تعمل عملا متواصلا حتى تمكنت من ذلك فى ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ حين ضربت الاسكندرية وأعلنته فى وضوح وجلاء حين أعلنت الحماية على مصر فى ١٨ - ١٢ - ١٩١٤ وفصلت مصر عن الدولة العثمانية

وقد أخذت منذ اليوم الأول تناوىء محمد على ونهضته الجديدة ورغبته القوية فى إقامة دولة إسلامية فتية فى الشرق ، فألبت عليه أهل الشام وتعاونت مع السلطان لهدمه وكادت له أشد الكيد وظلت تهدم مجد مصر حجراً حجراً ، وأخذت تحيك الدسائس ، حتى اختلست أسهم قناة السويس التى تملكها مصر فى لحظة من لحظات الحرج وحالة من حالات الضيق المالى واشترتها بأقل من قيمتها بكثير ، بل فى الواقع بما يساوى ٨/١ من قيمتها وبهذا أتيح لانجلترا فرصة طالما طمعت فيها وأملا طالما حاولت الوصول إليه ، منذ ذلك اليوم وضعت يدها على دولاب الحكومة وتدخلت تدخلا فعليا فى أمور مصر الداخلية

وأخذت تصور مصر للعالم الغربى فى صورة البلد المرتبك من الناحية المالية ، الضعيف من الوجهة الاقتصادية العاجز عن تسديد التزاماته ، وتمكنت من أن تحرض الدائنين على الاضطراب وإرهاق كاهل الحكومة بالمطالب ؛ وعمل المناورات برفع أسعار الأوراق وخفضها محاولة بذلك تأكيد معنى الاضطراب وعدم الاستقرار هذا فى الوقت الذى كانت المالية المصرية فيه لاتعجز مطلقا عن دفع « أرباح الديون » بل كان فى الاستطاعة أن تسدد جانبا من هذه الديون نفسها

فلما احتلت انجلترا مصر باسم « مصالح الدائنين » استطاعت أن توقف هذه الحملات المصطنعة وأن تحدد الحالة إلى طبيعتها فتقوم الخزانة بدفع التزاماتها بانتظام ويتخذ من ذلك حجة على نتيجة « الاصلاح » الذى قامت به فى مصر وتجعله ذريعة تؤكد به بقاءها باسم هذه الديون الملعونة ، وتتخذ لها من الدائنين النصير على هذه المؤامرة وبمراجعة مالية الحكومة المصرية - إذذاك - يتضح أن هناك عدة ملايين كانت « فائضة » عن المصروفات وكان فى الامكان - لو حسنت النية - أن تسدد من دين مصر ولكن انجلترا الغادرة حالت دون ذلك لأنه يضعف الأسباب المنتحلة للبقاء فى مصر وقد عملت انجلترا على تبديد هذه الأموال وأهدارها فى مشروعات تافهة قصد بها التخلص من هذه الأموال قبل الاستفادة من هذه الأعمال

ثم عملت على اضطراب الأمن والاخلال به وأعانت على خلق روح الثورة والتمرد وأحدثت مؤامرة مذبحة الاسكندرية لتظهر للعالم الغربى مدى الخطر المتسلط على حياة الأجانب وبهما معا - الارتباك المالى واضطراب الأمن - وخطرهما على أموال الدائنين وحياة الأجانب تعللت انجلترا لاحتلال مصر

ومن هذا تبين كيف أن انجلترا أخذت مصر غدراً واغتيالا ولم تتمكن من مواجهتها مواجهة الحرب أو الخصومة السافرة أو المنازلة الصريحة ، وأنها احتالت لذلك بكل وسيلة أضعفت نهضة محمد على حتى جردته من امبراطوريته وحصرته فى مصر ، ثم اغرت مصر بالاستدانة حتى أسرفت فيها ، ثم حملتها من ذلك إثارة الاضطراب ثم حاربت مشروع إنشاء القناه فلما أنشىء عذرت مصر فى حصتها من الأسهم واشترتها من غير حق شرعى صحيح يبيح للدول شراء الأسهم . .

ثم أخذت تعمل على تمزيق الوحدة وإثارة الفتنة بين المصريين والأجانب حتى أحدثت مذبحة الاسكندرية ثم ألحت على العلاقة بين الخديو والحكام فأفسدتها وتدخلت بأسطولها فى يناير سنة ١٨٨٢ وطلبت إيقاف الدستور ونفى عرابى وعدم تخويل مجلس النواب نظر الميزانية .

ثم مازالت تؤجج نار الفتنة والخصومة حتى اتسعت شقة الخلاف بين الخديو وعرابى وانقسمت الأمة إلى معسكرين ، أعانت هى المعسكر الشعبى بصنائعها الذين أعانوا على الثورة وحرضوا على المقاومة أمثال (بلنت) وأعانت المعسكر الرسمى بالتأييد الفعلى بأمثال كلفن وسيمور وولسلى . وظلت كذلك حتى خفقت هذه المؤامرة خدعة واغتيالا ، فلم يكن التعلل باصلاح طوابى الاسكندرية مما يقبل فى العرف الدولى كوسيلة لضرب الاسكندرية ، ولم يكن للاسطول المحاصر للاسكندرية الحق فى أن يتدخل فى شؤون مصر فضلا عن أن يكون له الحق فى أن يضربها بالقنابل لسبب ما ولكنها النية المبيتة وسبق الأصرار على احتلال مصر وعلى أهدار حريتها . . .

وقد أعلنت انجلترا منذ اليوم الأول أنها جاءت تثبت سلطة الخديو وأنها لن تنتظر بعد أن استتب النظام وظلت تتعلل بمثل هذه العله وغيرها عاما بعد عام ، فى الوقت الذى كانت تعمل فيه لبقاء طويل ، وتستعد فيه لأعمال ضخام .

وفى الوقت الذى كانت تلق بهذه التصريحات الكاذبة عن الجلاء كانت تستدعى « دوفرين » ليضع دستور الاحتلال ، وفى الوقت الذى كانت تفرض « نصائحها » على الحكام وترغمهم على الاستقالة إذا رفضوا إجابتها وفى الوقت الذى تتدخل فيه تدخلا فعليا فى أمور مصر فتأمر باستدعاء قائد مصرى من السودان ليحل بدلا منه قائد انجليزى ، مما ينتهى بهزيمة مصر فى معركة (كوشان)

وإذا بانجلترا تلزم مصر على إخلاء السودان ، ويقاوم شريف باشا هذا مقاومة الأبطال ويقول كلمته الخالدة (إن تركنا السودان فان السودان لا يتركنا) وإذا بوزير الخارجية البريطانية « جرانفيل » يبرق بأمره الالزامى فى قبول نصائح انجلترا دون معارضة وإذا بشريف يستقيل ويخلفه نوبار فيسلم فى تنفيذ رغبة الانجليز وينتهى هذا بالعودة إلى السودان ١٨٩٧ باسم مصر ولحساب انجلترا ، وبجيوش مصر وبسلطان انجلترا وباسم بدعة البدع فى السياسة الخارجية « الحكم الثنائى »

وسقت انجلترا مصر كؤوس الصاب والعلقم وصال كرومر فى رباها وجال وتسلط وتجبر ، فى تسلط

عاصف وطغيان ظالم ، واتسمت أعماله كلها بروح الانتقام من هذا الوطن الكريم وكاه مقاومة لوطنية وحريته وظهر ذلك فى أجلى صورة بحادث دنشواى الذى تجردت فيه انجلترا من كل إنسانية وعدالة وبدت أمام العالم فى صورة الوحشية والاجرام الذى لم يعهده التاريخ فى أسوأ عهوده وأظلم أيامه مما زعزع مكانة (كرومر) وأجج نار الوطنية فى مصر ومدها باللهب والاشتعال وتكشفت انجلترا بهذا الحادث عن حقيقتها الغادرة التى طالما اخفتها وراء الألفاظ المعسولة والكلمات العذاب

وانتقلت سياسة السلطة الشرعية فى مصر من المواجهة والمقاومة وإعانة الروح الوطنية وامدادها بالعون والتأييد إلى الوفاق والمسايرة والاستسلام ، مما أدى إلى مقاومة الوطنية نفسها

أعلنت الحرب الكبرى وانتقل موقف مصر ، التابعة لتركيا رسميا ! والمحتلة بالجيوش الانجليزية باسم تثبيت سلطة الخديو إلى حماية انجليزية صريحة مع قطع صلتها بتركيا بعد أن انضمت إلى ألمانيا وقاست مصر إبان الحرب الكثير من آثام الاحتلال ، فقد جند من المصريين مليون ونصف مليون سيقوا فى جيش الغاصبين يقاتلون معهم على غير مبدأ أو غاية وقد أكلتهم الحرب فى صحراء سينا والعراق وجندت المرافق والمحاصيل المصرية كلها لحساب انجلترا وجمعت بالاكراه حتى صرح ملنر : « إن الشعب المصرى تحمل التكاليف والقيود التى اقتضتها تلك الحرب بالصبر والرضا ولكن أين نتيجة هذا القول ، إلا الخسة والغدر فى مقاومة حقوق الوطن الواضحة فى الحرية والاستقلال هذه الحقوق التى أعلنت انجلترا فى تبليغها بالحماية أنها (وديعة تحت يدها لسكان القطر المصرى) وقد احتمل المصريون فى الحرب الأولى - كما احتملوا فى الحرب الثانية - ألوانا من المعاملة السيئة والاعتداء الفظيع من جنود (الحليفة !) فضلا عن قسوة الأحكام العرفية وتكميم الصحف ومنع الاجماعات واعتقال ونفى البرءاء دون تحقيق أو محاكمة .

ويظل هذا التدخل والتسلط - مما هو مفصل فيما بعد - يقوى ويشتد ، ويتخذ فى كل مرة ثوبا من الحيلة أو الخداع أو التضليل أو التحذير حتى تقع الواقعة ويولد هذا الضغط المتصل الانفجار القوى فتحدث ثورة ١٩١٩ ، التى صنعها الشعب وقادها وليس لزعيم فضل عليها بل هى تاج الفضل لكل زعيم .

هذه الثورة القوية الجبارة التى لم تجد رجالا ليقوموا على مجدها ، وإنما وجدت خصوما يضعون الماء على نارها ، ويسايرون الغاصب فى أساليبه العجيبة الغادرة لتخدير مشاعر الأمة وقتل روحها الوطنية المتأججة المتحفزة إلى النضال الطويل .

ثم تواجه مصر حالة جديده ، ليست خيراً مما سبق ، فقد استطاعت انجلترا أن تتخير فريقا من المصريين ليسير فى ركبهم ويعمل على تخفيف الخصومة ، والمساومة فى الحقوق ، والمجاملة فى الوطنية ، واسلم الى هذا الفريق قياد النهضه وسلم ميراث الثورة فساق الوطن فى ربع قرن كامل بالخداع والغش ، والمناورة والمساومة وقتل روحه الوطنية المشتعله ، وشغله بالغرض القليل . وأنساه الهدف الأكبر

وظلت هذه الزعامة الحزبية تمزق الأمة إلى شيع واحزاب ، وتثير فى هذه الاحزاب الفتن والأحداث ،

وتتقاتل وتتصارع حتى نزلت بالأمة من المقاومة الوطنية إلى المخاصمة السياسية ، ومن أسلوب القوة والجرأة ، إلى مهازل الضعف والخضوع ، ومن لغه الحق والخير ، إلى نهش الأعراض والظلم والاعتساف

وانساق الزعماء إلى خصومة لاتبقى ولاتذر ، وتقاتلوا على المناصب والمتاع ، واضطربت الأمور أشد الاضطراب وساومت انجلترا مصر أبشع المساومة ، وظلت هذه المعسكرات المتخاصمة تفاوض الانجليز فى الحق الواضح وتطالب بحقوق الوطن على موائد المفاوضات فانتقل الأمر من خصومة للانجليز إلى مجاملة ومحالفة وصداقة

واغضت هذه الزعامة الطرف عن الضربات الانجليزية القوية التى تواجههم بها حرصاً على البقاء فى الحكم ، والتى تواجه بها الوطن حرصاً على الوصول إلى الحكم

وظلت انجلترا على « غدرها » المعهود واساءت إلى مصر سنة ٩٢٤ باخراج الجيش المصرى من السودان ، وتعطيل الدستور سنة ٢٩ وتغييره سنة ٣٠ وبالغائه سنة ٣٥ وضربت مصر الضربة الكبرى بمعاهدة الشرف والاستقلال سنة ٣٦م واعتدت على حرية الوطن أشنع إعتداء فى ٤ فبراير . . .

. . . واستيقظت الوطنية المصرية على فهم الحقائق وعلى مخاصمة الاحتلال ومقاومة أذناب الانجليز من المصريين وعرف الشعب حقه ، وعرف خصومه ، وفهم كيف جنت عليه الحزبية فقاومها مقاومة فعلية سنة ٣٥ وسنة ٤٦ وضرب الشباب بالرصاص مرة ومرة وهو ينادى بالجلاء عن وادى النيل ولكنه أصر على أن ينادى باعلان فشل الحزبية وانهيارها . . . .

الزعامة الحزبيـــــــة

والحق انه كان نضالا طويلا حاداً ، ولايزال مستمرا وقويا وحاراً وسيزداد مع الأيام عنفا وحده بين ابناء الوطن أصحاب الحق الشرعى فى وطنهم وبين الغاصب الدخيل والمستعمر الظالم ومن والاه وأعانه من الذين يعتمد فى بقائه على سحر المال ممن يأكلون أموال وطنهم من اليد التى تقطر بالدم ، فيأكلون فى بطونهم ناراً ويعيشون على النفاق والتهديد والاغراء ، بجعلهم يده التى يبطش بها بالأحرار العاملين ، والمخلصين الآمنين ويسلط عليهم اساليبه الظالمة من سجن ونفى ووعيد وتشريد

وقد إصطفى الاستعمار أنصاره ممن لانت قلوبهم لجلال المناصب ولبريق الذهب ، فعاش هؤلاء عيشة النفاق ، وأضلهم الغرور ، فاعتصموا بابراجهم ، وظنوا انهم فى حصانة عن الشعب بالانجليز ، وفى رعاية من الغاصب عن الحساب والجزاء ، حساب التاريخ وجزاء الأوطان

وكلما حاول الشعب أن يوجه الأمور ، وان يقاوم الغاصب كان هؤلاء الزعماء اليد التى يقتل بها الوطنية والخنجر الذى تمزق به المقاومة ، ولم يكن لهؤلاء الزعماء الأذناب من عمل خلال هذه السنين إلى إلقاء التصريحات التى تخدر الشعور ، أو استغلال المواقف أو ارضاء سادتهم الانجليز

وقد انقاد الشعب ردحا من الزمن لهؤلاء ، فغلبته النزعة النفعية والرغبة المادية ، وغفل عن حقه وحريته ، وانتقلت أزاء ذلك الوطنية المجاهدة الى السياسة الحزبية وبما وراء هذه الحزبية من خصومة ومؤامرات ومناورات فى الانتخابات والوزارات والمفاوضات

ولكن ذلك الحجاب الكثيف لم يطل بقاؤه فقد تنبه الناس إلى خصومهم وإلى ادناب هؤلاء الخصوم وعرفوا هؤلاء الآثمين الذين عجزوا خلال ربع قرن عن أن يحققوا للوطن أملا ، أو يقوموا بعمل إيجابى صحيح ، من خصومة صريحة أو مقاطعة صحيحة أو مقاومة كريمة أو مواجهة صادقة

هؤلاء الذين عجزت انفسهم الضعيفة عن الكفاية الوطنية فوقفوا موقف العبيد وسلموا تسليم الأذلاء وجروا وراء الغاصب وجعلوه سنادهم وظهيرهم

وتنكروا لهذا الشعب فلم يوجهوه ، وتناسوا حقه فلم يبينوه ، وجهلوا روحه التى تتوقد غيرة وحماسة وتشتعل شوقا إلى حرية وكرامة

وقد عاش هؤلاء الزعماء على المطمع العاجل ، والعمل الهين ، فجعلوا الحكم هدفهم ، والمفاوضات وسيلتهم وأنكروا كل ماعدا ذلك من مقاومة أو نضال أو جهاد . .

وقد علموا منذ اليوم الأول ان انجلترا غاصبة لا حق لها فى مصر ولا وجه شرعى لاحتلالها وأعلنها ملنر واضحة صريحة فى لقائه الأول مع المفاوضين سنة ١٩٢١ حيث قال لهم (اننا الآن فى مصر واضعون يدنا على كل شيء ونريد أن نتخلى عنها فى مقابل شيء واحد هو أن يعترفوا بمركزنا فيه لأنه الآن فعلى ونريد أن يكون شرعيا مسندا إلى قوة عسكرية ، نحن نبحث عن مصر منذ أكثر من مائة سنة وهى الآن فى قبضتنا ونريد أن يكون مركزنا فيها شرعيا بقبولكم ،

وهكذا ظهرت النية الانجليزية المسممة وهكذا انكشف للزعماء ما تريده انجلترا ولكنهم ظلوا مع ذلك يسيرون فى التيار ، خصوما للوطن ، قاتلين لروحه ، مضللين له ، مفرطين فى حقه ، يساومون الانجليز لمصلحة الانجليز لا لمصلحة مصر ، وما كان الحق الأبلج الواضح فى الحرية والجلاء فى حاجة إلى مساومة

وهكذا سعت انجلترا لتجعل احتلالها لمصر شرعيا وهكذا عمل زعماؤنا على تحقيق هكذا المطمع الانجليزى الظالم فوقعوا معاهدة ٣٦

غدر الانجليز

وضح غدر الانجليز فى كل خطوة وفى كل حركة وفى كل حالة مما لا يستدعى إقامة دليل أو سياق برهان ، فى الوقت الذى عمل زعماؤنا على بث روح الصداقة والمحالفة مع هذا الغاصب

سلب الانجليز حقوق مصر الشرعية منذ اليوم الأول لاحتلالهم ، سلبو مصر ودستورها ومجلس نوابها واستبدلوه بمجلس شورى القوانين ثم الجمعة التشريعية

ثم حولوا تيار الوطنية الدافق بعد ثورة ١٩١٩ إلى مناورة سياسية بارعة ولما وضع الدستور تدخلوا فى وضعه ونصوصه وفرضوا سلطانهم عليه فرضاً معيباً ظالما ووقفوا فى وجه نصوص السودان ، وعينوا نقطا بالذات لم يجعلوا للجنة الدستور ولا الوزارة الحق فى التعرض لها وقامت لأجل ذلك أزمات اودت بوزارتين وحاولوا أن يحولوا بينه وبين الحياة مرتين ومسخوه مرة ثالثة ...

وحاولوا طويلا ارغام المصريين على عقد محالفة عسكرية حتى إذا برزت نذر الحرب سنة ٣٦ أرغمت انجلترا الزعما على أن يجتمعوا وفرضت عليهم معاهدة ٩٣٦ الظالمة الجائرة التى اعترفت بشرعية الاحتلال وقبلت وجود قوات دائمة عند قناة السويس وأباحت للجيش الانجليزى براً وبحراً وجواً استغلال الموانىء والتزمت بتقديم العتاد والمؤونة فى أوقات الحرب ، وقد استغلت هذه المعاهدة اثناء الحرب استغلالا عجيبا وقد أملت هذه المعاهدة الظالمة اتفاق ١٨٩٩ الباطلة وأعانت على فصل السودان عن مصر وبسط يد الانجليز فيه

وقد استطاع الانجليز بعد تصريح ٢٨ فبراير أن يعلنوا سياسة الحلفاء والعمل من وراء الستار على يد الزعماء الذين قبلوا التعاون والتفاهم وقبول الحكم والمفاوضة فى ظل جيش الاحتلال وسلطان قصر الدوبارة وظهر فى مصر هذا الفريق المنافق العجيب الذى يتنكر لتصريح ٢٨ فبراير ثم يقبل الحكم على أساسه والذى يقول عن الدستور أنه كتب بيد إنجليزية ووضعته لجنة الأشقياء فإذا أمكنهم هذا الدستور من ناصية الحكم قالوا انه أحدث الدساتير وأدعوا أمام الأمة أنهم يجاهدون فى سبيل الوطن فى الوقت الذى أطلقوا على الانجليز كلمة (الخصوم الشرفاء المعقولون) وفصلوا مسألة السودان عن مصر ثم جاءوا أخيراً تحت ضغط الوعى الوطنى يطالبون بوحدة وادى النيل وظلوا يسخرون من كلمة الجلاء التى جعلها الوطنيون شعارهم حتى دمغهم التاريخ بأنها انها لم ترد مرة واحدة فى بيان من بياناتهم حتى أرغمتهم اليقظة الوطنية على ترديدها .

ومنذ أعلنت الحرب الكبرى أخذ الانجليز يشردون (الوطنيين) وينفونهم إلى خارج القطر جزاء صراحتهم وتصميمهم وقد ظل « فريد » يقاوم المرض والفقر والغربة حتى وصل به الداء إلى أشده ومع ذلك ظل يقول « اننا نعرف كيف نصبر على المكاره ولكننا لانعرف التسليم فى حقوقنا ولا التنازل عن مطالبنا .

ومن آثار هذا النضال بين مصر وانجلترا وهذه المقاومة بين طلاب الحق والحرية وعمال البغى

والاستبداد حادث دنشواى هـذا الحدث لا يمكن أن ينسى ولا تنسى آثاره ، هذا الحدث الذى أشعل فى الوطنية المصرية روح اليقظة والمواجهة حتى بلغت أشـــدها فى حركات المقاطعة وارغام الزعماء بالاضراب عن الحـكم فقد ظلت مصر بدون وزارة من ٢٤-١٢-٢١ إلى ١-٣-١٩٢٢ حتى اضطرت انجلترا إلى اصدار تصريح ٢٨ فبراير

وبرز هـذا المعنى بوضوح فى مقاطعة لجنة ملنر التى وصلت إلى مصر فى ١٤-١١-١٩١٩ واضطرت إلى العودة دون أن يتقدم لهـا مصرى واحد ، وقد قوبلت منذ وصولها بالاضطرابات والمظاهرات مما اضطر سعيد باشا إلى الاستقالة فى ١٥-١١-١٩١٩ وقد اعترف ملنر بالروح العدائية التى قوبلت بها اللجنة وبلغ ما تلقته من الاحتجاجات ١١٣١ برقية .

بعد هذا كله استطاع الانجليز أن يقتلوا روح الثورة وأن يضيعوا ثمرتها وأن يخلقوا جواً جديداً ، هو اسوأ مخبراً وان ظن بعض الناس أنه أحسن مظهراً فقد اختفى الانجليز وراء المصريين وحركوهم كالدمى فوق المسرح وظن النـاس أن المصرى هو الذى يعمل فى الوقت الذى كان هـذا المصرى لايتحرك حركة إلا بأمر ولا يقول كلمـة إلا بأذن ، أولئك هم عبيد الاستعمار ، عبيد الدنيا ، عبيد المنـاصب ، وتعس عبد الدينار والمناصب .

سياسة الاحتلال

قضت انجلترا منذ اليوم الأول لاحتلالهـا مصر على كل قوة وكل نشاط فيها ، وارغمتها على إخلاء السودان ، ثم دفعت بها إلى مناورة العودة وكبلتها باتفاقية ١٨٩٩ الباطلة التى وضعت كل السلطة فى السودان فى يد الحـاكم العام الانجليزى والزمت مصر بالارتبـاط معها بمعاهدة تحـالف عسكرى وقتلت روح المقاومة الوطنية وأحلت روح الاذعان والتسليم والرضا بالأمر الواقع بدلا منها وكبتت الرأى العـام وأهـدرت الحريات وقمعت الحركة الوطنية برصاص الجيش ، وسلـكت سياسة فرض الحـكام بسلطة الدبابات .

واعانت الحـكم الاستبدادى على الانقلابات غير الدستورية ومزقت وحدة الأمة واوقعت الخصومة والبغضاء بين الزعماء وبين الشعب ووضعت العيون والارصاد على الأحرار والمجاهدين وهددت وتوعدت واغرت وعملت على التفرقة والخصومة بين الشعب والحـكومة وبين العرش والحـكومة وبين الطوائف والناس بعضهم البعض .

وليس لانجلترا نظام ثابت او وضع محدد ، فانما هى تسير وفق هوى الاستعمار فتقر وضعا فى وجهة ولا تقبله فى جهة أخرى ، وبينما يصرح (بيفن) فيما يتعلق بالدردنيل فيقول (ان الحـكومة الانجليزية تشعر بأن الحـكومة التركية هى وحدها التى يجب أن تكون مسئولة عن الدفاع والاشراف على المضايق) نراها لاتطبق هذا القول فى مصر وتصر على أنها باقية لحراسة قناة السويس .

وبينما تنشيء هي في السودان حزبا لمناصرة الانفصال تندد بسلوك روسيا في إيران بانشاء حزب (توده) في ازربيجان .

وكما تدخل الانجليز في وضع الدستور تدخلوا في إقامة هذا النظام الدستوري نفسه ، فاعطوا انفسهم الحق في أن يحولوا بين بعض الوطنيين وبين البرلمان .

ومضوا في إملاء سيطرتهم على الحكومات في جهر وعلانية حتى تكاد لاتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن الأمة إلى الآن لم تفرض ارادتها في تشكيل وزارة معينـــة ، ومعنى ذلك ان كل وزارة تقوم إنما تقوم بتأييـد الانجليز ورضائهم ولذلك فهي لا تستطيع الجهر مطلقا بعـداء الانجليز او تقف منهم موقفا قاطعا صريحا .

واستطاع ـ بذلك الانجليز املاء سيطرتهم في قلب الوزارات عند ما يستدعي الأمر ذلك ، وهم يقذفون الوزارة أحيانا في ـ اشد اوقات جلوتها ـ بتصريح ما فيكون هذا ارتطاما لها وتقويضا تخر على اثره على قدميها مهيضة الجناح .

وهكـذا قامت الوزارات المتواليـة بين نصـائح جرانفيل وتهـديدات كرومر وانذارات اللنبي ودبابات كليرن .

وليس ببعيد تصريحات تشرشل وروزفلت وهور وهدلستون التي قوضت الوزارات المتوالية .

ولم يقف الانجليز من أنصارهم ، واذنابهم موقف المجاملة بل كانوا في اشد اوقات مجدهم يصفونهم وصف الواقع الحق دون تردد فيقول ملنر عن الحزب الذي فاوضه سنة ١٩٢٠ (هيئة مؤلفة من اعضاء اكثرهم ليسوا من الغلاة المتطرفين بل اصلهم من حزب الأمة القديم الذي كان غرضه التقدم الدستوري تدريجيا بخلاف الحزب الوطني الذي هو حزب الثورة ومعارض الانجليز) ونحن نعتمد هـذا النص في التعريف بزعماء ما بعد الثورة .

غدر الانجليز

ومنذ اليوم الأول ونية « الغدر » واضحة وضوحا عجيبا في كل تصرفات إنجلترا مع مصر فهي قد اشترت أسهم قناة السويس غدراً وخالفت بشرائها أبسط قوانين الاقتصاد إذا أن الأسهم كانت معروضة الافراد وليس الدول ولـكن جريدة التيمس في ٢٦ - ١١ - ١٨٧٥ تكشف عن هذا الغدر بوضوح فتقول (أن من المستحيل أن نفكر في شراء أسهم قناة السويس منفصلا عن علاقة انجلترا المستقبلة بمصر)

وفي تصريح (غلا دستون) في مجلس العموم الانجليزي في سبتمبر ١٨٧٧ يتبين هذا الغدر بجلاء وضوح حيث يقول : (إذا توطدت أقدامنا في مصر تكون هذه المستعمرة الأولى بوجه التحقيق بمثابة ذريعة لتأسيس إمبراطورية شاسعة في أفريقيا الشمالية)

ثم يتجلى هذا الغدر فى وضوح عندما حرض الانجليز على قتل (اسماعيل باشا) صديق المفتش لأنه كان يدافع عن مصر ويحاول الحد من سلطان الرقابة الثنائية ومؤامرات الدائنين التى بينا طرفا منها فى أول هذا الفصل ، وقد أنعم على قاتله بلقب (سير) وكشفت التيمس نقابها بعد قتله فى غدر مكشوف فقالت (لقد كان اسماعيل صديق زعيم حزب يقاوم النفوذ الأوربى وكل تقدم للمدنية فى البلاد أن سقوط المفتش ليعد من أقوى دواعى النجاح) .

ويظهر هذا الغدر فى صورته الصارخة حين تدفع إنجلترا بعض الاجانب إلى إثارة الاضطرابات وتأجيج الفتنة وتعمل على تسليحهم بجاب الأسلحة من الأسطول وتوزيعها عليهم وتدفع هذا المالطى ـ شقيق خادم القنصل الأنجليزى ـ على الاشتباك مع المصرى وإطلاق الرصاص من النوافذ والشرفات وإحداث مذبحة الاسكندرية توطئة للاعتذار للدول باختلال الأمن فى مصر وخطره على حياة الأجانب وأموال الدائنين

ولا يلبث هذا الغدر أن يحمل مصر وهى التى كانت ضحية فى المذبحة ؛ ولم يكن لها يد فى اقتراف الاثم على دفع تعويضات بلغت ٤٫٢٥٠٫٠٠٠ جنيه وسددتها الخزينة المصرية المثقلة

ووضح هذا الغدر فى إجلاء مصر عن السودان ثم فى العودة مع الانجليز اليها ليكون ذلك وسيلة إلى تشويه الحقائق ورمى مصر بصفة الدولة المحتله أو المستعمرة ثم يتجلى هذا العذر فى وضوح باخراج المصريين من السودان سنة ١٩٢٤ وإرغام مصر على دفع نصف مليون من الجنيهات إلى حرم سير لى ستاك تهبها للجماعات التبشرية فى جنوب السوادان فتحارب بها مصر والاسلام

المقاومة

ولن ننسى أن نذكر (المقاومة الوطنية) التى لم تتوقف أبداً بالرغم من هذه المحاولات الآثمة لتطعيمها بالضعف والركود

فإن ثورة عرابى هى لون من ألوان المقاومه للاستبداد المحلى والتدخل الأجنبى ، وكذلك موقف شريف باشا هو من المواقف القوية البارزة التى لاتنسى وكذا جهاد الحزب الوطنى ورجاله مصطفى و فريد وما احتملا فى سبيل هذا الجهاد من آلام أزعجت « كرومر » الطاغية فقاوم الحركة الدفاقة المشتعلة (بحرب الأمة)

وثورة ١٩١٩ التى قادها الشعب دون أن يكون لزعيم عليها فضل ، بل كان لها الفضل على كل زعيم هى حركة قوية جبارة أزعجت إنجلترا واهاجت الاستعمار واضطررت انجلترا تحت ضغط تيارها القوى أن ترسل لجنة ملنر وإن تصدر تصريح ٢٨ فبراير فقاطع المصريون لجنة ملنر وقاوموها وحالوا بين الوزراء وبين قبول الحكم وقتا طويلا وحركات النضال سنة ٣٥ وسنة ٤٦ هى حركات قوية صادقة كان للاولى أثرها فى إعادة الدستور وللاخرى فضلها فى مقاومة مشروع (صدقى بيفن) وإعلان وحدة وادى النيل إعلانا رسميا بلغ قوته حين قال اللسان الرسمى (بالجلاء عن وادى النيل) باعتباره مطلب مصر الأول والأخير

قناة السويس والديون

أغرى « دلسبس » والى مصر « سعيد » بإنشاء القناة فانخدع له فكانت منذ إنشائها إلى الآن مصدر الخطر وسبب البلاء وحجة الاحتلال وأم النضال بين انجلترا ومصر .

فقد استدعت القناة سعيداً وإسماعيلا للاستدانة حتى كان ذلك مصدر اضطراب مالى بعيد الأثر اتخذت منه الدول الطامعة سببا فى التدخل فى إدارة مصر .

ونفضت مصر يدها تحت ضغط الحالة الاقتصادية والأزمة المالية من أسهمها فباعتها بيع البخس لانجلترا بأقل من ثمنها الفعلى ، كما أنها اضطرت أيضا إلى بيع حقها فى الاستيلاء على ١٥٪ من صافى أرباح القناة إلى شركة فرنسية بمبلغ ٧٠٠ ألف جنيه وقد بلغ قيمة هذا الحق سنة ١٩٢٩ ٢٠ مليون جنيه فضلا عن أنه يربح ٨٦٩ ألف جنيه فى العام .

وفقدت مصر فى حفر القناة الآلاف من رجالها ماتوا نتيجة الحمى والجوع ورداءة الجو ، وضاع على البقية الباقية من الاحياء أجورهم التى أكلها المتعهدون فعملوا فيها سخرة ، وكانوا حوالى ٢١ ألف عامل لحقهم الكثير من الظلم والخسف ، وأصابتهم ألوان مبرحة من العنت والارهاق إلى حد أنهم كانوا يضربون بالكرابيج .

وحاول اسماعيل رد الترعة النيلية إلى الحكومة المصرية ، وكانت من ضمن أرض القناة فى شروط سعيد فطولب بدفع تعويض قدره ٨٤ مليون فرنك وقد بلغت تكاليف القناة ١٨ مليون جنيه احتملت مصر منها ١٦٫٨٠٠٫٠٠٠ فى الوقت الذى ضيعت انجلترا فيه كل حق لمصر فى أرباحها أو حصة فى أسهمها .

ومنذ أن انتهى حفر القناة فى ١٥-٨-١٨٦٩ بدأت انجلترا تعمل على إثارة الأزمات والمؤامرات حول مركز مصر المالى مما استدعى إنشاء المراقبة الثنائية وصندوق الدين ولجنة التصفية .

وسعت الشركة فى مد أجل قناة السويس ٤٠ سنة أخرى لينتهى فى ٢٠٠٨ بدلا من سنة ١٩٦٨ وكانت فكرة إنجليزية قصد بها إبقاء النفوذ الانجليزى فى مصر إلى أبعد وقت ممكن وقد وضح خطر هذا المشروع للرأى العام ورفض رفضا باتا وقدر الغبن الذى يقع على مصر من هذا الامتياز بمبلغ ٢٤٠ ألف جنيه وقناة السويس بعد ذلك ـ مصرية لحما ودما ، حفرتها الأيدى المصرية وبأموال المصريين وفى أرضهم وهم أولى الناس وأصلحهم لحمايتها والدفاع عنها وقد قاموا بذلك إبان الحرب الأخيرة خير قيام .

وهكذا ترون أن مكان القناة فى تاريخنا المصرى مكان بارز ، قد حفر بالدم والنار .

انجلترا والقناة

عندما بدأت مصر تنشىء القناة كانت انجلترا من أكبر خصوم هذا المشروع ، وقد حملت عليه حملة شعواء فى صحفها ، وعارضته معارضة شديدة ، فلما أصبح حقيقة نافذة عمدت انجلترا إلى الاستيلاء على أكبر قدر من الأسهم وحرضت الدائنين على التدخل فى شئون مصر وألبتهم على الحكومة المصرية واعتبرت هذه الديون تكأة لتدخلها الفعلى .

وقد انتقل نصيب مصر من الأسهم (١٧٦٢٠٦) إليها فى ساعة العسرة وفى حالة الضغط والارهاق، إذ اشترتها سرا بثمن قدره ١٠٠ مليون فرنك (٤ ملايين جنيه)، وقد اشتراها دزرائيلى وزير خارجية انجلترا مستعينا ببيت (روتشليد) فى ٢٥ - ١١ - ١٨٧٢ وقد بلغ سعرها فى البورصة ٣٥ مليون جنيه .

وكتبت جريدة التيمس عن هذه الصفقة يقول (إن الجمهور هنا وفى البلاد الأخرى سينظر إلى هذا العمل العظيم . الذى قامت به الحكومة من وجهته السياسية لا من وجهته التجارية وهو بمثابة مظاهرة . إنه لإعلان عن نيات معينة والمبادرة بالعمل على تحقيقها . فمن المستحيل أن نفرق فى أذهاننا بين شراء أسهم قناة السويس وبين علاقات انجلترا المقبلة بمصر ، أو بين مصير مصر وما يحيط بالامبراطورية العثمانية من المخاوف)

وفى هذا القول أبلغ دليل على نية الغدر التى بيتتها انجلترا لمصر منذ ١٨٠٧ والتى تأكدت فى سبتمبر ١٨٧٥ بشراء أسهم قناة السويس والتى كشف عنها فى وضوح تصريح غلادستون فى سبتمبر سنة ١٨٧٧ .

وبعد أن اشترت انجلترا أسهم القناة أرسلت إلى مصر بعثة لفحص ديونها المالية على رأسها (ستيفن كيف) وانتهى أمرها بإصدار قانون توحيد الدين وإنشاء صندوق خاص بعملياته ، واختير أعضاء من الأجانب ممثلين للدائنين ، ثم أنشىء منصبى المراقبين وبذلك أصبحت الحكومة المصرية فى يد الصندوق والدائنين .

وهكذا اتخذت انجلترا ديون مصر وسيلة إلى السيطرة عليها والتدخل فى شئونها وفرض أمرها مما انتهى بها إلى احتلال مصر وما دمنا بصدد قناة السويس والديون فإنه يجب أن نثبت هنا أنه ظهر بوضوح أن ميزانيات مصر أيام الاحتلال كان بها عدة ملايين فائضة عن المصروفات وكان فى الامكان لو حسنت النيات ـ أن تسدد من دين مصر ولكن الانجليز حالوا دون ذلك رغبة فى البقاء وتمكينا لهم فى الاحتلال وهذا مايقوله الدكتور قرمان فى كتابه (مصر وإرهاقها سنة ١٩٠٨) : إن دين مصر (١٩٠٨) كما هو منذ خمس وعشرين سنة ولا غرو فقد عمدت بريطانيا إلى الوقوف فى سبيل وفاء هذا الدين كله أو بعضه فقد كان الدين من بين الأسباب المنتحلة لاحتلال انجلترا لمصر والبقاء فيها ا . ه

وقد كان مشروطا أن تبق للقناة حيدتها ولكن إنجلترا الغادرة خرقت هـذا الحياد سنة ١٨٨٢ عند ماهاجمت عرابي

ثم بدأت إنجلترا تحرك الدائنين ليكون ذلك وسيلة إلى زيادة تدخلها وقد كان لذلك أثره فى السوق المالية فى لندن مما أشارت إليه (التيمس) فى حينه حيث قالت : (استولى الذعر اليوم على سوق السندات الأجنبية ولم تعلق نشرة البنك العثمانى إلا فى منتصف النهار وإذ ذاك تدهورت السندات التركية وأعقبتها السندات المصرية تدهوراً هائلا كان نتيجة إحداث ذعر شديد ، ولم يشاهد أى تحسن عند إقفال البورصة بل استمرت السندات المصرية فى تدهورها إلى ما بعد ساعات العمل

وهكذا اتخذت إنجلترا السندات المالية وسيلة إلى المؤامرة (١) وأداة للاعتداء واستنتج ذلك إشارة الانجليز على مصر بإنشاء مراقبة للحالة المالية المصرية ليشرف عليها ماليين أكفاء ولما تقرر نظام الرقابة الثنائية وضع الرقيب الانجليزى (أفلين بارنج) الذى أصبح من بعد (كرومر) يده على كل شىء ، وخولت للمراقبة سلطة ضخمة اتسع بها النفوذ الأوروبى وأبيحت موارد البلاد ومرافقها للماليين الأوربيين وأنشىء البنك العقارى فى ١٥ - ١٢ - ١٨٨٠ وشركة تكرير السكر

وقد أشارت الرقابة إلى إنقاص الجيش بحجة توفير النفقات ومرمى هذا هو إضعاف القوة المصرية توطئة للمؤامرة التى كانت إنجلترا بسبيل تدبيرها بعد أن تمكنت من قناة السويس ومن السيطرة على الأداة الحكومية وقد أنقص الجيش إلى ١٢ الف

وقد حاول إسماعيل باشا المفتش ناظر المالية الوقوف فى وجه تيار الدائنين اليهود الذين أعدوا المؤامرة لخنق مصر وخرابها فعملوا بكل وسيلة إلى إسقاطه

وحرضت إنجلترا على أغتياله وتنفست الصعداء بموته وقد اعتبرته عدو الاصلاح وكتب مراسل التيمس يقول (إن إبعاد المفتش يعتبر هنا بمثابة خاتمة نظام عتيق فإن الباشا كان ديدنه النظر بعين السخط إلى ازدياد النفوذ الأوربى ومقاومة كل تقـدم فى البلاد) وقد أخلى سقوطه الجو فعلا للنفوذ الغاصب لاتمام المؤامرة الغادرة

وقد ضغطت الرقابة على المالية المصرية ضغطا عجيبا لتظهرها بمظهر الاضطراب وهذا بيان بعدد الموظفين الأجانب فى مصر

سنة	١٨٧٠	١٦٠	أجنبى
»	١٨٧١	٣٦١	»
»	١٨٧٦	٤٨٠	»
»	١٨٧٧	٥٥٦	»
»	١٨٧٨	٦٨٧	»

(١) وصفنا فى هذه البيانات إلى كتاب مصر قبل الاحتلال وبعده ترجمة الاستاذ على شكرى

وكتبت التيمس فى ٢٥ - ١٢ - ١٨٧٨ تقول :

(تبلغ مرتباتهم — أى الموظفين الأجانب — ٦٠ ألف جنيه سنويا فى حين أن مئات المستخدمين الوطنيين لايستطيعون أن يحصلوا على مرتباتهم الزهيدة التى تدفع لهم منذ عام أو أكثر)

وكتبت التيمس فى ٢٣ - ١ سنة ١٨٧٩ تقول :

« إن معظم كبار الموظفين هم من الأجانب الذين تصرف لهم المرتبات الضخمة لتهدئة حنينهم إلى الوطن، وقد حشرت المنافسات الدولية هنا ثلاثة أو أربعة من الموظفين فى عمل لا تحتاج تأديته إلا إلى شخص واحد، ولقد كانت نتيجة هذه التجارب فى طريق الحكم أن أثقل كاهل مصر بعدد من الموظفين ذوى مرتبات ضخمة لا عمل لهم إلا قبض المرتب »

وهكذا كان عمل الدائنين هو عمل المتآمرين ، الذين يلحون بالطلبات الدائمة ، والاقتراحات الكثيرة وترفع الأسهم فى البورصات بوسائل عجيبة وهمية لاحقيقة لها ، والتواطؤ والتصميم وسبق الاصرار على خراب مصر

وقد أرغم الدائنون مصر على تشكيل وزارة أوربية شكلت تحت رئاسة نوبار بوزيرين إنجليزى للمالية وفرنسى للأشغال وبهذا سيطرت أوربا على مصر سيطرة فعلية

لماذا أنشئت هذه الوزارة ؟ هذا ما يجيب عنه السير جورج كامبل فى مجلس العموم سنة ١٨٧٩ (أن تلك المحاولة التى كان المراد بها فى الظاهر إدخال الحكم الصالح فى مصر لم تكن سوى لعبة مالية عظيمة لرفع الأسهم المصرية وليتمكن أولئك الذين لهم فيها نصيب من أن ينثروها على الجمهور

وقد أدى هذا الارتباك المالى إلى زيادة الضغط على المزارعين فى تحصيل الضرائب مما أدى (إلى [1] موت الفلاحين فى منعطفات الطريق وخراب مساحات واسعة من الأراضى واقفارها من جراء الأعباء المالية الفادحة وبيع الزارعين لدوابهم والنساء لحليهم وتهافت المرابين على دور الرهن وملئها بسنداتهم وازدحام المحاكم بقضايا نزع الملكية) .

ولم تستطع انجلترا أن تخفى غدرها حيث يصرح كبير مسئول فيها :(إن أوربا لايعينها صلاح الحكم فى مصر أو فساده إذا سددت الكوبونات فى مواعيدها) وقد رفع قنصل السويد فى القاهرة إلى حكومته تقريرا مسهبا وصف فيه هذه الحالة بقوله : إن الطريقة التى اتبعت إلى الآن فى تنظيم المسألة المالية تشبه الطريقة التى يتبعها الانسان مع مدين عادى ، بصرف النظر عما إذا كانت ديون مصر لمصلحة البلاد وعما إذا كان يوجد من يستحق العطف بين الذين أقرضوا هذه النقود بالربا الفاحش أو استفادوا فوائد عظمى على حسابها ، فان مصر يجب عليها على كل حال أن تنفذ تعهداتها ولكن ثمه بونا شاشعاً بين هذا وبين الزعم بأن الأهالى والبلاد يجب تخريبها تخريبا تاما لارضاء شهوات الدائنين ، ومن الصعب أن يعتبر الانسان الأهالى متشابهين مع الحكومة بحيث يصح أثقال كواهل الفلاحين بالضرائب الفادحة وتخويل الدائنين حق بيع الفلاحين وممتلكاتهم لقضاء لباناتهم » .

---

(١) ص ١٣٨ كتاب تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى وبعده

وقد عرفت فترة (١) « المراقبة الثنائية » بالمضاربات التى تعجز الحصر وبالمقاولات الصورية فيما بين الحكومه وبين أفراد المقاولين ومن ذلك أن شركة انجليزية حصلت برغم ارتفاع الأجر الذى طلبته على اتفاق لرى مديرية البحيرة بالالآت الرافعة مع وجود قناطر محمد عل . ومنه أيضا بيع الملح احتكارا وقصره على شركة انجليزية

ومن هذا يتضح بجلاء كيف كانت انجلترا تبدد أموال الخزانة حتى لا تبقى فيها على أى فائض يمكن تسديده من الديون فضلا عن أنها تعمل على إيجاد جو ملبد مضطرب يعجز الخزانة عن تسديد أرباح الاسهم وفوائد السندات

وهذا (شاهد عيان) من الغربيين يصف حالة مصر فيقول : (ان مصر الان اشبه بضيعة كبيرة يدبرها الدائنون . ولكن مع الفارق العظيم وهو انه بينما يدرك الدائنون عادة أهمية تنمية موارد الضيعة للحصول على ديونهم ، تراهم فى هذه الحالة لاهم للواحد منهم إلا الصرف والامتصاص كأنهم نسوا أنه من المستحيل أن يحصد الانسان إذا لم يزرع)

وهاهو المسيو دى مارتن القانونى الدولى الشهير يصف المراقبة الثنائية فيقول (لقد كانت المراقبة الثنائية (الانجليزية الفرنسية) عملا سياسيا أريد به خصيصا إيقاع الخلل فى دولاب الحكومة المصرية ووقف كل إصلاح إدارى وتشريعى يحتمل أن يمس بوجه من الوجوه مصالح الدائنين الأجانب)

هذا فضلا عن أن النزلاء الأوربيين كانوا يعفون من الضرائب المقررة وقد نصت الامتيازات على عدم تكليفهم بدفع ضريبة ما إلا بإذن من حكوماتهم

ومن هذا البيان الواضح السريع يتبين كيف تمت الحلقة الأولى من مؤامرة احتلال مصر وتجريدها من حريتها وتألب الدول الغربية واليهود الدائنين عليها تألبا عجيبا لم يسبق له مثيل فى تاريخ دولة ما

وهكذا تتبين غدر انجلترا ، ونتبين بوضوح كيف ظلت انجلترا تمتص دماء مصر حتى سقطت من الأعباء ، وأنها عجزت عن أن تقاومها بالقوة أو تحتلها بأى وجه شرعى فعملت على خلق هذه المؤامرة الآثمة العجيبة وتمكنت من مصر عن طريق الغش والتآمر .

---

(١) ص ٢١٢ خراب مصر

الاحتلال

« ليس لانجلترا أصدقاء دائمين وأعداء دائمين ولكن مصالح دائمة » . (بالمرستون)

كتب جريدة التيمس لسان حال الاستعمار الانجليزى وسفيرته فى كل أرض فى ١٩ - ٤ - ١٧٧٨ قبل احتلال مصر بخمس سنوات تقول :

(مهما كان ماجريات الأحوال فى المستقبل المجهول فليس من المبالغة فى شىء أن يقال أن مصر ستبقى إلى أمد طويل مركزا له أهمية سياسية كبرى . ولسنا وحدنا الأمة التى تتطلع إلى وادى النيل إذ لو كانت الحال كذلك لسهل حل المسألة المصرية . فمن بدء حكم محمد على حاول الفرنسيون أن يكون لهم النفوذ التام فى مصر ولذلك لايستبعد أن ينظروا بعين الغيرة إلى كل خطوة نخطوها عليها مسحه الرغبة فى أن تكون لنا السيطرة على سياسة مصر) .

وفى ٢٦ - ٤ - ١٨٧٨ تقول التيمس أيضا :

(إن فكرة الحماية الفرنسية الانجليزية على مصر لاتقابل بارتياح فلقد جربنا الادارة الثنائية طويلا ورأينا كيف كان التنافس بين صاحبى الاشراف حائلا دون التقدم (التقدم بلغة الاستعمار هو الالتهام) حتى أننا لنشك كثيرا فى إمكان استقامة العمل فى ظل هذا الاشتراك ولقد تساءل الناس عن حقيقة مصلحة فرنسا فى مصر . نعم إن أحد المصارف فى باريس قد تورط فى أقراض مصر ، ولكن خمس سنوات فى ظل الحماية الانجليزية كفيلة باخراجه من هذه الورطة) .

أول ما يظهر للقارىء العادى وليس للسياسى الفاحص من هذا هو نية السوء وسبق الأصرار وانطواء النفس الاستعمارية على رغبة الغدر ، والاستعداد والتأهب والتربص لهذه المحاولة ولكن الظالم الطاغية كرومر يأبى إلا أن يخدعنا حين يقول فى كتابه مصر الحديثة جـ١ ص ١٣٠ (إن السياسة البريطانية حاولت جهدها أن تلقى عن عاتقها عبء المشكلة المصرية ولكن كانت الظروف من القوة بحيث لايمكن وقف تيارها بالعمل السياسى فمصر كان مقدراً لها أن تقع فى يد الانجليز) .

بدأت أحداث الاحتلال ومسبباته على الوجه الآتى :

٩ سبتمبر	١٨٨١	عرابى مع الجيش فى ساحة عابدين
٢ يناير	١٨٨٢	مذكرة الدستور
١٥ مايو	١٨٨٢	وصول الأسطول
١١ يونيو	١٨٨٢	مذبحة الاسكندرية
١١ يوليه	١٨٨٢	حزب الاسكندرية
١٤ سبتمبر	١٨٨٢	دخول القاهرة

٩ سبتمبر ١٨٨١

كان الشعور الوطنى قد استفاق إلى مواجهة هذا التيار الجارف،وكان الجيش بقيادة عرابى هو أول من حمل عبء الكفاح

وكان يوم ٩ يوما سبتمبر مشهوداً قام فيه عرابى على رأس الجيش ممتطيا جواده مستلا سيفه متقدما إلى ساحة عابدين ولما واجه الخديو أمره بالترجل وإغماد سيفه ففعل وتقدم مطالبا :

باسقاط الوزارة القائمة ، وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وحاول أحد المستشارين الانجليز أن يقنع الخديو بأن يضرب عنق عرابى ولكن الخديو لم يفعل وتوسطت الرسل بين الخديو وبين عرابى وعرابى مصر على طلباته متصلب فى الاصرار عليها .حتى وعده الخديو بتنفيذ طلباته فأسقط وزارة رياض فى الحال وشكلت وزارة شريف

قال الخديو لعرابى : كل هذه الطلبات لاحق لكم فيها وأنا خديو البلد وقد ورثت هذه البلاد عن آبائى وأجدادى وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا . . .

قال عرابى:خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثا ولا عبيدا ولا نورث بعد اليوم.وقال أوكلن كلفن المستشار الانجليزى للخديو : ماذا تفعل إذا لم تجب إلى ماتطلب فرد عليه عرابى فى لباقة فوتت عليه قصده الآثم : هذه كلمة لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط ومنذ ذلك اليوم بدأت انجلترا تحرض على توسيع شقة الخلاف بين العرابيين والخديو فتؤيد العرابيين باذنابها المدنيين وعلى رأسهم « بلنت » وتؤيد الخديو بزعمائها الرسميين وعلى رأسهم أوكلن كلفن

٢ يناير ١٨٨٢

قدم شريف باشا مذكرته المعروفة بوضع الدستور فاتخذت انجلترا منها تكأة للتدخل الرسمى وقدمت مذكرتها بالاشتراك مع فرنسا تعترض فيها على وضع الدستور وتدعى حق القوامة والرقابة على مصر

ومما جاء فيها :« والحكومتان متفقتان اتفاقا وطيداً على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى تهدد النظام القائم فى مصر ولا يخامرهما شك فى أن الجهر بعزمهما فى هذا الصدد سيكون له أثره فى اتقاء الاخطار التى يمكن أن تهدف لها حكومة الخديو »

وقد قوبلت المذكرة بالسخط وتم تشكيل مجلس النواب فاتبعتها بمذكرة أخرى فى ٢٦ - ١ - ١٨٨٢ تطلب فيها عدم تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وقد رفضتها الوزارة القائمة إذ ذاك واستقال رئيسها احتجاجا عليها .

١٥ مايو سنة ١٨٨٢

حدثت بعد ذلك مؤامرة الضباط الجراكسة لاغتيال عرابى وحكم عليهم بالنفى المؤبد إلى أعالى السودان وتجريدهم من الرتب العسكرية والنياشين وعلى رأسهم (عثمان رفقى) فلما رفع الحكم إلى الخديوى للتصديق عليه رفض وامتنع عن اقراره فوقع على أثر ذلك الخلاف بينه وبين الوزارة (البارودى) وحاولت الحكومة دعوة مجلس النواب لتحكيمه فرفض الخديو واتخذت فرنسا وانجلترا هذا الخلاف بين الحكومة والخديو تعلة لها فأرسلت أسطوليهما إلى مصر فى ١٥-٥-١٨٨٢ إذ عدت هذه حالة ثورة تستدعى التدخل المسلح وأذاعت على أثر وصول الأسطول بيانا جاء فيه : (إن وصول هذا الأسطول لا يكدر علائق الحكومتين وإنما يجىء بصفة ودية وبطريق المسالمة .

ثم قدمت الحكومتان مذكرة أخرى فى ٢٥-٥ مغايرة فى لهجتها لما جاء فى هذه تماماً ، تظهر منها صورة الغدر المدبر ، وقد نحتا فيها نحواً تهديديا عنيفا طالبتا فيها باقالة البارودى واخراج عرابى من مصر .

١١ يونيه ١٨٨٢

حاكت انجلترا مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ فكهربت الجو فى مصر وأثارت الفتن .

وفى ظل الأسطول وتأثيره وقعت المذبحة التى هيىء لها هذا المالطى الذى أثبت التحقيق أنه شقيق خادم القنصل الانجليزى .

وعند ما وصل الأسطول اعتقد الأجانب أن هذا نذير بثورة فهاجروا إلى الاسكندرية ليكونوا فى حماية الأسطول وأذاعت انجلترا ذلك وأكدته عمليا بأن نقلت الأسلحة التى حملها الأسطول إلى القنصلية ووزعتها على الأجانب .

فما أن وقع الحادث حتى كانت القذائف تنطلق من النوافذ دون وعى أو حساب مما يدل على استعداد مهيأ

والواقع أن إنجلترا كان لديها (سبق إصرار) لاشك فيه على ضرب الاسكندرية واحتلالها وقد أحكمت هذه المؤامرة إحكاما عجيبا ، بل لقد عملت على عقد مؤتمر الآستانة لبحث المشكلة المصرية لتجعله ستاراً يحول دون البحث فيما تعده بعض الوقت .

وقد عقد المؤتمر فى ٢٢ يونيو ١٨٨٢ ووقع المؤتمرون فى الجلسة الثانية (قانون النزاهة) الذى تتعهد فيه الحكومات بأنها لا تريد أن تستأثر لأنفسها ولرعاياها بأى امتياز أرضى أو تجارى فى مصر ، وأن كل اتفاق يحصل لا يبحث عن احتلال أى جزء من أراضى مصر — كان يحدث هذا فى الوقت الذى كانت انجلترا فيه تعد عدتها لاحتلال مصر بعد توقيعه بأسبوعين . كما حدث بالفعل

وقد عرضت إيطاليا قراراً تطالب فيه (بالامتناع عن التدخل المنفرد فى مصر مادام المؤتمر منعقداً) فألح مندوب انجلترا على وضع تحفظ لهذا القرار جاء فيه (فيما عدا الحالات القهرية) .

وكتب (دوفرين) إلى دولته يقول (إننا فى الواقع منذ أن عدل الاقتراح هذا التعديل التام لم نعد نعتبر للاقتراح قيمة كبيرة) .

وهكذا استغلت انجلترا هذا التحفظ بالحالات القهرية وضربت مصر وسخرت بالمؤتمر والمؤتمرين .

١١ يوليه سنة ١٨٨٢

تعلل سيمور لضرب الاسكندرية بعلل واهية لايقرها التاريخ حين يحكم فى الأمور ، ولا تعتبر فى نظره عاملا من عوامل الهجوم على بلد آمن كمصر .

تعلل (سيمور) قائد الأسطول الإنجليزى بأن هناك تحصينات تجرى فى قلاع الإسكندرية وطوابيها وطالب بايقافها وأرسل بذلك انذاره الأول بناء على تعليمات الأميرالية البريطانية التى جاء فيها : « امنعوا كل محاولة يراد بها غلق ميناء الاسكندرية وإذا بوشر إعادة العمل بالحصون أو نصب فيها مدافع جديدة فاخبروا قائدها العسكرى أن لديكم أوامر بالحيلولة دون ذلك وإذا لم يوقف العمل فى الحال فدمروا الحصون واسكتوا مدافعها » .

وبناء على هذا أرسل (سيمور) إلى قائد الاسكندرية فى ٦ يوليه يقول:(علمت من طريق رسمى أن مدفعين جديدين نصبا أمس على خطوط الدفاع المشرفة على البحر وان بعض استعدادات حربية على وشك التمام فى واجهة الاسكندرية الشمالية ، والمقصود منها تهديد الأسطول الذى بقيادتى فيجب على والحالة هذه أن أبلغكم بأنكم إن لم تأمروا بالاقلاع عن هذه الأعمال أو تكونوا قد أمرتم بالاقلاع عنها فإن من واجبي ضرب الحصون التى يجرى فيها البناء » .

فرد عليه قائد الاسكندرية : « أؤكد لكم ان الأخبار المذكورة عارية عن الصحة وانها مثل خبر التهديد بسد ميناء الاسكندرية الذى اتصل بكم وتحققتم كذبه » .

ولكن (سيمور) استمر ماضيا فى طريقه غير عابىء بالحق ولا بالعدالة .

وقد أرسل يوم ١٠ إلى قائد الاسكندرية يقول : (نظراً لحدوث استعدادات حربية آخذة فى الازدياد وحيث انها موجهة بالطبع إلى الأسطول الذى هو تحت قيادتى ، فقد عقدت العزم على أن أنفذ غداً (١١) الجارى عند شروق الشمس العمل الذى أعربت لكم عنه فى خطابى يوم ٦ إن لم تسلموا إلى قبل هذه الساعة البطاريات المنصوبة على برزخ رأس التين وعلى ساحل ميناء الأسكندرية لمنع التسلح بها »

وقد رد عليه قائد الاسكندرية فى اليوم نفسه فقال :

« لم تعمل مصر عملا يقتضى إرسال هذه الأساطيل المتجمعة ، ولم تعمل السلطة العسكرية أى عمل يسيغ مطالب الأميرال ، إلا بعض إصلاحات ضرورية فى أبنية قديمة ، والحصون الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل ، ونحن هنا فى وطننا وبيتنا فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ كل عدة لمقاومة كل عدو مباغت يقوم على قطع أسباب الصلات السليمة .

مصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أى حصن دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح ، فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتضع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم اما عن هجوم الأسطول واما عن اطلاق المدافع على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الاسكندرية الهادئة ، مخالفة بذلك لأحكام حقوق الانسانى ولقوانين الحرب .

وإنى آسف ياحضرة الأميرال أن أعلمكم أن حكومة سموه تعتبر هذا الطلب غير مقبول وانها لا ترغب مطلقا فى تكدير صفو العلاقات بينها وبين إنجلترا ، ولكنها لا تستطيع أن تعترف بأنها اتخذت أى تدبير يمكن أن يعتبر تهديداً للأسطول الانجليزى سواء أكان ذلك من جهة إقامة أعمال فى الحصون أو من ناحية تركيب مدافع بها أو إستعدادات حربية .

ومع ذلك فنحن مستعدون أن ننزل ثلاثة مدافع من البطاريات التى أشرتم اليها فنبرهن لكم عن ميولنا السلمية ورغبتنا فى تلبية طلبكم . وإذا كنتم تصرون رغم هذه المقدمة على اطلاق النار فالحكومة المصرية تحفظ لنفسها الحق وتلقى مسئولية هذا العمل العدائى على عاتقكم .

فما أن وصل الخطاب إلى (سيمور) حتى أمر باطلاق النار وفى نفس الوقت أرسل (جرانفيل) وزير الخارجية البريطانية إلى سفراء إنجلترا فى باريس وبرلين وروما وفينا وبطرسبرج يقول (بينوا للحكومة التى أنتم معتمدون لديها أن الخطة التى أنبأنا بها أميرالنا أنه سيسير عليها فى مصر ليست أكثر من عمل دفاعى بسيط ومشروع ! وان ماعمله سيمور لم يكن إلا خلقا للحالة القهرية التى ألح على طلبها مندوب انجلترا فى مؤتمر الآستانة »

والعجيب أن سيمور يبدأ بالتحدى ويتهم به مصر ، ولست أدرى من المعتدى والمتحدى أصاحب الشأن فى المدينة وفى أسوارها وطوابيها ، أم الأسطول الانجليزى الدخيل فى المياه المصرية والملتمس الوسائل التى تحقق له رغبته فى الغدر ، ومع ذلك فان القائد المصرى كان حكيما وكريما حين سد الثغرة وحسم النزاع بقبول إنزال المدافع ليكون ذلك حجة على انجلترا التى لم يمنعها ذلك من أن تنفذ عدوانها دون أن تستند إلى أى دليل أو اتهام .

بدأ الأسطول المعتدى يصلى الاسكندرية ناراً حامية من الصباح الباكر يوم ١١ ولكن القائد المصرى لم يكن باغيا فأمر بألا يرد على الأسطول الانجليزى إلا بعد القذيفة العاشرة ليكون ذلك حجة أخرى له .

ويقول الرافعي بك : (وكانت البوارج أثناء الضرب تتحرك في سيرها يحجبها عن الأعين دخان كثيف فلا يستطيع الرماة المصريون إحكام المرمى واصابة الهدف فيها . وكل بارجة تحيط بها شبكة من الفولاذ إذا أصابتها قنبلة من قنابل الحصون صدت قوتها .

وكان الأسطول يتجمع دفعة واحدة حول الطابية فيلج عليها بقنابله حتى يبيدها ثم يحصد أرواح الجنود بالمترليوزات ثم ينتقل إلى الحصن الآخر فيفعل به كما فعل بالأول .

وقد أبلى الرماة خلف مدافعهم بلاء نادرا ، فقد وقفوا في شهامة وقوة وإيمان لا يبالون القنابل يدافعون إلى آخر مافي أيديهم من عتاد للدفاع وكانوا يؤدون واجبهم في العراء دون أن يخشوا الموت الذى يهددهم في كل لحظة ولم يكن معهم ويا للأسف دروع ولا متاريس وكان الرجال والنساء ينقلون الذخائر تحت نيران المدافع ويقدمونها إلى بقايا الطوبجية الذين كانوا يطلقونها وقد تطوع عدد كبير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في حمل الماء ونقل القتلى وتضميد الجرحى .

وظل الضرب طيلة اليوم واستؤنف يوم ١٢ فانهارت المنازل واشتعلت الحرائق في المدينة كلها وقتل من المصريين ألفان ومن الانجليز خمسة أفراد وفي صباح ١٣ تأكد (سيمور) من انسحاب الجيش المصرى فنزل إلى المدينة واحتل شبه جزيرة رأس التين بجنوده البحارة !

١٤ سبتمبر ١٨٨٢

بعد ضرب الاسكندرية انسحب الجيش المصرى إلى كفر الدوار ، وقد طلب الخديوى إلى عرابى إيقاف الاستعدادات الحربية في كفر الدوار فلم يقبل فعزله الخديوى ولكن الجمعية العمومية أقرت بقاءه في منصبه وانضمت إلى جانبه .

كانت انجلترا ترمى إلى مهاجمة مصر من ناحية الاسماعيلية واعتبارها (قاعدة الزحف) إلى طريق الزقازيق فالقاهرة . وفي ذلك مافيه من وضع اليد على قناة السويس واحتلالها والاستيلاء على ترعة الاسماعيلية . وقد كتمت انجلترا هذه الخطة وحاولت أن تظهر في ميدان كفر الدوار حتى لايتطرق إلى تفكير العرابيين مهاجمتهم من الشرق .

وقد وضع محمود باشا فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى خطة حربية لتحصين خمسة مواقع يمكن أن تهاجم انجلترا مصر منها .

كفر الدوار ، رشيد ، بين رشيد وبحيرة البرلس ، دمياط ، الصالحية والتل الكبير وكان الرأى يتجه في أول الأمر إلى سد الترعة العذبة وردم القناة نفسها ، ولكن عرابى لم يقبل فكرة ردم القناة واطمأن إلى وعود (دسلبس) بحيدة القناة واحترام انجلترا لهذه الحيدة في الوقت الذى هاجم الانجليز فيه القناة واتخذوها قاعدة حربية لهم .

وكانت الخطوة الثانية لانجلترا بعد احتلال اسكندرية هى احتلال قناة السويس وقد احتل (سيمور) فى ٢٢ - ٧ ١٨٨٢ بور سعيد والاسماعيلية بحجة أن هناك ترميمات تجرى فى طابية على بحيرة المنزلة

وفى ٢-٨-١٨٨٢ احتل الانجليز السويس فى الوقت الذى لم تكن هناك أى تحصينات ولم يجد الانجليز فى طريقهما أى مقاومة لانصراف عرابى إلى تحصين كفر الدوار .

وبعد أن اطمأن الانجليز إلى تمكنهم من الشرق هاجموا عرابى فى كفر الدوار فى ٥-٨-١٨٨٢ تغطية للهجوم الشرقى وإيهاما بأن الانجليز يلقون بكل قواهم فى هذا الميدان .

وفى ٧-٨ وجه الخديوى منشور أعلن فيه عصيان عرابى وهنأ الانجليز بانتصارهم عليه واستمرت المعارك والمناوشات حول كفر الدوار .

وأصدر (ولسلى) منشوراً هذا نصه : (يعلن الجنرال ولسلى قائد الجيوش الانجليزية أن مقاصد الدولة البريطانية فى ارسالها تجريدة عسكرية ليست إلا لتأييد سلطة الخديوى وعساكرنا يحاربون فقط حاملى السلاح ضد سموه)

بدأ الانجليز الزحف إلى القاهرة من ناحية قناة السويس .

وقد وصل الانجليز إلى القناة وعسكروا فيها لأنهم لم يجدوا أى مقاومة أو تحصين

وقد فوت (دسلبس) على عرابى فرصة تحصين القناة وغدر به بتلغرافه المضلل الذى يقول فيه . (ان الانجليز يستحيل أن يدخلوا القناة) فلما وصلت البواخر الانجليزية أرسل إلى عرابى تلغرافا آخر : « لا تعمل عملا لسد قناتى ، فإنى هنا ولا تخش شيئاً من هذه الناحية إذ لاينزل جندى انجليزى واحد إلا وبصحبته جندى فرنسى وأنا المسئول عن كل ذلك

وعند ما فكر عرابى فعلا فى سد القناة كان الانجليز قد سيطروا عليها ، فأصبحت فى قبضتهم وبذلك عرف عرابى أخيرا أن الانجليز لايبقون على المعاهدات الدولية وأنهم يهزأون بها ويعتبرونها قصاصات ورق لاقيمة لها حين يحاولون الغدر بفريسة من فرائسهم عرف ومكن بعد فوات الفرصة . .

وكذلك كان الانجليز دائما على استعداد لخرق حرمة كل حياد وكل صك وكل وعد مهما بلغ قدره فى سبيل الوصول إلى غرضهم الاستعمارى المبيت .

وهكذا اقتحم الانجليز القناة واستطاعوا أن يظفروا بتحقيق رغبتهم فى هزم الجيش ودخول القاهرة واحتلالها .

ويأخذ المؤرخون هذا الخطأ على عرابى ويعتبرونه مسئولا عنه إلى حد كبير

والواقع أن عرابى حصن الاسكندرية وكفر الدوار تحصينا منيعا بحيث ارتد الانجليز عنهما مهزومين ولكنه أهمل فى نفس الوقت الجانب الشرقى وخدع عن القناة وبذلك استطاع الانجليز النفاذ منه بسهولة ودون مقاومة وتحمل عرابى تبعة معارضته لفكرة تحصين القناة أو ردمها ومقاومة الخطط الحربية التى كانت تعتبر هذا شرطا أساسيا لضمان المقاومة الكاملة وبذلك مهد للانجليز (الانتصار من أسهل طريق عرف فى تاريخ المعارك)

واستعان الانجليز على الوصول إلى غرضهم الآثم بكل وسيلة آثمة،فاستعملوا الرشوةوالخداعوالتضليل . واستعانو كذلك برجال ويا الأسف مصريين أمثال محمد سلطان باشا الذى انتدب رسميا من قبل الخديو لمرافقة الجنرال ولسلى فى زحفه إلى القاهرة .

والذى اتصل بالعربان وقدم المساعدات والرشاوى إلى بدو غربى القناة ، وكان برافق الجيش وأرشد الانجليز الزاحفين إلى الطريق السهل القريب ، ودلهم على الأماكن التى تخفى على الدخيل ولا يعرفها إلا كل خبيرا

وكذلك ساعد الجيش الانجليزى فى زحفه كثير من الضباط المصريين الذين أرسلهم الخديو لمعاونة الانجليز وإرشادهم وقد ثبت ذلك رسميا فى برقية من (ادوارمالت) إلى (جرنفيل) والتى يسجل فيها أن ولسلى اتفق مع الخديو على إرسال بعض الضباط لمرافقة الجيش الزاحف ، هذا فضلا عن ترخيص الخديو للانجليز باحتلال القناة الذى جاء فيه « إن اميرال الأسطول الانجليزى وقائد الجيوش البريطانية العام إنما أتيا إلى مصر لاعادة الأمن والنظام بها ، ومن ثم فقد سمحنا لهم باحتلال جميع الأماكن التى يريان فى احتلالها مايساعد على قمع العصيان وبلغوا هذا الأمر إلى كافة سكان منطقة قناة السويس وموظفى وعمال القناة »

احتل الانجليز بورسعيد والاسماعيلية فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢

وفى هذا اليوم نفسه اقتحمت السفن القناة ، واحتلتها ، مع المدينتين دون مقاومة لأنه لم يكن هناك استعداد معد لمواجهة هذهالقوات

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل إن الانجليز منعوا مرور البواخر التجارية فى القناةووضعوا بارجة حربية لتنفيذ هذا المنع لو احتاج الأمر إلى أن تمت لهم السيطرة عليها . ثم هجموا على معسكر العرابيين فى (نفيشه) فى ٢١ فاحتلتها القوات وذلك بعد أن جعلت من الاسماعيلية والسويس قواعد حربية

وكان ذلك تأهبا لاختراق طريق التل الكبير فالزقازيق إلى القاهرة

فى التل الكبير ، كان جيش عرابى ١٢ ألف جندى ، والباقى من المجندين الأحداث أما ولسلى فقد زحف فى ١١ ألف مشاة ، والفين فرسان ، و ٦٠ مدفع وبدأ الزحف من القصاصين إلى التل الكبير ليلا فى منتصف الثانية وأطفئت فى الطريق كل الأنوار ولم ينته العرابيون للزحف وقد قطع الجيش المسافة البالغة خمسة عشر كيلو متر دون أن تصادفه أى طلائع من المصرين ووصلوا إلى معسكر العرابين قرب الفجر

وبوغت الجيش المصرى بالهجوم ، وهو نائم فاستيقظ رجاله على صوت الطلقات النارية فلم يكد يضرب نفير الحذر حتى كان الجنرال ورجاله يهاجمون المعسكر فى عنف ووحشية فأحاطوا بالمعسكر فى شكل نصف دائرة واقتحم الانجليز الاستحكامات الأمامية وأطلق رماتها القنابل عليهم فقتل نحو مائتين قبل أن يصلوا إلى الخنادق وضغط الانجليز على الجنود المفاجئين بالهجوم فوصلوا إلى خط الاستحكام الثانى وهجم فرسان الجيش على ميسرة العرابيين فأحدقوا بها ، وأخذ المصريون على غرة فى الميمنة والميسرة ولم يزد عدد الذين اشتركوا فى المعركة عن ثلاثة آلاف أما الباقون فقد ألقوا أسلحتهم وفروا ولم تدم المعركة أكثر من عشرين دقيقة بلغت خسائر الانجليز فيها ٥٨ قتيلا والمصريين ألفى قتيل

وهكذا يظهر فى وضوح وجلاء أن هذه مؤامرة أكثر منها معركة،وأن الغلب فيها لم يكن ناتجاعن مواجهة حربية صحيحة ، وإنما كان غدرا وغيلة ، وكانت هـــذه حلقة أخرى من حلقات المباغتة التى لايمكن لمؤرخ منصف أن يعتبر هزيمة المصريين فيها هزيمة صحيحة ومعركة فاصلة بين استقلال وطن واحتلاله تتم فى عشرين دقيقة فهى أعجب المعارك التى لايصدقها العقل ولا يقرها .

وقد كان للرشوة ، وللخيانة ، وللدسائس ، وللمؤامرات التى حبكت حول عرابى أبعد الأثر فى هذه الهزيمة التى ظلم فيها الطرف المصرى ظلما لاحد له ، وإن الذين عرفوا مواقف الجيش المصرى المشرفة فى معارك رشيد والحماد وأبو مندور سنة ١٨٠٧ ومعارك الوره ١٨٢٥ ومعارك عكا ١٨٣٢ ومعارك قويته ويضير ١٨٣٩ ليشهدوا ببسالة الجيش المصرى وقوته وعزيمته

أما معركة التل الكبير . فليست معركة بمعناها الصحيح

احتل الانجليز الزقازيق ثم بلبيس وزحفوا على القاهرة ولم يجدوا مقاومة ماوأرسل عرابى أمره بالتسليم فى الساعة السادسة مساء بعد وصول الانجليز إلى العباسية ولم يعمل بمشورة من استشارهم فى المقاومة بالقاهرة بالرغم من الفرصة المتاحة له وإنما غلبه التفكير فى مصيره الخاص

وركب إلى ثكنات العباسية فلما وصلها ردائه العسكرى وسلم سيفه واعتقل وبذلك اطمأن الانجليز إلى أن كل مقاومة قد انتهت فأرسلوا كتيبة من الفرسان ليلا إلى القلعة فاحتلوها بعد أن أرشدهم (يوسف حنفى) إليها وقد وصلوها عن طريق الجبل ثم احتل الانجليز بعد ذلك قصر النيل وقشلاق عابدين وأخذت تفد كتائب الجيش الانجليزى إلى العاصمة وتحتل هذه الأماكن

وبهذا تمت هذه المأساة . . .

تمت بالغدر والخيانة والظلم والرشوة . ولم تتم مطلقا بالعراك ولا بالنزال ولا بالحق ولا بالبطولة الحربية وأى حق شرعى لانجلترا فى احتلال مصر ، وأى وجه عرفى لها فى أن تخلق هذه الوسائل المضللة العجيبة لتصل إلى بغية استعمارية طالما ملأت نفسها فى أن تحتل مصر

هذا الاحتلال الذى ادعت أولا أنه لتثبيت سلطة الخديو ثم تحللت من تبعة الوفاء بعهودها فى الجلاء ، هذا الاحتلال الذى تعللت له بمذبحة صنعتها بيدها ، ومدفع نصب أو طابية رممت ، هذا الاحتلال الذى خرقت لأجله حياد القناة وكرامة الوطن .

من الاحتلال الى الثورة

(١٤ سبتمبر ١٨٨٢ — ١٥ مارس ١٩١٩)

من المفارقات العجيبة أن يهزم المصريون الانجليز فى (حملة فريزر) فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٧ وأن يهزم الانجليز المصريين (حملة عرابى) فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢

فى سنة ١٨٠٧ هزم الشعب (فريزر) وفى ١٨٨٢ انتصر (سيمور)

فى سنة ١٨٠٧ هزم الشعب سيمور فريزر لأنه واجه المصريين مواجهة الحرب والنزال ، ولكن انجلترا التى عرفت مدى مافى مصر من قوة المقاومة عمدت إلى التـآمر والغدر ، وعملت لذلك منذ تاريخ هزيمة فريزر حتى تمكنت من تنفيذ مؤامرتها سنة ١٨٠٧ أى بعد خمسة وسبعين عاما كاملة .

واتخذت من تشجيع مصر على الاستدانة وشراء أسهم قناة السويس وتأليب الدائنين وإحداث الاضطراب المالى وصناعة مذبحة الاسكندرية وسائل للوصول إلى هذا الغرض الآثم

* * *

ومن ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ت إلى ١٥ مارس ١٩١٩ صحيفة أخرى بدأت بالاستسلام للاحتلال ، ولكنه استسلام لم يطل أمره ولم يشمل كل الطبقات والشعب ، وإنما كان أول أمره ترقبا وتحفزا ثم تكشف عن مقاومة سلبيه عرفها الناس فى استماعهم إلى صوت مصطفى كامل ثم فى مقاومة علانية صريحة أبرزها موقف شريف باشا فى فصل السودان وموقف الشعب من مد أجل قناة السويس ومن يوم دنشواى المشئوم

حتى جاء يوم الدماء(١) ، فقدم الشعب دمه وثار ثورته فهز الدنيا وأثبت أن فى مصر (كيانا) قويا دفاقا بالحرص على العزة والكرامة والرجولة

دستور الاحتلال

كذبت الوقائع ادعاء الانجليز بأن الاحتلال مؤقت بانتداب (دوفرين) سفيرها لدى الباب العالى إلى مصر فى وقت لم يتجاوز ستة أسابيع من احتلالها لمصر لوضع نظام جديد للحكم فى مصر ، يثبت لها قواعد السيطرة ويركز أعلام البقاء

وقد حضر محاكمة العرابيين ووجهها الوجهة التى أرادها الانجليز وقد كان له من قبل (فضل) الاشتراك فى تدبير الدسائس لهزيمة العرابيين وحبك اطراف هذه المؤامرة

درس دوفرين خلال إقامته بمصر الوسائل التى تؤدى إلى تثبيت أقدام الاحتلال ووضع بها تقريراً عرف فيما بعد أنه دستور الاحتلال الذى سار عليه عمداء الاستعمار فى مصر إلى سنة ١٩١٩ حين حضر ملنر بعد الثورة فوضع الدستور الجديد على ضوء أحداث الثورة

---

(١) يجىء ذلك فى مكانة فى مبحث (الحركة الاستقلالية الوطنية فى وادى النيل)

وقد رمت انجلترا من هذا التقرير إلى وضع سياسية ثابتة ، ليظل احتلالها لمصر قائما ، وأن ينظم هذا الاحتلال بحيث يشمل جميع مرافق الحياة وأن يظل محجبا مقنعا حتى لا يثير الدول ولا يدعو إلى فتح باب المسألة المصـ ية مرة أخرى ، خاصة وأن فرنسا وتركيا كانتا مهتمتان ببقاء انجلترا فى مصر تعمل ، كل منهما فى ميدانها ، على محاولة إحراجها

وقد أشار (دوفرين) فى تقريره إلى النقاط الآتية

١ ـ الاحتلال : على انجلترا ألا تتولى حكم مصر المباشر وإدارتها لأنها إن فعلت ذلك تثير سخط المصريين وكراهيتهم مما يضطرها إلى الجلاء عن البلاد أو ضمها إلى أملاكها وهو مالا ننصح به . ويرى الاكتفاء بنصيب أقل من السيطرة على البلاد وإعداد المصريين لأن يحكموا أنفسهم فى ظل الصداقة البريطانية .

(وقد تحقق هذا بإنشاء مدرسة حزب الأمة وتكوين الحزبية السياسية التى اعترفت بمبدأ التفاهم والمفاوضة والمساومة بعد ثورة ١٩١٩)

٢ ـ الجيش : ليست مصر فى حاجة إلى جيش كبير للدفاع عنها ، لأنها محدودة بالصحارى من كل جهة ، ويكفى أن يكون لها جيش من ستة آلاف جندى للمحافظة على الامن داخل البلاد على أن يكون تحت أمرة قائد انجليزى له معاونون من الضباط الانجليز ويكون البوليس كذلك تحت أمرة مفتش عام من الانجليز .

٣ـ النظام النيابى : إن مصر ليست كفؤاً لأن يكون لها مجلس نيابى وحكومة ديمقراطية ، وعاب على مجلس النواب سنة ١٨٨١ إنه لم يك يمثل الأهلين تمثيلا صحيحاً لأنه تألف من كبار الملاك والأعيان ، واقترح نظاما جـــديداً هو مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ومجالس المديريات .

٤ ـ القضـــاء : طالب بإعداد القوانين الحديثة فى مصر بإدخال النظام الأورب فى المحاكم الأهلية واقترح اسناد وظيفة النائب العمومى إلى انجليزى بدلا من المصرى الذى يتولاها .

٥ ـ الرى والأشغال : طلب من الحكومة المصرية أن تستدعى مهندسا ممن مارسوا نظام الرى فى الهند لتنظيم شؤون الرى والأشغال فى مصر وفق النظام الانجليزى المتبع فى الهند .

وتكلم عن التعليم والنظام المالى والمساحة والفلاحين وأشار إلى المصاعب المالية التى تقاسيها مصر والتى لايمكن لها مواجهتها دون إرشاد الانجليز وتوجيهم وعلق الجلاء على صلاح الأمور وقد تنفذت أغلب هذه الرغبات وهو مقيم فى مصر ، وقد أشار أيضا باستبدال حكم الاعدام لعرابى بالنفى وأبطل الدستور وألغى مجلس النواب وشكل مجلس شورى القوانين وعين موظفا انجليزيا لكل من وظيفة النائب العمومى ومفتش الرى ومستشار المعارف .

وبعد أن انتهت مهمته ، عين كرومر فى ٣٠-٤-١٨٨٣ قنصلا عاما لانجلترا فى مصر ، كان صاحب السلطان الفعلى إلى ١٩٠٧ أى مدى ربع قرن كامل.

النصـــــائح

أخذت (إنجلترا) بعد ذلك تفرض إرادتها على الحكومات القائمة وتتدخل تدخلا فعليا فى تصرفاتها وتسيطر عليها وتسمى هذه الأوامر الإلزامية التى تمليها « نصائح » .

وقد ظهر هذا المعنى فى أوضح صورة ، عند ما أصرت انجلترا على أن تسحب مصر حاميتها من السودان سنة ١٨٨٤ وتوقف شريف باشا عن الاستجابة لتلك الرغبة الالزامية وأرسل (جرانفيل) تلغرافه الثانى الذى أكد فيه هذا المعنى .

ولقد استقال شريف باشا محتجا لهذا التدخل ولكن الانجليز وجدوا بعد ذلك من يقبل الحكم فى ظلال هذه السيطرة ، ومن يستسلم ويسمع هذه النصائح دون خجل أو حياء ، هؤلاء هم الذين استغلهم الاستعمار الانجليزى وأيد بهم مركزه غير الشرعى وفرض سلطانه على الشعب .

وهذا نص تلغراف (جرانفيل) فى ٣-١-١٨٨٣

« انه وإن كانت القوات البريطانية باقية فى مصر إلى الآن لصيانة النظام العام فإن حكومة جلالة الملك تنوى سحبها عند ما تسمح بذلك حالة البلاد ، وتستطيع بوسائلها تثبيت سلطة الخديوى ، وإلى أن يحين ذلك فإن مركز حكومة جلالة الملك بإزاء سموه يقتضى عليها بذل نصائح لتتأكد من أن النظام الذى سيوجد يكون مرضياً ويحتوى على عوامل الاستقرار والتقدم .

وهذا هو نص تلغراف (جرانفيل) فى ٤-٤-١٨٨٤ على أثر حادث شريف باشا وامتناعه عن التسليم بإجلاء الجيش المصرى عن السودان .

« ذكرتم أنه فى حالة اصرار حكومة صاحبة الجلالة الملكة على طلب اجلاء السودان لا تقبل حكومة الخديوى حسب رأيكم فى تنفيذ هذه السياسة ، ولا أرى حاجة إلى أن أوضح لكم انه من الواجب مادام الاحتلال البريطانى المؤقت قائم فى مصر ، أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى إسداءها فى المسائل الهامة التى تستهدف لها إرادة مصر وسلامتها للخطر ، ويجب على الوزراء والمديريين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية نضطرها إلى أن تصر على إتباع السياسة التى تراها ، ومن الضرورى أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لايسير وفقا لهذه السياسة . وأن حكومة جلالة الملكة لواثقة من أنه إذا اقتضى الحال إستبدال أحد الوزراء فهناك من المصريين من شغلوا منصب الوزارة أو شغلوا مناصب أقل درجة وهم على استعداد لتنفيذ الأوامر التى قد يصدرها اليهم الخديوى بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة .

كرومر

كان كرومر قبل تنصيبه لمركزه البريطانى فى مصر ، يشغل وظيفة ممثل إنجلترا فى المراقبة الثنائية ، وقد كان له أكبر الأثر فى تحريض الدائنين ، وإحداث موجة عاصفة من الاضطراب التى هيأت للاحتلال الفعلى

وقد بدأ عهده الأسود المظلم بمطالبه بدفع تعويضات للأجانب عن الخسائر التى لحقتهم فشكلت لجنة مختلطة

لنظر التعويضات وقد انهالت عليها التعويضات ومعظمها مزورة وملفقة لا دليل على حـــدوثها وقد بلغت ٤٫٢٥٠٫٠٠٠ جنيه

وألغى المراقبة الثنائية وعين مستشارا ماليا إنجليزيا سنة ١٨٨٣

وأنشأ مجلس شورى القوانين ، ولم يكن له أمر قاطع يفرض تنفيذه فى أى أمر وإنما كان شوريا (أو صوريا) محضا

وألغى الجيش الوطنى وأنشأ جيشا برئاسة سردار إنجليزى وتحت قيادة ضباط إنجليز كما عين «ومندانا إنجليزيا للجيش

وأخذت خزينة مصر تدفع نفقات جيش الاحتلال ورواتب الموظفين الانجليز وتنفق على حملة إخلاء السودان وقد بلغ ذلك حوالى أربعة ملايين جنيه

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل أرغم مصر على إخلاء السودان ، وإعادة الحامية المصرية فيه ثم أرغمها بعد ذلك على الاشتراك مع الانجليز فى حملة جديدة إلى هناك باسم « الإعادة » رفع على أثرها العلمين المصرى والإنجليزى

وانتهى ذلك بعقد اتفاقية ١٨٩٩ الباطلة التى وقعت سراً ، وفرضت عنوة واقتدارا

مفاوضات الجلاء	١٨٨٥	حادث فاشودة	١٨٩٨	مد امتياز القناة	١٩٠٧
أزمة الحدود	١٨٩٤	اتفاق السودان	١٨٩٩		
وزارة مصطفى فهمى	١٨٩٥	الاتفاق الودى	١٩٠٤		
		دنشواى	١٩٠٦		

مفاوضات الجلاء

جرت بين تركيا وإنجلترا مفاوضات بشأن الجلاء عن مصر ، قبلت إنجلترا الدخول فيها مداوة لموقفها وإظهارها لحسن النية المكذوب وقد استمرت هذه المفاوضات من سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٨٧ وانتهت بالفشل فقد تعنتت إنجلترا تعنتا عجيبا

وإن كنا نسجلها هنا ، فانما يكون ذلك ، لتقرير حقيقة واقعة هى أن مسألة « الجلاء » كانت مبدأ مقرراً قبل ثورة ١٩١٩ وقبل العهد الأغبر الذى بدأه زعماء مابعد الثورة بالمساومة فى الحرية ، وامتناعهم من عرض هذا المبدأ أو دراسته أو التمسك به

وهذه نصوص موجزة من اتفاقية الاستانة فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٧

١ — تحديد موعد الجلاء بثلاث سنوات للقاهرة وخمسة سنوات لسائر القطر (حددت المعاهدة لعام ١٨٩٠)

٢ — إذا تبين أن هناك احتمال خطر داخلى أو خارجى يؤجل موعد الجلاء إلى أن يزول الخطر

٣ — يبقى لإنجلترا بعد الجلاء رقابة عامة على الجيش تنتهى بعد سنتين من تمام الجلاء

٤ — يكون لتركيا وإنجلترا حق إرسال جنود إلى مصر فى حالة اضطراب الأمن والنظام على أنه فى حالة وجود مانع لدى تركيا يحول دون إرسال قواتها إلى مصر فإنها توفد مندوبا يبقى بمصر طول مدة احتلال الجيش البريطانى

وهكذا تظهر نية انجلترا فى الاصرار على البقاء أو العودة باسم أى حدث من الأحداث التى يمكن أن تتآمر على إحداثها ، والواقع أن إنجلترا كانت ترغب من هذه المفاوضات فى الحصول على وثقة تجعل احتلالها شرعيا

ومع هذا فإن هذه المفاوضات حجة قاطعة لا شك فى ثبوتها على أن مبدأ الجلاء حق مقرر

والواقع أن انفلات هذه الفرصة كان خاتمة لوعود انجلترا عن الجلاء إذ أنها استطاعت بعدذلك أن تتخذ من حوادث البقاء كما أنها عمدت إلى تسوية أمورها مع فرنسا بعد سبع سنوات حين عقدت (الاتفاق الودى فى ٨ إبريل سنة ١٩٠٤) فضمنت البقاء والاستقرار فى مصر

ازمة الحدود

تآمر أجناد إنجلترا فى مصر على الخديوى لعنايته بالجيش فانتهزو فرصة حادث الحدود فجعلوا منه مسألة وخلقو به أزمة وأثاروا به فتنة

عندما عرض الخديوى فرقة من الجيش فى ١٨ - ١ - ١٨٩٤ ،كانت الفرقة بقيادة ضابط بريطانى وقد لاحظ الخديوى بعض النقص فى النظام والتدريب فلفت نظر وكيل الحرس إلى ذلك وهو مصرى فانتهز (كتشنر) الفرصة واعتبرها إهانة لانجلترا ، وازداد تعنتا بعد أن اتصل بكرومر فقدم استقالته احتجاجا ، واعتبرت إنجلترا هذا الحدث أزمة فعلية وحملت ظروفة وأوضاعه أكثر مما تحتمل كما هى عادة إنجلترا فى غدرها وتآمرها وزادت إنجلترا فى التعنت فأشارت بضرورة اعتذار الخديوى عن ملاحظاته بشكر السردار والضباط الانجليز على أن يكون ذلك قبل عودته من الرحله وهددت الصحف الانجليزية بلغتها الاستعمارية الظالمة ، واضطر الخديوى تحت ضغط الموقف وضعف الحكومة (حكومة رياض) أن يوجه إلى السردار خطابا من الفيوم وهو فى طريق عودته فى ٢٦ - ٨ - ١٨٩٤ هذا نصه

قبل أن أترك الوجه القبلى للعودة إلى مصر أريد أن أكرر أن ما أظهرته من حسن العناية للجيش عند زيارتى للحدود وأؤيد حسن رضائى الذى أبديته لكم من جهة حسن حالة الجيش ونظامه وإنى لمسرور من أن أهنىء الضباط الذين يرأسونه مصريين كانو أو إنجليز وإنى لمرتاح أيضا لأن أقدر الخدمات التى أداها الضباط الانجليز لجيشنا حق قدرها وأملنا أيها السردار أن تعلنوا أمرنا هذا للضباط والعساكر

وهكذا فرض الانجليز سلطانهم فى مثل هذا التعنت الصارخ فى الوقت الذى كانوا يفاوضون فيه فى الجلاء ويصرحون فى مجلس العموم بأن احتلالهم مؤقت وأن فى نيتهم الجلاء عن مصر

الجنوب

زاد تفاقم الثورة فى السودان ، وكانت إنجلترا تدبر مناورتها الهائلة وتعدعدتها لذلك الانفصال الذى صوره « غلادستون » ١٨٣٨ حيث يقول

« إذا توطدت أقدامنا فى مصر تكون هذه المستعمرة بمثابة ذريعة لتأسيس إمبراطورية شاسعة فى إفريقيا تأخذ فى النمو تدريجيا إلى أن تدخل فى تخومها منابع النيل الأبيض »

وهكذا طلبت إنجلترا إلى مصر أولا سحب عبد القادر حلمى باشا حكمدار السودان سنة ١٨٨٣ وقد كان

قائداً محنكا له دربة وخبرة بأحوال السودان وتعيين « هكس » بدلا منه مما كان له أبعد الأثر فى هزيمة الجيش المصرى أمام جموع المهدى التى أهاجها أن يقود الجيش المصرى رجل إنجليزى ...

فانهزمت الحملة المصرية فى موقعة (كيشان) هزيمة منكرة نصحت إنجلترا مصر على أثرها بإخلاء السودان بحجة عدم قدرتها على الاحتفاظ به وعجزها عن حمايته

وقد رفض شريف باشا هذا الطلب وتمسك بارتباط مصر والسودان وقال عبارته الخالدة إن تركنا السودان فإن السودان لا يتركنا وقدم استقالته المسببة فى يناير سنة ١٨٨٤

وجاء نوبار بعده وقبل مارفضه شريف وأخلى السودان وكان لهذا القرار أبعد الأثر فى كيان مصر

وزارات الاحتلال

شكلت وزارات الاحتلال من صنائع انجلترا فى مصر التى سلمت لها بكل ما تطلب

نوبار	١٨٧٤ — ١٨٧٧
رياض	١٨٨٨ — ١٨٩٠
مصطفى فهمى	١٨٩١ - ١٨٩٣
مصطفى فهمى	١٨٩٥ - ١٩٠٨

ووجد الاستعمار إلى جوار ذلك اذنابا يخلصون له ويسيرون فى ركبه ويهدمون بناء أمتهم فى سبيل مرضاته امثال فتحى زغلول وبطرس غالى ومحمد سعيد وغيرهم ممن اشتركوا فى العدوان على الحركه الوطنية ، فى دنشواى ، وفى اتفاقية السودان ، وفى المواقف الكثيرة المختلفة

مطصفى فهمى

يكفى لمعرفة تاريخه شيئان : أولهما أنه قضى فى الحكم ثلاثة عشر عاما متوالية

الثانية هذا الثناء المستطاب من كرومر عنه فى حفل توديعه « امتاز مصطفى فهمى بتمام الاخلاص والحرية والاستقامة فى كل عمل من أعمال حياته ، وخدم أهل بلاده اجل الخدم ولكن بطريقته المعروفة من السكينة والهدوء والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لا يعنيه »

وقد امتدح كرومر فى حفل وداعه فقال «تضحيتكم التى ضحيتموها باحتمال المشاق فى سبيل القيام بما فرضه عليكم حبكم لهذه البلاد ولم تنس مصر أن حسن الحال الذى وصلت اليه والذى استوجب الاعجاب العام هو نتيجة ارشاداتكم السديدة ومؤازرتكم الأكيدة

ولا غرو أن اغتنمنا الفرصة لنعرب لكم عن تعلقنا بكم واننا لا نزال نعتبركم كواحد منا »

* * *

أقال الخديو وزارة مصطفى فهمى فى يناير ١٨٩٣ دون استشارة كرومر وقد قوبل ذلك بالفرح من المصريين عامة وكان مصطفى مكروها من الأمة أشد الكراهية لخضوعه المطلق للاحتلال وتسليم (المخلص) للانجليز

وقد عارضت انجلترا فى تعيين الوزارة الجديدة (وزارة فخرى باشا) وطالبت بحقها فى الرقابة على اختيار

الوزراء المصريين طبقا لتلغراف جرانفيل فى ٤ - ١ - ١٨٨٤ وبأنه فى حالة الامتناع عن العمل بالنصائح تحمل اخطر العواقب

وقد كشف هذا الموقف من انجلترا ما ادعته من قبل أنها إنما جاءت لحماية عرش الخديو فاذا بها تعارض الخديو نفسه فيما ترى من تصرفات فى حقه المشروع باختيار وزرائه ولم يعدما تسوغ به انجلترا دعواها بالمحافظة على حقوق الخديو بل بالعكس لقد أباحت لنفسها حق نقض هذه الحقوق ، وبدا فى هذا معنى التحدى الفعلى على مصر وحريتها ولم يكن قد مضى عن الاحتلال عامين وقد حملت الصحف الانجليزية حملات عنيفة على إقالة مصطفى فهمى واعتبرت هذا اهانة لممثل انجلترا فى مصر مما كان له أبعد الأثر فى دعودته إلى الحكم فى نوفمبر سنة ١٨٩٥ فبقى فيه إلى نوفمبر ١٩٠٨

آثار الاحتلال

وهذه بعض آثار الاحتلال وقد تم اظهارها فى عهد مصطفى فهمى .

(١) انشأ البنك الأهلى سنة ١٨٩٨ وحمل أسهم اليهود والانجليز امثال (سلفاجوا ، كسل ، سوارس) وبيع البواخر المصرية باحواضها ومستودعاتها ومخازنها وقد قدرت بأكثر من ثلاثة ملايين جنيه باعتها الحكومة المصرية بمبلغ ١٥٠ الف جنيه وبذلك تم القضاء على الاسطول التجارى المصرى

٢) ابتكر كرومر ضريبة جديدة يثقل بها كاهل الاهالى زيادة على الضرائب الفادحة التى كانت تقتطع من اقواتهم هى البدل النقدى للخدمة العسكرية مصدر فى ١٨٨٦ أمراً عاليا بان لحل شخص قابل للتجنيد يعفى منه بدفع مبلغ ٤٠ جنيه قبل الاقتراع و ١٠٠ بعده وقد حصلت الحكومة سنة ١٨٨٦ من هذه الضريبة ١٥٩ الف جنيه وقد كان لها اثرها البالغ فى نفوس الفقراء من الفلاحين وفى سنة ١٨٨٧ فرد بدل السخرة وكان مقداره ٣٠ قرشا فى الوجه البحرى فكان مجموع دخل الحكومة منه ٨٨ الف جنيه ثم ارتفع إلى ١٣٣ الف جنيه سنة ١٨٨٩ .

٣) استفحلت الجرائم واضطردت نسبتها التصاعدية منذ احتلال انجلترا لمصر حتى بلغت سنة ١٩٠٦ ٣٢٠١ جريمة منها ٤٧١ جريمة قتل ، ٣٩٢ جريمة شروع قتل ، ٤٩٣ سرقة باكراه و ٥٢١ جريمة احراق عمد و ١٦٥٧٩ قضية سرقة

٤) ادانة الانجليز الخزينة بملغ ١٫٤٩٤٫٠٠٠ لحملة السودان

٥) اهتم كرومر بافساد التعليم وسلب روح الاسلاميه والوطنيه وبلغ ، دنلوب ، فى ذلك مبلغا سجله له التاريخ ، والزم المصريين بدراسة الانجليزية وارغم الشباب على مناهجها فارتفع عدد طلابها من سنة ١٩٨٩ إلى سنة ١٨٩٨ من ١٠٦٣ تلميذا إلى ٣٨٥٩

ويقول المسيو جان ردذر فى جريدة الطان فى ٣١-٣-١٩١٠

« ان عجز انجلترا عن فرض مدنيتها على مصر يظهر جليا فى اللغه بوجه خاص فبعد أن مضى على الاحتلال ثلاثون سنة لم تنجح انجلترا بالرغم مما فى يدها من الضغط الشديد من تعليم اميرى ودبلومات مدارس عالية ومناصب حكوميه أن تدرس بمصر لغتها وحضارتها

وقد يلحظ الإنسان إلى حد ما أثر الروح المعادية لكل ما هو بريطاني والتي لاتزال تسلك إلى إظهار نفسها سبلا خفية ،

٦) ازداد عدد الموظفين الانجليز من سنه١٨٩٦ إلى ١٩٠٦ من ٩٦٠ موظف إلى ١٢٥٢

وفي سنه ١٨٩٦ بلغ عدد الموظفين الأجانب ٢٨٩

وفي سنة ١٩٠٦ « « « ٦٦٢

٧) زادت انجلترا جيش الاحتلال سنة ١٩٠٤ من ٢٦٠٦ - ٤٧٥٨ وبلغت تكاليفه من ٥٠٠ ر ٧٩ جنيه إلى ٢٧٥ ر ١٤١ جنيه

وخفض الجيش المصرى كالوضع الآتي :

في عهد عرابى : ٥٠٫٦٠٠

نوفمبر ١٨٨٢ : ١٢٫٠٠٠

يونيه ١٨٨٣ : ٦٧٦٣

١٨٩٢ : ٢٠٠

وقد كان الجيش أول ما وضع الانجليز يدهم عليه ، وفي هذا معنى نية الغدر على تثبيت أقدام الاحتلال بتعيين سردار انجليزى ، واختيار طائفة من الضباط الانجليز لقيادة معظم فرق الجيش من مشاة ومدفعية ، وفرسان وأركان حرب

وأقر المبدأ بالاعفاء من البدل النقدى في ٩ يونيه سنة ١٨٨٦ وفي هذا القانون مافيه من خلق وضعية جديدة سيكولوجية تشعر باحتقار الجندية وتعتبر اداءها عجزا عن اداء البدل النقدى لادفاعا عن الوطن

والغيت مدارى الصناعات الحربية كالمشاة والفرسان والمدفعية وغيرها والغيت جميع الترسانات الخاصة بنصب المدافع وصنع الدخائر

وانشئت وزارة نوبار منصب أول مستشار بريطانى للداخلية في ٣ - ١١ - ١٨٩٤ وأسند إلى (الدوق حورسب) الذى اصبح من بعد معتمد بريطانيا

وانشئت المحكمة المخصوصة لمحاكمة من يعتدى على ضباط الجيش الانجليزى في ٢٥ - ١ - ١٨٩٥ وهي المحكمة التي أسند اليها تنفيذ حكم دنشواى

حادث فاشدوه

كان التنافس على مصر بين فرنسا وانجلترا على أشدة منذ الحملة الفرنسية وقد أدى ذلك إلى تصادم رسمى عرف باسم حادث فاشودة وقد عمدت فرنسا إلى اثارة المسألة المصرية من جديد في ١٨٩٦ (مارشان) على فاشودة الواقعة على النيل الأبية واحتلها في ١٠ يوليه ١٨٩٨ فعملت انجلترا على اجلائه باسم حق مصر في أعالى النيل ، وأكدت لفرنسا أن فاشودة أرض مصرية سار كتشنر على رأس جيش مؤلف من ١٨٠٠ جندى مصرى و ١٠٠ بريطانى في سبتمبر سنة ١٨٩٨ واحتج على احتلال فرنسا لهذه الأرض المصرية ، ورفع العلم المصرى عليها

الاتفاق الودى

انتهى الخلاف بين انجلترا وفرنسا إلى عقد الاتفاق الودى فى ٨ ابريل ١٩٠٤ ومما جاء فيه « ووتتعهد الحكومة الفرنسية بأن لاتعرقل عمل انجلترا فى هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل الاحتلال البريطانى ولا بأى صورة أخرى » . وزاد مركز انجلترا فى مصر قوة وجدة .

وقد كان لهذا أبعد الأثر فى تمكن الاحتلال الانجليزى فى مصر وتضاعف آثاره حتى أنه لم يكن يمضى أمر من الأمور مهما بلغت تفاهته دون قبولهم أو إقرارهم وقد أمسكوا بزمام المناصب الرئيسية وعمد كرومر إلى الظهور فى صورة ضخمة من السيطرة والنفوذ والسلطان والتسلط فكان يزور الأقاليم ويخطب فى الناس .

وأخذت انجلترا بعد الاتفاق تتنكر لوعودها الأولى فى الجلاء وأخذ كرومر يحمل على المصريين فى تقاريره فيطعن فى كفايتهم للحكم الذاتى ويقول كرومر فى ثورة سنة ١٩٠٥ (إن وعد بريطانيا بالجلاء عن مصر كان قبل أن يعلم الحالة فى مصر فلما عرفها علم أن الوعد كان فى غير محله وأن تنفيذه يفضى إلى اضرار جسيمة .

ويصرح المسترفيلزر استورات فيقول: (إن مصر تحتاج إلى جيلين من الزمان لتثبيت دعائم الاصلاح الذى تم وإعطائه صفة الدوام ، ولو تركت البلاد وشأنها لانتكست سريعاً وعادت إلى تصرفاتها الماضية السيئة)

وقد سجلت انجلترا رسميا فى الاتفاق الودى أنها (لا تقوى على تغيير الحالة السياسية فى مصر) ويقول كرومر فى مقال له بالتيمس فى ٢٩ أكتوبر ١٩٧ (أما أنا فلا أرى غير طريقة واحدة للقضاء على هذا الهياج والاضطراب الموجود بمصر والهند هو أن نظل مثابرين على القيام بواجبنا وأن نشد الوطأة على المتطرفين إذا ما تعدوا حدود القانون)

وعمد كرومر إلى حيلة عجيبة حتى يثبت بقاء انجلترا فى مصر ، هى أنه كلما ظهر فى الميزانية زيادة فى الايرادات عن المصروفات عمد إلى انفاقها واستهلاكها فى مناقصات لاحاجة لمصر بها .

وإلى سنة ١٩٠٤ كان الاحتياطى ١٣ مليون جنيه ثم وصلت فى السنوات التالية إلى ٢٦ مليون جنيه . وقد أنفق هذا المبلغ الضخم فى إنشاء ثكنات ومساكن بالسودات ومضاربات فى سندات الترنسفال .

وقد كان موقف مصر بالنسبة لتركيا موقفاً دقيقا فى العرف السياسى الدولى وقد ظلت بريطانيا إلى عقد الاتفاق الودى تعمل باسم المحافظة على سلطة الخديو وقمع الثورة ورد البلاد إلى حالة الهدوء ، وتصرح بأن احتلالها مؤقت بل إن غلادستون كتب إلى مصطفى كامل يقول:(إن زمن الجلاء فيما أعلم قد وافى منذ وقت طويل) ولم تكن انجلترا تجرؤ على تمزيق هذه المعاهدات الدولية التى تقرر وضع مصر ولم يكن لها سبيل إلى تجاهلها ، ولكنها بعد أن عقدت الاتفاق الودى ضمنت انهيار جبهة المقاومة فكشفت قناعها ومزقت عناصر الاستقلال وزاد طغيانها زيادة واضحة .

دنشواى

إن الكابتين (بول) الذى مات فى هذا الحادث إنما مات على أثر ضربة شمس بعد هروبه وقطعه بكل سرعة مسافة خمس كيلو مترات وكانت الشمس حارة فسقط ميتا

وقد كان العدوان من الضباط الانجليز وكان رصاصهم سببا فى إحراق أجران الغلال مما أثار الأهالى وأحدث هذا الاشتباك .

وقد أدى ذلك إلى حدوث أفظع مجزرة عرفها التاريخ فى العصر الحديث راح ضحيتها عدد من المظلومين الذين لاذنب لهم ولا جريرة وكان لهذا الحادث أبعد الأثر فى توطيد الفكرة الوطنية فى مصر ، وأعظمه فى تقويض سلطان كرومر .

وقد استغل مصطفى كامل الفرصة فأطلع العالم على مدى هذه الوحشية بتصويره لهذا الحادث فى مقال كان له دوى عظيم فى الأوساط الغربية ومما جاء فيه :

« لم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهما ليقولوا ماعندهم ، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس حيث أن أكثر الضباط الانجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالى وفى ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين بالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما على واحد ، وبهالمدة سبع سنوات على ستة وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة وبالجلد على خمسة وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة زيول نصبت المشانق ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر وأحاطت عساكر « الدراجون » الانجليزية بالمحكوم عليهم والتفت الخيالة المصرية حول الانجليز وتولى مستشار الداخلية ومدير المنوفية أمر التنفيذ وقد تقدم إليهما ابن أول محكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة فرفضتا قبول هذا الرجاء الذى عز مايرجوه الانسان ويحتمه الشرع والعدل .

وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولها وشهرت سيوفها وبدىء بعد ذلك بدقيقة هذا الشنق . فشنق رجل ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم عن بعد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب وجلد إثنان أمام الجثة وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات واستمر ساعة من الزمان منظر وحشى مهيج للعواطف ، بكى منه بعض الحاضرين الأوربيين بدموع الحنان ، وأبدوا النفور الشديد مما رأوا أن يوم ٢٨ يونيه ١٩٠٦ سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا وهو خليق بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية » .

وكانت دنشواى أثرا من آثار الاتفاق الودى ، وإن كان لها أبعد الأثر فى تخليص مصر من طاغية الاستعمار كرومر ، وبدء يقظة الشعور الوطنى الذى اندفع فى قوة وعنف بعد حدوثها وإلا يكون أصحاب الجلاليب الزرق الذين حباهم كرومر بعطفه الصورى من قبل .

مد امتياز قناة السويس

ينتهى امتياز قناة السويس سنه ١٩٦٨ ، وقد عمدت انجلترا إلى محاولة مد هذا الامتياز أربعين سنه فأثارت ذلك سنه ١٩٠٧ على أن تدفع الشركه للحكومة ٤ مليون جنيه على أربعه أقساط سنوية ، وتدفع للحكومة من ٤ إلى ١٢ ٪ من صافى الأرباح سنه ١٩٦٨ و ٥٠ ٪ مما يزيده الايرد الصافى عن مليون جنيه فيما بين سنه ١٩٦٨ — ٢٠٠٨

وقد ثار الرأى العام لهذا أعظم ثورة ، ودافع عن المشروع زعيم من زعماء مصر الذين برزوا بعد الثورة برزوا عظيما ولكن الأمة ممثلة فى شعبها وهيئاتها الرسمية أجمعت على رفض المشروع وقد كانت انجلترا تبغى أن تتخذ به تكأة جديدة لبقائها فى مصر

اتفاقية ١٨٩٩ الباطلة

فى ١٢ - ٣ - ١٨٩٦ وصل أمر انجليزى إلى (كتشنر) بالقيام بحملة على السودان وقد بلغت هذه الرغبة إلى مصر فاشتركت مصر فى الحملة بجنودها واشتركت بريطانيا بالاشراف والسيادة ، وعاد الجيش المصرى إلى السودان وانتهى أمر حكومة الدارويش فى ٢٤ - ١١ - ١٨٩٩

ورفعت انجلترا العلم الانجليزى بجوار العلم المصرى منذ ذلك اليوم وارغمت مصر على توقيع اتفاقية ١٨٩٩ الباطلة التى ليس لانجلترا ولا لمصر فى توقيعها وجه شرعى .

كما أن حادث العودة إلى السودان وتوقيع هذه المعاهدة لم تفعله مصر باختيارها ، وانما اضطرت اليه اضطراراً تحت ضغط الاحتلال واكراهه ، ولم تدر بشأنها أى مفاوضات أو مباحثات وانما فرضت فرضا فى ظروف عصيبة قاهرة واستغل فى توقيعها تلغراف جرانفيل الخاص بالنصائح الالزامية .

وتعتبر اتفاقية سنة ١٨٩٩ غير موجودة قانونا لأن موقعها أمضاها باسمه ولم يمهرها بوصفه وزيراً للخارجية ولأن مصر لم تقررها رسمياً ولم يكن لمصر الحق الشرعى ولا الأهلية الدولية فى عقدها ولأنها تضمنت تنازلا عن حقوق لم تكن تمتلك مصر النزول عنها .

وان ظروف التعاقد قد انتفى منها الرضا والاختيار من جانب مصر انتفاءاً تاماً .

وقد فرضت على مصر الانسحاب الفعلى من حكم السودان والتعويض المطلق فى إدارته لحاكم لم ينص على أنه انجليزى ، وإنما نص على أن انجلترا هى التى تختاره ، كما أن طريقة التطبيق كانت باطلة طيلة هذه المدة فقد استباح الحاكم العام لنفسه التصرف المطلق وعدم الرجوع إلى مصر .

* * *

الحماية السافرة

ومضت بريطانيا فى طريقها الذى رسمته ونفذته دون أن تجد دولة من الدول تقف فى وجهها أو تعترض طريقها ، أما تركيا فقد كانت فى أشد حالات الضعف فلم تكن لديها القدرة على مقاومة انجلترا . وأما فرنسا فقد ظلت تناوش انجلترا وقتا طويلا ، ظن خلاله بعض المصريين أن فرنسا ستكون معهم على انجلترا ، فاذا بانجلترا الماكرة الخادعة تطويها تحت جناحها ، عند مايوقعان الاتفاق الودى ١٩٠٤

هذا الاتفاق العجيب الذى كشف للعالم كله كيف يسير الاستعمار

والذى صرح بعد طول الخفاء والحجاب أن الاستعمار الغربى واحد فى هدفه مهما اختلفت وسائله و أماكنه وأنها هى الخصومة الآثمة للاسلام والمسلمين ، ولهذه الأوطان الكريمة التى شهدت نور النبوات ، وذاقت فيض الرسالات . . .

ولأول مرة فى التاريخ تتفق دولتان على المساومة المكشوفة فى إطلاق اليد والتبادل الحر للوطنين مسلمين أحدهما مصر والثانى الجزائر .

ولقد كان موقف انجلترا دقيقا فى أول الأمر كل الدقة فهى قد دخلت مصر بعلل واهية وأساليب عجيبة وخدع تعللت بها دون أن يكون لها فى الواقع أثر ولا تأثير .

فهى التى حرضت الدائنين على أحداث جو مضطرب فى مصر ، وهى التى وجهت المالية المصرية وجهة جعلتها عاجزة عن أداء الالتزامات ثم هى دبرت مذبحة الاسكندرية ، وتعللت بمسألة الدستور والخلاف بين حاكم ووزير لترسل أسطولها المسلح إلى مصر ثم تضرب به الاسكندرية دون أن يكون لهاحجة قوية تثبت بها وجه الغدر أو الحالةالقاهرة ، إذ لم تكن الحالة القاهرةموجودة فعلا ، أما عن الديون فقد ثبت أن مالية مصر كانت تسمح بسداد عدة ملايين من الدين نفسه فضلا عن فوائده

ومذبحة إسكندرية قد دبرها الأسطول الذى ثبت فعلا إنه حمل معه إلى مصر الأسلحة ووزعها على الأجانب وحرضهم على الشعب كما ثبت أن المجرم الأول هو شقيق خادم القنصل الانجليزى فى الثغر أما احتجاج سيمور على ترميم الحصون فقد رهنت مصر بالخطاب الكريم الذى أرسلت به إلى سيمور عن ضبط النفس البالغ ونزول عن بعض الحقوق رغبة فى اتقاء التصادم ولكن سيمور بالرغم من ذلك ضرب الاسكندرية

ثم احتل الانجليز بعد ذلك البلاد وهزموا عرابى غدراً وغيلة ، وليس حربا ومواجهة ، فقد خدع بحياد القناه وظن أن انجلترا دولة تحترم المواثيق والمعاهدات فمزقت انجلترا حياد القناة وتمكنت من الوصول إلى القاهرة بفعل بعض الأذناب الذين كشفوا للانجليز عن عورات بلادهم طمعا فى نضار الغاصب

وسارت انجلترا على طريقة عجيبة ، هى صورة واضحة من صور الغدر

أخذت انجلترا تعلن على السنة رجالها الرسميين عن رغبتها فى الجلاء السريع عن مصر وظلت تعتذر عن وجودها فى مصر باعادة سلطة الخديو وتنظيم مصر بعد الثورة ودخلت فى مفاوضات الجلاء مع تركيا لأحد أمرين: إما أن تتم المعاهدة فيكون ذلك صكا شرعيا بالاحتلال تعتمد انجلترا على شروطها القاسية الظالمة وإما أن

تفشل فتكون بذلك قد أظهرت حسن النية ودارت موقفها، تفعل انجلترا هذا كله أمام العالم فى الوقت الذى كانت تعزز مركزها فى مصر وتثبت دعائم الاحتلال وتوجه الحياة توجيه الرغبة فى البقاء الطويل والاستعمار المكتسح ، ويظهر ذلك جلياً من بعثة دوفرين وتقريره ، ومن تلغرافات جرانفيل ، من املاء الرغبة على مصر بإخلاء السودان ، ثم استغلال الثورة للبقاء فى مصر بعد أن نبخرت حجة تثبيت سلطان الخديوى وبعد أن عملت انجلترا نفسها على التأثير على هذا السلطان ومقاومته عند ما عزل الخديوى مصطفى فهمى فى وزارته الأولى .

وكان موقف انجلترا دقيقا بالنسبة لتركيا فتركيا هى الوالية الشرعية على مصر وقد ظلت انجلترا تبرر تدخلها بالحجج الواهية حتى أعادت فتح السودان باسم مصر وانجلترا معا لتجعل من ذلك وسيلة للبقاء فى السودان أيضاً .

وأعانها ضعف تركيا « وود » فرنسا على استدناء الظروف التى تمكن لها من السلطان المطلق ، هذا السلطان الذى وضح وتكشف بروحه الصارخة الطاغية بعد عقد الاتفاق الودى وأسفر تماما عند قيام الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وانضمام تركيا إلى خصوم انجلترا .

فقد انتهزت انجلترا الفرصة السانحة وأعلنت الحماية على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ بتبليغ جاء فيه : (يعلن ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر إلى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا فقد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته ، وأصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية ، وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر ، وستتخذ حكومة جلالته التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية مصالحها وأهلها) وهكذا نفذت انجلترا رغبتها على وجهها الصحيح بعد هذا النضال الطويل .

وليس فى حكم أى وضع دولى أو شرعى ما يبرر أن تفعل انجلترا ذلك ، وأن يكون دخول تركيا الحرب مما يسوغ لبريطانيا أن تضع حمايتها على مصر .

والواقع أن هـذه هى الحلقة الكبرى من الاحتلال الانجليزى فى مصر وهو العدوان السافر الذى لم يجد فى طريقه مقاومة ولا معارضة بعد أن جردت مصر أولا بأول وفى مدى ٧٤ سنة منذ عقد معاهدة لندن ١٨٤٠ إلى ١٩١٤ من كل سلطان وجيش وكيان وطنى وقد تنبهت انجلترا إلى مواجهة المسألة الإسلامية التى يثيرها تمزيق انجلترا للعلاقة الروحية بدولة الخلافة فقالت « ولا أرى لزوما أن اؤكد لسموكم — إلى السلطان حسين — بأن تحرير حكومة (إنجلترا) لمصر من أولئك الذين اغتصبوا السلطة السياسية فى الآستانة لم يكن ناتجاً عن أى عداء للخلافة .

فإن تاريخ مصر السابق يدل فى الواقع على أن إخلاص المسلمين المصريين للخلافة الاسلامية لاعلاقة له البتة بالروابط السياسية بين مصر والآستانة

وأن تأييد الهيئات النظامية الاسلامية فى مصر والسير بها فى سبيل التقدم هو بالطبع من الأمور التى تهتم بها حكومة جلالة الملك مزيد الإهتمام »

وهكذا تحاول إنجلترا أن تؤثر على مشاعر المسلمين بأن تفصل العلاقة السياسية بين مصر والاستانة وبين العلاقة الاسلامية بين مصر المسلمة بدولة الخلافة

مصر بذرة اليقظة

وهذا ما يؤكد لنا ما ذهبنا إلى وما نحن بسبيل تأكيده من أن مصر وقد كانت فى ذلك الوقت البذرة الأولى للنشاط واليقظة ولما كانت بموقعها الجغرافى وروحها الاسلامية التى ظهرت فى جلاء ووضوح فى مقاومة عمر مكرم لنابليون وعزله لخورشيد وتعيينه لمحمد على ورده هجمات إنجلترا سنة ١٩٠٧ فى رشيد دون الجيش الرسمى .

هذه الروح الاسلامية التى برزت ولمعت وأثارت الدول الأوربية فى نفارين وفى إدنه وفى نصيبين وفى إقامة محمد على بحد السيف للامبراطورية العربية فى الوقت الذى لم يكن هناك صوت إسلامى واحد مرفوع ، وفى الوقت الذى كانت تقاسى فيه تركيا ختام حياة طويلة مضطربة هذه الروح الإسلامية القوية التى عمدت الدول على الوقوف فى وجهها صفا واحداً متناسية خصوماتها وألحت عليها حتى هدمت محمد على وجردته من مملكته المترامية الأطراف وألحت على خلفائه بالمؤامرات والديون حتى أوصلتها إلى ماوصلت اليه من ضعف مكن لانجلترا من إحتلالها والسيطرة عليها واذابة روحها الاسلامى فى محيط متلاطم من الظلم والاضطهاد والفاقة .

صحيح أن الحركة التحريرية الوطنية ظهرت فى مصر سنة ١٨٩٥ بظهور مصطفى كامل وقد تداولت هذه الحركة عوامل القوة والضعف والنجاح والمقاومة حتى أثمرت ثورة سنة ١٩١٩ فكانت من آثارها الفعلية .

وصحيح أن الغاصب استطاع أن يقاوم هذه الحركة الوطنية الخالصة الصريحة المطالبة بالجلاء الشامل بحركة أخرى هى حركة « المعتدلين الذين يلتقون بالانجليز فى منتصف الطريق » والذين أسلم لهم قياد الأمور فى مصر بعد ثورة ١٩١٩ والذين نقلوا الحركة التحريرية الوطنية الصريحة إلى حركة سياسية حزبية كان لها أبعد الاثر فى التمزق الشعبى ، والتحول الوطنى وضعف المقاومة .

ولكن حركة التحرر الوطنى لم تكن حركة إسلامية خالصة وإن كانت فى أول أمرها تصطبغ بصبغة اسلامية عثمانية تستمد من الباب العالى والسلطان لامن الاسلام نفسه والخلافة ذاتها ولقد كانت ريح القومية قد هبت على أوروبا ، ووصلت إلى الشرق واستغلت فيه استغلالا سيئا فى ظروف حالكة كانت الشعوب إزاءها ضعيفة عن مقاومة المستعمر أو مواجهة التيارات الفكرية وليست لها المعدة الاسلامية القوية التى تهضم كل مايواجهها من حضارات ومذاهب فتستبقيها وتحيلها إلى كيانها وتأخذ خيرها وتلفظ شرها .

ولذلك ضعفت الروح الاسلامية فى مصر ، وقاومها حزب الأمة الذى كان يدعو إلى القومية المصرية الضعيفة ، وهو اتجاه لم يبين صدق الداعين إليه ، إذ كان يهدف إلى مخاصمة تركيا الاسلامية لحساب انجلترا الصليبية ! . . فيالها من مصرية(١) ! .

---

(١) كان هذا الحديث فى مبحث الحركة الوطنية الاستقلالية فى وادى النيل .

النضال بين العرب والأتراك

مكان تركيا العثمانية من المسالة الاسلامية

لاشك أن (تركيا العثمانيه) هى أم المسألة الشرقية ولاشك أيضاً أنها إلى مفتح القرن العشرين كانت أخطر منطقة من مناطق النفوذ الاسلامى ، ومن أبعدها أثراً فى المسألة الاسلامية

وإن كنا قد قدمنا (مصر) عليها فى الترتيب الموضوعى فإنما كان ذلك لأن نوارع الاستعمار كانت أسبق إلى مصر بالاحداث الضخام منها إلى (تركيا العثمانية)

ولا يمنع هذا من الاعتراف بأن الاستعمار والتغريب زحفا إلى تركيا مبكرين أول ما زحفا إلى الشرق الاسلامى ولكن الاستعمار كان يمضى حثيثاً ، وكان يحاول أهله ودعاته إلايحدثوا أى حركة بارزة يكون لها الأثر فى كشف مؤامرتهم الرهيبة قبل أن تستفحل أثارها وتقوى جذورها

فى مفتتح القرن السادس عشر بدأت تركيا العثمانية تتألق كدولة حربية ذات صبغة إسلامية فى الشرق فتأخذ مكانها فى العالم وتكتسح مصر والمغرب والجزيرة والعراق وسوريا وتستقر فى شبه جزيرة آسيا الصغرى وتلح بالزحف على أوربا الشرقية حتى تصل إلى أبواب فينا ويضطرد زحفها فى آسيا حتى يمتد جناحها الأيمن إلى حدود الهند على المحيط وجناحها الأيسر إلى الدار البيضاء على المحيط أيضا

ومهما يقال عن عنف الحركات العسكرية فى الزحف والفتح وخلوها من الروح الاسلامية الرحيمة الكريمة فإن تركيا قامت على التراث الأسلامى والدولة الاسلامية أربعة قرون كانت إلى مفتتح القرن العشرين لاتزال موضع الخوف والهيبة من الغرب المستعمر الزاحف

وإن كانت هذه إلا ربعمائة سنة فى الواقع من أشد سنوات الركود والضعف والمهانة فى تاريخ الاسلام كله فقد ظلت تركيا تغط فى غفلتها وتنطوى على نفسها حتى أفاقت أخيراً على واقع مؤلم لا يستطاع معه تدارك الصدع أو علاج المرض مما انتهى بالدولة الاسلامية بعد الحرب الكبرى الأولى (١٩١٩) إلى المؤامرة العجيبة التى مزقتها تمزيقا

والواقع أن الهند الاسلامية كانت قد طويت فى إستعمار الأنجليز المبكر للهند

وكذلك امتحنت مراكش بالاستعمار سنة ١٨٣٠ وابتليت مصر بالاحتلال سنة ١٨٨٢ وسيطرت البعثات الاستعمارية على شواطى جزيرة العرب الجنوبية وعلى شواطىء الخليج الفارسى مبكرة أيضاً

وسعى الاستعمار إلى إيقاد نار الخصومة والتنازع بين الشريف حسين والملك أبو السعود فى شبه الجزيرة وألب القبائل الأخرى مع إحداهماا أوضده

وعمل أيضا على أثاره الخلاف وتوسيع شقة بين العرب والترك فقد كان الخلاف بينهما من أيسر الأمور لو قصد إلى حلة بالرفق والاناه والحكمة من الجانبين ، ولكن الاستعمار الراغب إلى تمزيق هذه الوحده سعى

إلى إهاجة الخواطر هنا وهناك بالفتن والدسائس حتى أصبح من غير الميسور وجود (تفاهم) بين العرب والاتراك ، ثم جاءت الحرب الكبرى الأولى فانطوى الأتراك تحت لواء المانيا وتعاون العرب مع الحلفاء على قواعد محدودة ، واتفاق مكتوب ، وختمت الحرب بمأساه تمزيق الوطن الاسلامى والاتيان على البقية الباقية فيه ، وصار إلى دويلات صغيرة متناثرة أقيمت بينها الفواصل والقواطع والسدود

وتسلطت انجلترا فى أماكن نفوذها ، وتسلط إيطاليا وتسلطت اليهود وخرجت تركيا من نطاق الوطن الاسلامى وأثرت أن تكون دولة غربية لحماً ودما . . .

وهكذا تبدد العقد المنضود الذى كان موحداً إلى خلافة واحدة وإن لم تكن هذه الجبهة فى واقع الأمر إلا وحده صورية ، صاحبها لون عنيف من الجور والضعف والظلم وانصراف شامل عن رعايه الأفراد والأقطار فقد تركت الأوطان لحكامها الظلمة يحكمون الناس على الوضع الذى يرونه ولم يكن يخرج عن الاصرار العنيف على جباية الضرائب دون تقدير للارهاق أو رعاية للظروف ، والواقع أن العوامل التى قضت على الدولة الاسلامية وفرقتها كانت كثيرة ومنوعة وكان اظهرها غفلة تركيا عما حولها ومجافاتها لروح التطور والنهوض ومسايرة الزمن

ولو درست كل عيب من عيوب قصورها أو تقصيرها الكثيرة المتعددة لوجدت أن الانصراف عن الفكرة الاسلامية العملية التنفيذية كان السبب الأول لهذه المضاعفات ، وأن تركيا العثمانية دولة الخلافه لو أخذت بالاسلام عمليا لا ـ صوريا ـ لاستطاعت التغلب على كل ما اعترض طريقها من عقبات

ونزعه القوميه التى هبت ريحها على أوربا ثم امتدت إلى الشرق فى أواخر القرن التاسع عشر كان فى الأمكان التغلب عليها لو عولجت الأمور على الوجه الذى شرعه القران ونفذه السلف الأول

لقد استطاعت أوربا أن تستغل الطوائف المختلفة والأجناس المنوعة والأديان الكثيرة والمذاهب المتعددة فتثيرها وتعينها على التمرد ، ولكن هذه العناصر كانت مهيأة فعلا للثورة والتألب على الخلافة وانها كانت راضية رضاء العجز وساكنة سكون القصور فقد كانت تقاسى ألوانا عنيفة من الظلم والعسف والتجاهل والتحامل فلما أثيرت ثارت ولما أعانتها الدول القوية ـ الراغبة إلى الانتقام والزحف على الكيان الاسلامى وهدمه ـ تمردت وتجرأت وحطمت . . .

ولو لقيت هذه الأقليات الرعاية التى قررها الاسلام لها وكفلها وتعهد بها ـ من دولة الخلافه الاسلامية لعاونت على حمل التبعة وإقامة البناء ولكانت للكيان الاسلامى كأهله ـــ إخلاصا ورضا وطمأنينة

وهكذا تحمل الدولة العثمانية مسئولية تقصيرها بتعطيل أحكام القران وإذاعة روح الخمود والضعف فى أنحاء الإمبراطورية الاسلامية

زحف الأتراك العثمانيون فى فجر دولتهم على أدرنة فالقسطنطينية فبلغاريا فبلغراد فرودس حتى وصلوا إلى المجر وحاموا حول فينا يحاصرونها فيشددون عليها الحصار وبهذا الزحف المنتصر القوى بدأ الأتراك العثمانيون

باسم الاسلام يواجهون روحا أوروبية عدائية ، هذه الروح ذات مسحة دينية تؤازرها الكنيسة وتلبس لونا صليبيا وكان حصار (فينا) سنة ١٦٦٧ م أول هزيمة منى بها الأتراك فى عهد محمد الرابع فى (سان جوتارد) حتى أن هذه الهزيمة كانت موضع الدهشة . ومن هذه الموقعة بدأ تاريخ المسألة الشرقية ، وبدأت يقظة أوربا وبدأ ضغطها على الأتراك .

ارتد المسلمون عن فينا وسقطت المجر فى أيدى الأوربيين وكذلك سلبت (بلغراد) وهذه أول علائم الهزيمة وبوادر الانتقاص .

وإلى سنة ١٦٨٥ استعاد البنادقه (كريت) و (الموره) وأخذت روسيا (آزوف) وتمكنت من سلطة الملاحة فى البحر الأسود فى مطلع القرن الثامن عشر .

بلغت الخلافة العثمانية قمة المجد فى عهد سليمان القانونى فلما مات سنة ١٥٦٦ بدأت الدولة التركية فى الانحدار ومن ثم ساد الدولة العثمانية ظلام دامس بانقباضها عن نفسها وغفلتها عما حولها وبرزت روسيا إلى المجال الدولى واستفحل أمرها وتطلعت طامعة إلى انتهاب البوسفور ، وزحفت انجلترا وهولندة وغيرهما بالقناصل والامتيازات إلى قلب العاصمة الإسلامية فكان لها حق توجيه دفة سياسة تركيا فى أغلب الأحيان

وأثارت هذه الدول فتنا وقلاقل متواصلة فى البلقان والمجر وبولنده وهددوا الدولة ألام بالثورات العنيفة وأعان على استفحال ذلك ، ضعف الجيش وانحلاله وظلم الولاة وطغيان أمراء البلاد واستبدادهم واقتصرت العلاقات بين عاصمة الخلافة وبين جسم الامبراطورية الواسع الفسيح علاقة جباية وتبعية ضريبه ، لها أتاوتها المعينة فى وقتها المحدد دون عمل على إصلاح أو تجديد مما أعان على استطارة الأوبئة واستفحال الأمراض

وشاعت فى الشعب الاسلامى روح من الذلة والاستكانة والاستسلام إلى هذا الظلم الصارخ وقامت حياة المجتمعات على شريعة الأسماك يأكل قويها ضعيفها دون رحمة أو عدالة وقصرت مهمة الحكام على سلب الشعب وتجريده وتجاهل فقره ومرضه

وانصرف العلماء من سبيل التوجيه والقيادة ، وحياة الخشونة والتعفف إلى ركب الخلفاء ، واستناموا إلى الحياة الرخية المترفة الناعمة فى ظلال القصور

وانصرف الناس إلى هواش الحياة وقشور الدين يتناقشون فيها ويتنازعون حولها ويتجادلون حول فرعيات الفقه وفرضيات المسائل

واستفحل داء الرشوة بين الحكام وانصرف الخلفاء أنفسهم من حياة الجهاد والحرب إلى دعة القصور ونعمائها واعتصموا بأبراجهم العاجية وأغلقوا دورهم عن الناس فلم يعرفوا عن أمورهم إلا ماتحمله إليهم الحاشية الظالمه والبطانة الآثمة، وقد نهى الاسلام عن مثل هذه البطانات وأوصى الملوك والأمراء والحكام باختيارها وانتقائها وعلل دائما سقوط الدول وتدهور الأمم وفساد الأمور إلى فساد هذه البطانات

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء فى أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر »

انغمس الخلفاء فى الشهوات والملاذ وأترفوا فى أبهة الملك وعملوا على إنشاء القصور الواسعة وتعميرها بألوان صارخة من الفتن فى الاثاث والرياش ، فضلا عن اقتناء الجوارى والغوانى والاسراف فى حياة الخلاعة والمجانه

وقد اضطرد هذا المعنى واستفحل حتى صارت أدق الأمور وأجلها فى (الدولة الاسلامية) تقضى بإشارة من دخيل أو توجيه من جاسوس

وقد اضطرد نفوذ الأقليات واتصل تآمر الدول الغربية حتى بلغ أقصى مداه فكانت تركيا العثمانية فى أيامها الأخيرة منطقة نفوذ لكل دولة من دول أوربا ، وكان لفرنسا وروسيا وإنجلترا وجرمانيا امتيازات عجيبة داخلها هى نوع من الحماية أو وسيلة من وسائل التسلط المحجب وتوسيد للمطامع المخبأة وتركيز الاحتلال المستتر وتهيئة المستقبل البعيد المظلم الذى ينتظر الشرق الاسلامى الذى كانت تبيت ضده أوربا كل وسائل الانتقام

وقد أججت فرنسا الفتن فى شرق البحر الأبيض وتفاقمت الثورة حتى أدت إلى المجازر العنيفة التى انتهت بتوقيع المعاهدة الفرنسية العثمانية سنة ١٥٣٥ وبها تعترف تركيا بحق فرنسا فى حماية جميع النصارى اللاتينيه وبحماية المنشآت الكاثوليكية والأماكن المقدسة كذلك ـ وتشمل حماية الروم واليونان والكلدان والأرمن والموارنة

ولم يقف أمر هذه المسألة عند هذا الحد ، بل إن هذا الخلاف تجدد مرات أخرى وفى سنة ١٧٤٠ بدأ نضال فرنسا وروسيا حول حق الامتيازات وعقدت معاهدة (فيتازجة) سنة ١٧٧٤ التى منحت قيصر روسيا حق حماية النصارى الأرثوزكس أى الروم غير الكاثوليك والأرمن الغريقورين واستمر الخلاف بعد ذلك على أساس حماية روسيا للروم الأرثوذكس وحماية فرنسا للاتين وقد نالت روسيا بهذه المعاهدة أراضى واسعة فى شمال القدس وعملت على معارضة البابوية فى مساعيها المتواصلة لتوحيد الكنيسة الشرقية

وقد تضمن مؤتمر برلين اعترافا بحقوق فرنسا التقليدية فى الشرق واعتبر غليوم نفسه بعد زيارته للقدس سنة ١٨٩٨ حاميا للكاثوليك الألمان

وتعزى عوامل حرب القرم التى قامت فى ذلك الوقت إلى هذا الخلاف بين الكاثوليك والأرثوزكس على الأماكن المقدسة وقد أرسلت فرنسا إلى الشام جيشا سنة ١٨٦٠ بحجة مساعدة الدولة العلية فى قمع الفتنة التى أحدثها الخلاف بين المارون والدروز

وقد وضح جليا أن هذه التعلات الطائفية ، إنما كانت توجهها أوربا وتثيرها هذه الدول فى إيجاد ثلمات واسعة كثيرة فى جسد الدوله العثمانية ، هذا الجسد المزيل ، بغية القضاء عليها ، وقد عرف أكيداً أن ثورة البلقان واليونان والهرسك ، وكل هذه المناطق الأوربية إنما كانت عوامل فتنة صليبيه أعدت لتمزيق الدولة العلية حتى كان من شروط ثوار البوسنه والهرسك للهدنة والتسليم والكف على الثورة (أن تعطى الدولة العلية نصف الأراضى التى بيد المسلمين) وهكذا تداخلت الدول الأوربية فى شئون الدولة العلية باسم المسيحيين المحكومين وهكذا ألبت أوربا الصليبية الدول فى البلقان وأحدثت ثورة الأرمن ودست نفسها فى حوادث كريد وتساليا باسم دعوى حماية المسيحية فى الشرق

روسيا

روسيا هى العدوة القديمة لتركيا منذ غزو محمد الفاتح لأطرافها وتحويل كنيسة أيا صوفيا مسجداً للمسلمين ولعلها أقوى الدول الأوربية عداوة لتركيا فى القديم والجديد ، فهى الخصم المتاخم المتطلع فى يقظة وتحفز

نهضت روسيا القيصرية (روسيا بطرس الأكبر) وتطلعت إلى تركيا المتراجعة المنهزمة فزحفت حتى وصلت إلى البحر الأسود

وزحفت جنوبا مخترقة هضبات الفزعير فوقعت فى أيديها تركستان وأسست ميناء (كراسنو فدسك) على بحر قزوين سنة ١٥١٦

وزحفت فى آسيا إلى الشرق عبر سيبيريا حتى وصلت إلى ساحل المحيط الهادى وأنشئت ميناء (فلا ديفستك) سنة ١٧١١

وأصبحت فارس إذ ذاك بين جناحيها وبدأت تزحف إلى قلبها وأعانت روسيا على كثير من الاضطرابات والاشتراك مع انجلترا فى الخفاء تآمرا على الدولة الاسلامية

وفى هذا يقول صاحب كتاب (المسألة [1] الشرقية) — (وبديهى أن الروسيا كانت ترمى إلى إضعاف تركيا بالاضطرابات والثورات والحرب مع أمم البلقان حتى إذا ثبطت عزيمتها وقلت همتها تحولت ضدها برجالها وقوتها وهى سياسة لايمكن لمؤرخ عادل أن يقول عنها أنها سياسة شريفة ، وهذا حق فإن روسيا هيجت ضدها البوسنه والهرسك والجبل الأسود وصربيا فقام البلغاريون فى وجه الدولة وجعلوا غايتهم قتل المسلمين فأتوا من الفظائع والجرائم مالا يستطيع وصفه قلم

وكذلك استعدت صربيا والجبل الأسود لمحاربة الدولة فاتحد أمير هاتين الأمارتين ضد الدولة وحشدت الجنود بكثرة وأرسلت الروسيا ضابطا من أمهر ضباطها لقيادة الجيش أما موقف انجلترا من الدول العثمانية فقد كان صورة من صور النفاق الصريح ، شأن انجلترا دائما فى كل مواقفها ، ودون أى تقدير لكرامة أو رعاية لحرمة.

ووقفت انجلترا موقف النفاق تساعد روسيا فى الحرب التى تشنها على تركيا كل المساعدة وتظهر للدولة العلية بمظهر الصداقة لتقف على أسرارها وربما أطلعت روسيا عليها

وقد عرضت انجلترا على الباب العالى أن يتوسط فى الهدنة بينه وبين روسيا فى الوقت الذى كان لها فى أسطول روسيا سفنا تقاتل الأتراك !

وعندما شنت روسيا حرب ١٦ إبريل ١٨٢٨ على أثر وصول محمد على إلى جزيرة الموره أعلنت انجلترا عدائها بمساعدة اليونانيين واقتحم أسطولها مياه الشرق يهدد موانيه كما عرض (بالمرستون) على الدول الأوربية أن ترسل جميعها إنذارا إلى مصر تطالبها فيه بسحب جنودها من الشام وقد عملت على توقيع اتفاقية ١٥ يوليو ١٨٤٠

---

(١) ص (٢٢١)

التى تضمنت مطالبة مصر برد كريد وبيت المقدس واطنه ، وكان ذلك عند ما رأى الانجليز روح الاسلام تستيقظ وترخف على يد محمد على وهم بسبيل سحق القوة الاسلامية الرابضة فى عاصمة الخلافة وقد أدى ذلك إلى أن يلحوا على محمد على حتى يحطموه لأنه من عناصر اليقظة فى الوقت الذى أبقوا فيه على تركيا لأنها كانت فى طريق الفناء !

أما فرنسا فقد أدعت طويلا أنها حامية الكنيسة فى الشرق وباسم هذا الادعاء الباطل زحفت إلى لبنان وأنشأت فيها معقلا ضخما من معاقل الثقافة الفرنسية بالكنائس والجامعات والمستشفيات وكان لها فى تركيا مركز ممتازا منذ سنة ١٥٣٥

وكان لها فى مصر المحاولة الاستعمارية الأولى بالحملة الفرنسية فى ١٩ مايو ١٧٩٨ وقد عملت بعد ذلك على إنشاء قناة السويس بغية توطيد مركزها فى مصر .

وقد أثبتت فرنسا فشلها الذريع فى كل حركة استعمارية قامت بها فلم تترك لها فى مكان ما أى أثر يحمد لها أو يشكر وهى لم تترك فى مصر إلا قانونها الوضعى ، وقد كانت صداقتها لمحمد على صداقة كاذبة فقد تخلت عنه فى أدق اللحظات وأحرجها، فضلا عن أن هذه الصداقة كانت سببا فى خصومة (بالمرستون) له وقد حالت دون تبادل الثقة بينهما وقد سعى إليها محمد على طويلا

وقد عمل الفرنسيون على خداع المصريين طويلا وتكاد أحداث التاريخ تثبت أن فرنسا قد أسلمت مصر للانجليز وإنها كانت عونا للانجليز عليها . .

ولا شك أن محاولات فرنسا فى مصر هى محاولات صليبية ، ولا ريب أنها خصومة للاسلام فان فرنسا لاتزال تذكر محاولاتها الأولى سنة ١٢٥٢ م وكيف أسر المصريون لويس التاسع بالمنصورة

القرن التاسع عشر

أهل القرن التاسع عشر على الامبراطورية الاسلامية وهى سادرة فى غفلة عميقة أما مقر الخلافة (الباب العالى) فقد كان يقاسى ألوانا عجيبة من المؤامرات والدسائس ، فقد كانت تركيا تتخبط وتتآكل وتلتهما الأطماع من كل مكان ، وكان قد مضى على ذلك قرن كامل من الزمان بل يزيد، وقد حاولت تركيا محاولات إصلاحية كثيرة، مهما يكن من شأنها ضعفا فانها كانت إقرارا واعترافا بالقصور ، ولكن الدول الأوربية كانت تعمل دائما على عرقلة كل إصلاح وإقصاء المصلحين واضطهادهم وقد بلغ قدرهم أن تحكموا فى توجيه دفة السياسية فى قلب عاصمة الخلافة

وباسم الامتيازات وبسلطان النضار عملت أوربا على ألا يتم إصلاح ما ! وتدخلت فرنسا وانجلترا بين السلطان ورعاياه باسم حماية بعض الطوائف ، وكان عمل روسيا هو إقلاق الدولة إقلاقا دائما لاينقطع

وكانت ثورات الموارنة والدروز والنصرية فى الشام لاتنقطع ، وكانت الطوائف المسيحية هناك تتصل بأوربا وتوثق علاقاتها ، وكانت أوربا تستغل هذه الطوائف وتعينها على الثورة والتمرد ، وكان للانجليز صلة (بعكا) وكان الأسطول الانجليزى دائما يحاول أن يحمى صيدا وعكا

ولعل لهذه صلة قديمة بالنزاع بين الاسلام وخصومه من الغرب فقد أبلى الدروز قديما مع المسلمين فى الحروب الصليبية وأبلى الموارنه فى جانب اللاتين ومن يومها إنعقدت الصلة بين الفرنسين والموارنة من أهل لبنان حتى أن لويس الرابع عسر أدعى الحماية على المارونيين وشملهم بعطف واضح صريح

وقد قامت فى تركيا نهضة (سلفية) فى مفتح هذا القرن لعلها كانت صدى للوهابية أو مقاومة لها وقد نادى بها (كتشى بك) ولـكنها لم تنجح ولم تستمر

وعمد الخليفة عندما استفحلت روح الخلاف بين الطوائف - بتأجيج أوربا - إلى إصدار بيان يقول فيه (أيهاالمسلمون والنصارى واليهود : إنكم رعية امبراطور واحد وأبناء أب واحد وأن السلطان يسوى بينكم جميعا) ولو أن هذا الخليفة كان يفقه دينه ويحرص عليه لما تمـكنت هذه الفتن من الاستفحال ولما احتاج الناس إلى هذا البيان التافه ولوجد الخليفة من الاسلام ما يرضى هذه الطوائف ويملأ قلوبها حبا للدولة القائمة فى تعاليمه من عدالة ورعاية ومساواه

وبدأت دول أوربا تسمى (تركيا العثمانية) دولة الرجل المريض وتحاول كل منها أن تسبق فى أن يكون لها النصيب الأوفى فى تركته ، وهكذا غلا مرجل الاستعمار وتنافست الدول على هذا الشرق الاسلامى المهيض الجناح

وأنفذت هذه الدول وزرائها وجواسيسها إلى قلب القصور وكان منهم الرجال والنساء وقد وصل هؤلاء ووصلن إلى التجسس على الخليفة نفسه وإحصاء حركاته وأنفاسه وانصرف الخلفاء فعلا عن العمل لأوطانهم وعكـفوا على بناء القصور والمساجد وزخرفتها وإغداق الآلاف المؤلفة على هذا الزخرف وعلى هذا الفراش بأنواعه من حرائر وستائر .

ونعم الخلفاء فى داخل قصورهم الشم العوالى ، هذه القصور المغلقة التى لاتصل إليها صيحات المظلومين ولا أنات البائسين بمثل هذه الألوان من الترف وبهذا المتاع من الطنافس والمذهبات من عروش فارسية وتيجان مرصعة بالماس وأحجار ثمينة من اللؤلؤ والمرجان والعقيق وهذه هى علامة الحضارة عند أفولها والدول عند تدهورها ، وهذه أول بوادر الوهن والضعف والانحلال .

واضطرب مرجل الدول الاسلامية خلال هذا القرن اضطرابا عنيفا ،فثارت اليونان وألبانيا ويوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا وكريت وقبرص والقوقاز واضطربت العراق والشام وفلسطين وتونس والجزائر ومراكش

وكانت انجلترا قد وصلت إلى الهند منذ طويل واستقرت فيه وأقامت هولندا والبرتغال على شواطىء الخليج الفارسى وتفجر البلقان بالثورات المتلاحقة وبدأت عواصف النضال بين تركيا وإيطاليا فى طرابلس وبينها وبين فرنسا فى تونس والجزائر .

ولمع اسم محمد على وبرز فى ميدان السياسة العالمية عندما أرسل أسطوله لاخماد ثورة اليونان سنة ١٨٢١ فهزم الثوار وبدأ القلق يساور انجلترا وروسيا وفرنسا فعقدوا بينهم اتفاقا وأرسلوا أساطيلهم إلى الساحل اليونانى ووقعت معركة (نفارين) التى غدرت فيها الأساطيل الثلاث بالأسطول المصرى فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٨ وخسرت فيها مصر ٣٠ ألف جندى ومعظم الأسطول

وقد اضطرد نشاط محمد على ، الرجل الطاح إلى القيام بحركة إسلامية ، تستفيد بها دولة الخلافة ويقيم امبراطورية عربية إسلامية تضم الأقطار الممتدة من حدود الجزائر غربا حتى ديار بكر وخليج فارس شرقا ومن جبال طوروس شمالا حتى أواسط أفريقيا جنوبا ويدخل فى دائرتها الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وبرقه ومصر والسودان والشام والعراق وخليج فارس ونجد والحجاز واليمن،وقد وجه قواته حتى ظفر بالحجاز والشام ووقف يهدد الاستانه سنة ١٨٣٣

ولكن أوربا لم تمهله كما فصلنا ذلك قبلا ـ إذ قسرته على حدود مصر وأرغمته على تسليم الحجاز وسوريا بعد أن ألبت انجلترا عليه الدول . وكانت هى أظهر خصومه وأعنفهم ، ولا شك أن ذلك كان مقاومة خصيمة ليقظة كل ما هو اسلامى والحيلولة دون ظهوره .

* * *

وتغلغل الاستعمار فى المغرب ومصر واستقر فى الهند وإن كان قد لبث (احتلالا مقنعا) يقوم على الامتيازات فى تركيا والتجارة فى الهند وحماية الدائنين فى مصر

ونزح الأجانب إلى الشرق بغزارة واستولوا على كل مرافق الاقتصاد وعملت حكوماتهم على حمايتهم بالامتيازات التى بدأت منذ أيام سليمان القانونى .

وظاهرت الأساطيل والقوانين والقناصل هذه الحملة التجارية أسميا ، وعملت هذه الدول ـ المتزاحمة على الشرق فى نهم عجيب ـ كأنها قد وقعت على تركة لا صاحب لها أو ميراث لا وراث له .

ونشرت هذه الدول إلى جانب ذلك ألوان من الدعارة والحرية المفرطة والاستهتار بالأخلاق .

وكانت انجلترا إلى مفتتح القرن التاسع قد أججت الخصومة بين الهندوكين فى الهند لقد بدت بوادرها منذ تقارعت عليها مع فرنسا (١٧٤٨ - ١٧٥٩) .

ولم يكن هذا الزحف زحف فتح صريح فى أول أمره ، وإنما اتخذ صوراً من التغطية والتعمية حتى تمكن من الاستيلاء على أطراف الدولة الاسلامية

٢ـ عبد الحميد والجامعة الاسلامية

آلت الخلافة إلى السلطان عبد الحميد (١٨٦٨) واستمرت فى قبضته ٤١ عاما حتى عزل سنة ١٩٠٨ بعد أن أصدر الدستور وحاول أن يجعله مظهراً شكليا !

وقد حاول عبد الحميد عند ما أحس روح اليقظة من حوله فى العالم كله أن يقاوم التيار لا أن يسايره فاشتد فى مظاهر العزلة ومقاومة النهضة ، وحاول ألقاء ستار كثيف على كلمات الحرية واليقظة والشورى ، وما إلى ذلك وحرمها على الصحف والمجامع وبدأ يدعو إلى ما أسماه (الجامعة الاسلامية) .

والواقع أن الخليفة قد تنبه إلى هذه الدعوى متأخراً بعد أن تغلبت على التيار السياسى والاجتماعى فى تركيا عوامل

كثيرة،واستفحلت مظاهر عديدة؟ فى مقدمتها نزعه القومية التى هبت ريحها من الغرب،والتى أخذت تركيا تستجيب لها وتسرف فى هذه الاستجابة فتفكر فى بعث نزعه (طورانية) تحى بها أمجاد جنكيز خان وتيمور لنك .

وقد كان ظهور هذه النزعة الطورانية دليل أكيد على أن روح الاسلام وقيادته قد عفت وأن تركيا قد تحللت منها نهائيا ، وقد اضطردت الاستجابة إلى هذا المعنى ، حتى أقام مصطفى كامل دولة (تركيا اللادينية !) فيما بعد تمشيا مع هذه النزعة .

وهكذا جاءت محاولة السلطان عبد الحميد لأعادة الوحدة الاسلاميه مرة أخرى إلى الشرق متأخرة فأصابها الفشل ، ذلك لأن الأقطار كانت قد تفرقت وغلبتها الأهواء وتنازعتها المذاهب والاتجاهات ولم يكن هذا النظام الذى أعد لقيام هذه الوحدة سليم أو قرآنيا أو قائما على وجهه الاسلامى الكامل ولو أقيم كذلك من أول أمره لنجح واستقر وتفادت تركيا بأقامته ما عرف فى العهد الأخير من عوامل التسلط الاستعمارى على قلب دولة الخلافة وفى عواصم الأقطار وحواضرها .

وقد كان تجاهل روح الاسلام عاملا قويا من العوامل التى مكنت للدول الغربية من السيطرة ومن إيجاد الثغرات التى ألبت الطوائف وهيأتها للتمرد والثورة .

وفى عهد الخليفة السلطان عبد الحميد أعلنت تركيا العثمانية بجميع مظاهرها إنها تختتم عهداً طويلا من الضعف والعجز والقصور ،إذ ضاع فى عهده الجبل الأسود وانفصل الصرب واستقلت رومانيا والروم وايلى وبلغاريا وضاعت قبرص وأخذت تونس وطرابلس واليوسنة والهرسك وباطوم وقارص وإردهان ومصر وتركية أوربا ومقدونيه وكريت وأرمينا .

قضى عبد الحميد هذا العمر الطويل فى فتن وثورات ، وتبين ضعفه حين حصر نفسه فى قصر يلدز فلم يبرحه ، ظهر عجزه حين أحاط نفسه بطائفة من الجواسيس الذين تسلطوا على الناس وأصبحوا إذانا على كل حركة وكلمة .

وقد قاوم عبد الحميد كل مظاهر الرقى والتقدم الحديث ابقاءاً على غفلة الشعب وحرصا على جهله ولم تتجه دعوته إلى (الجامعة الاسلامية)ولم يحاول استخدام بعض الدعاه الذين كانوا ينتسبون إلى الاسلام إلا كمحاولة أخيرة لينقذ نفسه من الفشل المحقق فقد كان حكمه الفردى الاستبدادى وغلبه مظاهر الترف والعزله ومعاشرة الخصيان والغوانى وانتشار الجواسيس وتقريب أصحاب الأوهام والدجالين أمثال أبو الهدى الصيادى مما قضى مبكراً على تركيا .

الجامعة الطورانية

فى منتصف القرن التاسع عشر بدأت تركيا لونا جديداً من الحياة أرادت به أن تستجيب للتطورات الواسعة المدى فكان مما عجل بحتفها .

نعم، فى حالة النزع الأخيرة للدولة العثمانية بدأ التفكير فى الجامعة الطورانية رغبة فى سد الفتوق بنشاط

أنور وكمال وجمال ونيازى ومدحت ولكن الواقع كان أشد قسوة مما يتصورون فإن العرب الذين أحفظهم الغيرة على محاولة تركيا بقتل روح قوميتهم العربية قد قاوموا هذه الحركة بكل شدة وعنف .

وظهرت الفئة المندفعة إلى هذه الحركة بمظهرها حين حاولت تتريك جميع العناصر المتصلة بدولة الخلافة وإخراجها من حيز قوميتها الخاصة ، وذلك فى الوقت الذى كانت تركيا فيه مسئولة عن إنماء وتدعيم الوحدة الاسلامية الشاملة .

ونشط شباب الأتراك للحركة الطورانية نشاطاً كبيراً وجندوا له كل القوى حتى لفتوا إليه الأنظار وأثاروا به النفوس واحتدوا فى هذه الخطة حتى حاولوا استبدال الموظفين العرب بغيرهم من الأتراك .

وقدموا نشيد الدب الأبيض فى الصباح عن الأذان والصلاة !

وكان ذلك كله من الأسباب التى أثارت العرب ، وجعلتهم يعملون جدياً للدفاع عن كيان الفكرة العربية من أن تذوب فى هذا الطوفان ، وعملوا دائبين على مقاومة الموجة العاتية ومن ثم برزت الدعوة العربية فى ثوب المناداة باللامركزية . .

القومية العربية

ظلت الدول العربية قائمة تحت لواء الخلافة الاسلامية التركية حيث بدت تتحرك نزعتان خلفهما الاستعمار وأعان على تمكنهما ضعف الادارة فى تركيا ، وعجز القيادة فى مقر الخلافة ، والقصور المتصل عن رعاية الحريات والتمشى مع العوامل الجديدة ، فضلا عن الضعف والجمود الذى منيت به تركيا خلال هذه الفترة .
القوميات عامة والقومية العربية خاصة .

ولقد كان لذلك أسباب ظهور وعوامل انبعاث ليس من شك أن أولاها هو تفكير تركيا فى القضاء على العصبية العربية جملة بايقاظ نظام مبتدع هو الذى أسمته تركيا بالجامعة الطورانية فتركيا نفسها وهى القائمة على الدول الإسلامية ، والتى هى مقر القيادة لهذه الأقطار والتى يقوم على رأسها خليفة المسلمين تفكر فى أن تتقلص إلى أن تصبح دولة تركية عثمانية طورانية قحة تحيى مجد جنكيزخان وتيمورلنك ، ولا تقتصر على ذلك فحسب بل وتحاول أن تكره العرب على أن يكونوا جزءاً من هذه الجامعة العجيبة !

وطبعى أن يكون هذا مثار فتنة من جهة ومقاومة من جهة أخرى وأن يخلق رغبة انفصال العرب عن تركيا والعمل الجدى للوحدة العربية . وقد كان أول تفكير للعرب فى الحفاظ على كيانهم إزاء تركيا سنة ١٨٩٦ وتوالت بعد ذلك المؤتمرات فى باريس وغيرها لوضع الأسس التى يسير عليها تنفيذ هذه الخطط .

ولا يفوتنى أن أذكر أن الخطوات التى خطتها القومية العربية والتى انتهت بقيادة هذه النهضة إلى الشريف حسين سنة ١٩١٥ لم يكن هو الوضع الطبيعى لبرنامج هذه الحركة وإنما كان إعجالا حملت إليه الظروف التى أحدثتها حرب سنه ١٩١٤ .

وأعتقد أن النزعة الطورانية كانت دسيسة غربية لإيقاد نار التفرقة بين العرب والترك ومحاولة لإقصاء معالم الوحدة الاسلامية عن تركيا وهى دولة الخلافة وعن العرب وهم حملة الرسالة الاسلامية

وقد عرف بوضوح أن الاسلام كنظام عالمى شامل يقضى على هذه الدسائس القومية والمذهبية ، وأنه ربط الأقطار والأنساب والقبائل المختلفة برباطه القوى .

ولما كانت تركيا فى ذلك العهد قد ضعفت إسلاميا ، وتحللت من معانى القيادة الصحيحة للدولة وأصبحت مذبذبة لاهى بالاسلامية الواضحة ولا بالغربية الصريحة ، وجمدت فى أوضاعها حتى تخلفت عن العالم كله ، ومنيت بطوائف مختلفة من الدخلاء والمستعمرين المحتجبين تحت ستار الامتيازات والحائكين للدسائس ، فقد استطاعت أمثال هذه الفتن الصلبية أن تؤثر وأن تؤتى أكلها وكان من آثارها دعوة تركيا إلى الجامعة الطورانية ، وإضطرار العرب إلى مواجهة هذه الحالة بالدعوة إلى القومية العربية .

واستطاعت انجلترا أن تستغل هذا الخلاف فى الحرب الكبرى ١٩١٤ عندما أعانت الشريف حسين على إعلان الثورة على الأتراك فانهار آخر سد من سدود العلاقة بين العرب والترك . وبدأ دور الخصومة والحرب ، ولكن انجلترا الآثمة ما أن تحقق أملها فى تمزيق الوحدة بينهما حتى حضرت الثورة فى الحجاز واستغلت نتائجها لصالحها فدخلت مع العرب سوريا وفلسطين ثم سلمت سوريا بعد ذلك لفرنسا واستولت هى على فلسطين .

وانتهى هذا الدور بانهيار الخلافة واعتبرت تركيا نفسها دولة لادينية مما سيأتى تفصيله فى موضعه والواقع أن العرب - كما قلت - لم يكونوا راغبين فى الانفصال عن تركيا الاسلامية دولة الخلافة فقد كانوا معقولين جداً حين طالبوا بالاصلاح وعودة الحقوق إلى أصحابها ، بالرغبة فى تمتع العرب بحقوقهم السياسية بأن يشتركوا فى الادارة المركزية ، واعتبار اللغة العربية فى مجلس النواب العثمانى وفى الولايات العربية أمرا مسلما به . والواقع أن العرب كانوا يؤمنون بأن ارتباطهم بدولة الخلافة هو ارتباط الراية الاسلامية دون فرق بين العرب والترك ولكنهم لم يثوروا على الأتراك إلا عندما غلبت النزعه التركية القومية على النزعة الاسلامية واضطرد هذا المعنى فوصل إلى أشد مراحله عند ما حاول الاتراك إفناء الصبغة العربية الإسلامية فى هذه النزعة العقيم

لم يقم إذن الملك العثمانى على فكرة إسلامية صادقة أو سياسية اجتماعية ناضجة ، ولم يفتح لرعاياه العديدين المختلفين بابا لتنظيم علاقاتهم المختلفة على غير ماعرفوا من المبادىء فضاعت عليهم الإفادة مما كان لهذا الملك من موقع جغرافى فريد فى نوعه ، والواقع أن العرب شقوا بالعثمانيين وأن العثمانيين شقوا بالعرب شقاء يدركه كل من يقرأ تاريخ الدول العربية فى القرون الأخيرة .

تركيا العثمانية تنهار

بلغت تركيا أوج قوتها فى منتصف القرن السادس عشر فكانت الدولة البحرية الثالثة بعد فرنسا ثم بدأت بالتدخل الأوربى تتحول إلى (عصبة تركية) كما يقول شفيق غربال بك والواقع أنه عند ما أقبلت أوربا نحو

الشرق كانت ترمى إلى تمزيق الدولة الاسلامية وقتل الدعوة الاسلامية وقد استطاعت أن تحقق الرغبة الأولى إلى حد ما واستعصت عليها الرغبة الثانية فقد كانت الدعوة الاسلامية لا تزال قوية وقد قاومت مصر باسمها فى أيام عمر مكرم وبرزت فى شبه الجزيرة بجهاد الوهابيين الأول وتجلت فى الحفاظ على الولاء للخلافة الاسلامية باعتبارها رمز هذه الوحدة .

وهكذا ضاعت الدولة وبقيت الفكرة الاسلامية فلم تتأثر إلا خلال القرن التاسع عشر عندما اجتاحت الشرق أعاصير الحضارة الغربية والتفكير الأوربى وتنازعت الشرق عوامل الاستجابة والخصومة بين هذا الالحاد وهذه الاباحة .

وأثرت فتن الطوائف فى موقف تركيا من تبعيتها وقيادتها للاقطار الشاسعة .

ولم تستطع تركيا أن تقيم وحدة إسلامية إذ غفلت عن أصدق معانى الوحدة وهى قيام الدولة على أساس الاحتكام إلى التشريع الاسلامى والدستور القرآنى ، ولم يكن ذلك متعذراً ، ولو أتيح تنفيذه لتلاءمت الخطط واستقرت الوحدة على قواعد صادقة من الارتباط ، ولسدت كثير الثغرات التى استطاع الغربيون أن يقتحموها باسم حماية الأقليات ، والفجوات التى تمكنوا من النفاذ منها لاثارة الفتن والدسائس رغبة فى إقلاق الدولة أو العمل على انهيارها .

ولو تحقق هذا الاتجاه لبعد الخلفاء عن الاسراف ولقامت الخلافة على أساس الشورى لا الوراثة ولانتظمت علاقة الحاكمين بالمحكومين .

ولقد كان أولى بتركيا وهى تعمل فى سبيل المحافظة على كيانها الموحد أن ترجع إلى الإسلام وهو الجامع المانع بدلا من أن تلجأ إلى القومية وهى المفرقة الممزقة

وكذلك عجزت تركيا عن المحافظة على الوحدة الاسلامية بين الأجناس والأمم المنضوية تحت لوائها ، بل إنها هى التى أسرعت بنقض مبادىء الاسلام بتفكيرها فى مشروع يتعارض معها كدولة (قيادة إسلامية) هو مشروع تتريك الأجناس .

وقد عمدت الدول الغربية إلى محاربة تركيا باعتبارها الدولة الاسلامية الأولى فبدت فى أفق الحوادث صوراً من العصبية الصليبية الحمقاء المتطرفة ، ظهرت بوضوح فى الخلاف بين الترك واليونان ووقوف الدول الغربية فى صف اليونان ، وفى الخلاف بين مصر والترك وتأييد الدول لتركيا ومعارضتها لمصر .

ولم يقف أمر الخصومة عند هذا بل إن الأجانب فى الشرق وقفوا فى وجه حركات التحرير واليقظة والوطنية وحاولوا إدانة الحكومات المختلفة بغية السيطرة عليها كما فعلوا فى مصر مع مقاومة الزعماء والقادة وقمع نشاطهم التحريرى .

والواقع أن حرب الاستعمار الذى أعلنتها أوربا على الشرق الاسلامى فى أواخر القرن الثامن عشر واشتدت فى أوائل القرن التاسع عشر ، إنما كان تجديداً لمحاولة الحروب الصليبية التى فشلت واندحرت من قبل عندما وجدت جبهة إسلامية قوية

فلما بدأت هذه المحاولة الثانية الجديدة تبين الغرب بالاحتكاك بأمم الشرق أن الوقت مناسب لهذا الغزو نظراً لضعف المقاومة وقد ظل هذا الاستعمار مقنعاً حتى واتته الظروف فأسفر وتحدى . وقد أكد هذا كلام اللورد اللنبي فى فلسطين سنة ١٩١٧ .

اعتقد الكثيرون عندما اشتعلت نار الثورة فى تركيا العثمانية ١٩٠٧ ـ هذه الثورة التى انتهت بحصولها على الدستور ، إن هذا الفجر لعهد جديد من الاصلاح ولكن الواقع كذب ذلك فقد سحب السلطان عبد الحميد قوة الدستور وسلطانه بعد إصداره بعام واحد مما اضطر تركيا العثمانية إلى ثورة أخرى سنة ١٩٠٩ انتهت بخلع السلطان ونفيه إلى خارج البلاد ولم تمهل الأمور تركيا إلى أن تسير فى طريقها البطىء المضطرب فقد عاجلتها الأحداث عندما اشتعلت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وانضوت تركيا إلى لواء ألمانيا ، وانضم العرب إلى انجلترا وانتهت الحرب بسقوط الدولة العثمانية القائمة على الخلافة الاسلامية مأسوفا عليها وكانت تركيا دولة حرب وفتح ولم تكن مطلقا دولة إسلامية تقوم على أحكام الاسلام وأهدافه على الوجه الذى يجمع الشمل ويرأب الصدع .

وإنما تقوم الدولة الاسلامية خلال عصور التاريخ كله على مقوماتها القرآنية من التشريع والجهاد والخلق فإذا ذهبت كان هذا مؤذناً بزوالها وأفول نجمها مهما اتسع ملكها واستطال حكمها .

الصّراع بين العرب والإنجليز

قضية العرب بين الأتراك والإنجليز ، قضية لم يطل أمرها فيما بين العرب والأتراك ، فإن النزاع بينهما لم يمتد طويلا ، فقد أهل القرن العشرين وهى فى دورها التحضيرى وسرعان ما نقلتها الأحداث إلى مرحلتها الحاسمة باعلان الحرب الكبرى الأولى ١٩١٤ وباشتعال الثورة العربية التى قادها (الشريف) .

وبها انتقل الصراع توا إلى الانجليز بدلا من الأتراك وما زال ممتدا إلى اليوم واعتقد أن هناك ثلاثة عوامل كبرى أعانت على اضطرام الخلاف بين العرب والأتراك .

١ ـ فكرة الدوله العثمانية فى تركيز العناصر التابعة لها لتحويلها إلى دولة طورانية تحيي مجد جنكيزخان وتيمورلنك وتبتعد عن الاسلام .

٢ ـ بروز حركات الاحتلال والاستعمار فى الشرق العربى .

مراكش ١٨٣١ ـ تونس ١٨٧١ ـ مصر ١٨٨١ ـ طرابلس ١٩١١ ـ المغرب ١٩١٢ .

٣ ـ فتك الأتراك بالنخبة الممتازة من رجالات العرب الأحرار فى سوريا ونصب المشانق ونفى مئات الأسر العربية الكبرى إلى الأناضول .

والواقع أن العرب كانوا يعتقدون أن حركة إعلان الدستور العثمانى فى ٢٣ يوليو ١٩٠٨ هى خاتمة دوار سياسي أصاب تركيا عهدا طويلا ، ولكن الواقع كان غير ذلك تماما .

فإن فكرة (الطورانية) التىاستبدتبزعماء تركيا قد أدت أخيرا إلى دور من الحدة انتهى بالانفصال والخصومة بين العرب والاتراك بعد أن عاشا سويا زهاء أربعة قرون

وقد عرفت تركيا جيداً أن مقر الحركة العربية الجديدة هو (سوريا) فعمدت إلى إرسال جمال باشا الذى سمى فيما بعد بالسفاح إلى دمشق فكانت تصرفاتهالقاسية من الأسباب التىعجلت بحدوث أكبر تمزق فى جسد الدولةالعثمانية ، فقد شملت أحكام الإعدام والنفى والسجن فى عهده ٣٠٠ أسرة من أسر الشامخلال شهرين (مارس ـ ابريل)١٩١٦ أرسلوا إلى الأناضول وصودرت أموالهم قبل صدور الأحكام عليهم .

ولقد أنشأ جمال ما أسماه (ديوان الحرب) بعاليه ، كان يقدم إليه كل من يرى فيه بارقة ذكاء أو اتجاه وطنى فيأمر بإعدامه للتخلص منه .

وقد بدا جمال باشا عهده بأن خطب خطبة رنانة قال فيها .

(إن الأمانى التركية والأمانى العربية لا يتعارضان مطلقاً ، فالترك والعرب ليسوا سوى إخواننا فى غايتهم الوطنية وربما أكمل بعضهم مجهود بعض . .

إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء فى اللحظة التى يتجادلون فيها فالنزاع والخلاف بين عمودى الاسلام لابدأن يؤدى إلى سقوط ذلك الدين ويومئذ لا مفر من الوقوع تحت نيران الاستعمار السلافى)

والعجيبأن جمال باشا عمد بعد إلقاء هذه الخطة إلى قتل ١١ عربى على الشبهة

وقد تفنن جمال فى وسائل القتل والارهاب ولكن ذلك كله لم يثن العرب عن أمانيهم وثقتهم فى حقوقهم

ولم يفز جمال منهم بطائل وظل العرب رغم هذا كله أقوياء ، وبقيت أسرارهم محفوظه فى صدورهم وقد إستقبل الكثير من زعماء أحكام العرب أحكام الإعدام وأعواد المشانق بالغبطة والإبتسام والاطمئنان

والواقع أن سبب ذلك هو رغبة تركيا فى التخلص العاجل من الحركة العربية والقضاء عليها وهى فى المهد وكان المعتقد أن فرصة الحرب هى أحسن الفرص لتنفيذ ذلك

وقد أعانها على ذلك ما أدركته من نصر أولى على الحلفاء فى الدردنيل فى ذلك الوقت

وقد عرف فيما بعد من الوثائق التى نشرها البلاشفة سنة ١٩١٨ أنه كانت هناك صله بين جمال باشا وبين الأرمن وانهم كانوا بسبيل حمل الحلفاء على الاعتراف به سلطانا على تركيا مقابل قضائه على الدولة وقد أخطأت تركيا مرة أخرى عندما عجزت عن استعمال الكياسة والحكمة مع العرب واستبدال هذا الأسلوب العدائى العنيف بأسلوب آخر تكسبهم به إلى صفها بدلا من أن تدفعهم إلى مخالفة خصومها

والواقع أن عرب سوريا برهنوا بجهادهم فى سبيل تحرير العنصر العربى وعزة الوطن على رجولة صادقة وإيمان ثابت ولاشك أن سوريا هى حجر الزاية فى بناء فكرة الوحدة العربية

وقد وقفت تركيا كذلك موقف الخصومة والتوجس من الشريف حسين فلم يقبل رغبته فى العفو عن المتهمتين وردته رداً عير جميل

فكانت كل هذه العوامل مجتمعة مدعاة (الشريف) إلى التفاهم مع الأنجليز والقيام بحركة يواجه بها هذا الظرف ، وهكذا ألقت المقادير الأمور فى يد (الشريف) وعجلت بأمر كان العرب أنفسهم يرونه لم ينضج بعد وأنه فى حاجة إلى جهاد وإعداد

عندما اشتد الخلاف بين العرب والأتراك وقدمت تركيا على صبغ هذا الخلاف بالدم فى سوريا وإعلان الحرب الكبرى ودخول تركيا فى صف المانيا كل هذا عجل باتصال العرب بالانجليز وعمل على إسراع العرب - بمجرد الإتفاق بعد المحادثات الأولى التى دارت بين الشريف ومكماهون إلى إعلان الثورة والانضمام إلى الحلفاء ومعاداة الأتراك ومن ثم وقعت المعارك الحربية بينهما

غضب العرب على موقف الترك منهم وتجاهلهم إياهم ، وذلك على أثر محاولة (التتريك) التى قام بها العثمانيون وإنشاء جامعة طورانيه تعيد مجد الأتراك القدماء

وبحكم وجود (الشريف) فى الحجاز ، وبحكم بروزه فى خصومه الأتراك ، القت الحوادث الأمور فى يده وزاد نقمة العرب واستفزازهم وسوق زعمائهم إلى المشانق والمنافى وقد تيقن الأتراك أن الشرارة الأولى ستندلع فى الحجاز فارسلوا إلى حدوده ثلاثة آلاف مقاتل ، فى الوقت الذى ظلت فيه دمشق مركز الحركة وقلبها الحى المتحفز

وكان فيصل حلقة الاتصال فى هذه الحركة بين العرب والترك وبين مكة والاستانة

اتصل (كتشنر) بالشريف فى أول الحرب يسأل عن موقف العرب . وقد ظهرت اذ ذاك نيات تركيا فى إنضمامها إلى المانيا ، ورغبت انجلترا فى مساعدة العرب وأخذت تقدم لهم الوعود للعمل على إنالتهم حرياتهم

فى سبيل إنضمامهم إلى صفها وأكدت انجلترا هذه الوعود رسميا بكتابات تبودلت بين الشريف وممثل انجلترا فى القاهرة (مكماهون)

وقد كان خليقا بالشريف أن يكون أكثر حيطة وحذراً من الانجليز المكره الدهاه الذين لايكنون للعرب والاسلام إلا كل عداء وخصومه ، والذين كانوا يريدون أن ينتهزوا فرصة الحرب لتقسيم تركة الرجل المريض و تمزيق هذه الدول الموحدة رغبة فى القضاء عليها

وقد ظهرت للشريف منذ اللحظة الأولى عوامل المماطلة والحقد ، فعندما تأكدت انجلترا من أن الشريف مأزوم وأنه قبل أن ينضم إلى الحلفاء أخذت تراوغه فى إعطائه وعداً واضحا صريحاً قاطعاً أو عهداً معلوماً واستمرت المخابرات بينه وبين مكماهون أكثر من عام كامل كان الأتراك خلاله قد مزقوا الجماعات العربية والأحزاب السياسية وسجنوا الكثير من الأحرار

وقد انتهى الإتفاق بينه وبين (مكماهون) وأمد الانجليز الشريف ببعثة عسكرية وكميات من الذخائر وأمدوه بالكابتن (لورنس)

وسيطرت هذه البعثة وسيطر لورنس على الجيش العربى كله وكانت لهم القيادة الفعلية والتوجيه الأعلى

وقد استجاب للشريف - عندما أعلن الثورة - الكثير من الشباب العرب من مختلف الأقطار الاسلامية ممن رغبوا فى الاشتراك فى حركة التحرير واقتحمت القوات كل شيء فى سبيلها (القوات من العرب والقواد من الانجليز) حتى وصل فيصل العقبة ١٩١٧ ووصل اللنبى فلسطين فى نفس العام

وفى هذا الوقت هاجمت انجلترا مواقع الأتراك فى العراق وقد حدثت مصادمات قويه جهة البحرين من القوات الهندية التى دفعت بها انجلترا للاستيلاء على أرض العراق وأبار البترول باسم حماية الهند وأرسلت على رأس هذه القوى الاستعمارى الطاغية (برسى كوكس) وظلت هذه المناوشات بين الأتراك والعراق من جهة والانجليز من جهة حتى اقتحم بغداد الجنرال مور سنة ١٩١٧ مما سنفصله فيما بعد

المكاتبات

اتصل (الشريف) بكتشنر أول الأمر ، فلما مهدت بينه وبين انجلترا ظروف الاتفاق تبودلت المكاتبات السرية بينه وبين ممثل انجلترا فى مصر (هنرى مكماهون)

(١) وأرسل الشريف كتابه الأول فى ١٤ يوليه ١٩١٥ وفيه يطلب الأمير العربى من انجلترا أن تعترف باستقلال البلاد العربية من (مرسين - اطنه) حتى الخليج الفارسى شمالا . ومن فارس حتى خليج البصرة شرقا . ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا (مع استثناء عدن) ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى (سيناء) غربا على أن توافق انجلترا أيضا على إعلان خليفة عربى على المسلمين .

وقد ذكر (الشريف) أن حكومته تعترف بأفضلية انجلترا فى كل مشروع اقتصادى فى البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساويه

وقد ذكر أيضا أن الحكومتان العربية والانجليزية يتعاونان على مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظا لاستقلال البلاد العربية وتأمينا لافضلية انجلترا فيها على أن يكون التعاون فى كل شيء ، فى القوة العسكرية والبحرية والجوية .

وقد وصل الرد الانجليزى فى ٢٤ ـ أغسطس ١٩١٥ وكان غامضا يتهرب من مسألة الحدود

فارسل الشريف حسين بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩٤٥ مذكرة أخرى فجاءه رد (مكماهون) فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥

من مكماهون

ومما جاء فيه ، أن انجلترا مستعدة أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التى اقترحها شريف مكة ،

« إن مرسين واسكندرونه وبعض الأقسام السورية الواقعة فى غربى دمشق وحمص وحماه وحلب، لايمكن أن يقال عنها أنها عربية محضه فيجب أن تستثنى من الحدود على أساس هذه التعديلات على أن لاينقص شيئا من اتفاقاتنا مع الزعماء العرب » .

« أما الأراضى التى تسطيع انجلترا أن تعمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع ضرراً بحليفتها فرنسا فان لى السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة أن أعطيكم التأمينات التالية جوابا على كتابكم »

« إن انجلترا مستعدة أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التى اقترحها شريف مكة »

« تحمى انجلترا الأراضى المقدسة من كل اعتداء خارجى وتعترف بوحدتها »

« تقدم انجلترا كل مساعدة أو نصحية تلزم ، وتعاونهم فى تشكيل أفضل الحكومات فى مختلف البلاد العربية »

« هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان العرب يوافقون على الاقتصار على استشاره ومعونه وإرادة بريطانيا وحدها » .

« أما فيما يتعلق بولايتى البصرة وبغداد فان العرب يعرفون أن قرار انجلترا ومصالحها فيها تتطلب شكلا إداريا خاصا ومرافق خاصة للمحافظة على تلك الانحاء من الاعتداء الخاجى

من الشريف

أرسل فى ٥ نوفمبر ١٩٤٥ يتنازل عن ضم مرسين وأدنه إلى المملكة العربية ويقول « عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا هى حليفتهم لاتدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب وعقد معاهدة الصلح وتمد يدها لمساعدتهم عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة .

من مكماهون

وأرسل (مكماهون) فى ١٣ ديسمبر ١٩١٥ يقول :

« إن حكومة بريطانيا مستعدة لأن تعطى كل المساعدات التى فى وسعها للملكة العربية ولكن مصالحها فى ولاية بغداد تطلب إدارة ودية ثابتة ، ولسنا نرى أن ندفعهم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم

ولكننا فى الوقت نفسه نرى من الضرورى جدا أن تبذلوا كل مجهوداتكم فى جمع كلمة الشعوب العربية إلى إلى غايتنا المشتركة ، وإن تحثوهم على أن لايمدوا يد المساعدة لأعدائنا بأى وجه كان

وإن حكومة بريطانيا قد فوضت إلى أن أبلغكم ودولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا لاتنوى إبرام أى صلح كان ، إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية

وأرسل الشريف فى أول يناير ١٩١٦ خطابا إلى مكماهون موافقا على ماجاء فى خطابه السالف

وأرسل مكماهون إلى الشريف فى ٣٠ يناير ١٩١٦

« الآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا فى الدفاع عن الحقوق والحريات . « فأننا سررنا للحركة التى تقدمون بها لاقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا »

من مكماهون

وارسل (مكماهون) فى ١٠ مارس ١٩١٦ يقول

« إن حكومة جلالة الملك قد صادقت على جميع طلباتكم . وإن كل شىء رغبتم الأسراع فيه وفى إرساله فهو مرسول لكم مع حامل هذا ، والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة إلى مكة وتبقى فى (بورت سودان) تحت أمركم لحين إبتداء الحركة وإبلاغنا إياها بصورة رسمية كما ذكرتم بالمواقع التى يقتضى سوقها إليها ، والوسائط التى سيكون حاملوا الوثائق لتسليمها إياهم .

اتفاقية (حسين ـ مكماهون)

وهذا من أهم ما جاء فى المعاهدة :

١ ـ تتعهد بريطانيا بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معانى الاستقلال فى داخليتها وخارجيتها على أن تكون حدودها شرقا من خليج فارس ومن أبواب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض وشمالا حدود ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجتمعه مع الدجلة عند مصبها فى بحر فارس ماعدا مستعمرة عدن فإنها خارجة عن هذه الحدود وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات التى أجرتها بريطانيا العظمى مع أى شخص كان من العرب فى داخل هذه الحدود فى رعاية وصيانة تلك الحدود وتلك الاتفاقية

٢ ـ تتعهد بريطانيا بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أى مداخله كانت ، وبأى صورة فى داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أى تعد بأى شكل يكون حتى ولو وقع خصام داخلى من دسائس الأعداء قد يساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع هذه الثورات الداخلية وتكون مدتها محدودة أى لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها الداخلية .

٣ ـ تكون البصرة تحت أشغال بريطانيا لحين يتم للحكومه الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية ويعين من جانبها مبلغا من النقود ترعى فيه حال الحكومة العربية التى هى قاصرة على حصه بريطانيا وتلك المبالغ تكون فى مقابلة تلك الأشغال

٤- تتعهد بريطانيا بالقيام بكل ما تحتاجه ربيبتها الحكومة العربية من الأسلحة ومهماتها والذخائر والنقود مدة الحرب

٥- تتعهد بريطانيا مدة الحرب بقطع الخط الحديدى من مرسين أو ماهو مناسب من النقاط فى تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها .

الموقف بين العرب والانجليز

١ - أعلن الشريف حسين الثورة وأصدر منشوره إلى العالم الاسلامى فى ٢٦ يونيو ١٩١٦ وبدأت الحرب بينه وبين الاتراك وأسرع الانجليز فحصروا الحركة العربية فى دائرة ضيقة لا تتعدى الحجاز ، وقد كان الانجليز لا يريدون أن تتسع ويكفى فى نظرهم أن تؤدى غرضها الذى أرادوه بها وهو قيام الخصومة بين الأتراك والعرب والمعروف جيداً أن غنم الانجليز من الثورة كان أكبر من غنم العرب فقد وضعت يدهم فى يسر وسهولة على فلسطين والعراق والشام .

٢ - عامل الانجليز الشريف معاملة سيئة ولقى منهم تصرفات غير لائقة قبل انقضاء الشهر الأول على اتصاله بهم بالتنكر والاهمال ، وقد عرف بوضوح أن الانجليز كلما رجحت كفتهم أهملوه وإذا رجحت كفة الأتراك أجابوا مطالبه .

٣ - أقام الانجليز والفرنسيين العقبات فى وجه الجيش العربى عملا على الحد من توسعه وحاولوا حصره فى الحجاز وعارضوا فى احتلاله المدينة لكيلا تتسع الحركة العربية .

٤ - أعلنت الثورة إرتجالا بغير إعداد لها ، فقد كانت المرحلة الأولى للاعداد والاستعداد لم تتم بعد بل إن الحركة الفكرية نفسها لم تكن قد اكتملت وتشعبت والتشكيلات الداخلية لم تكن نظمت بالشكل الذى يسمح لها بالقيام بحركات قوية منظمة وانتقلت المعركة سريعا من خصومة بين العرب والترك إلى خلاف بين العرب والانجليز وصلت به العراق وفلسطين وسوريا ولبنان غنيمة باردة إلى أيدى الحلفاء .

٥ - ظهر تآمر الحلفاء على العرب واضحا جليا وظهر إلى جواره انخداع الشريف وأبنائه بالانجليز وقد استطاع الانجليز أن يضربوا العرب بالترك والترك بالعرب ونجحوا فى ذلك إلى حد كبير وكان لذلك أثره فى ثورة المشاعر الاسلامية فى مختلف الأقطار بالنسبة لدولة الخلافة وانتهت المسألة أخيرا إلى أن استخلص العرب بلادهم وسلموها للانجليز والفرنسيين .

٦ - مع أن كتب (مكماهون) صريحة فى أن حدود المملكة العربية الجديدة تشمل فلسطين وسوريا والعراق فقد أنكر الانجليز والفرنسيون على الشريف أن يلقب نفسه (ملك العرب) وبلغوه رسميا أنهم لا يعترفون به إلا ملكا على الحجاز وحده ولم يخاطبوه بعد الثورة إلا بهذا اللقب .

وقد بدأت المعارضة فى تلقيب الشريف بملك العرب فى ٣ ديسمبر ١٩١٦ ولكن الشريف نادى بنفسه

ملكا على العرب و بويع بذلك وأبرق مكماهون إلى الشريف معربا عن عدم موافقة بريطانيا فأرسل إليه الشريف يقول أنه إنما فعل مافعل نزولا على رغبة كبار قومه وعلمائهم وأنه مستعد للتنازل عن اللقب إذا كانت انجلترا لا تقره

٧ - أصدر (الشريف) بلاغه إلى العالم الاسلامى وأرسل إلى وزارة الخارجية البريطانية فى مصر فحجزه الانجليز وقتا طويلا ومنعوا إبلاغه بنصه ثم أذاعوه مغيرا عن أصله بعد أن رفعت منه المعانى القوية التى تحفز على التطوع للثورة .

٨ - يأخذ التاريخ على الشريف أنه عاهد الانجليز على المحافظة على الحكومة الجديدة التى كان يزمع الانجليز أنشاءها وحمايتها وصيانة حدودها على أن يقدم له الانجليز ما يحتاج إليه من مال ونفقه وأرزاق وميرة وسلاح ومعنى هذا إنه قبل انشاء حكومة غير مستقلة تقوم تحت حماية الانجليز .

والواقع أن كثير من اليقظين قد نبه الشريف إلى تآمر الانجليز ومكرهم ودهائهم وآلاعيبهم وعدم حفظهم للعهود أو إقرارهم للمواثيق ، وقـــدرتهم على فسخها والتلاعب بألفاظها ، وتغيير نصوصها بما يتفق مع أغراضهم ولكن الشريف لم يعبأ بهذه التوجيهات واعتقد فيهم الوفاء والاخلاص ولم يقر بغير ذلك إلا بعد أن شعر بوطأة المؤامرة

٩ - يقول الأمير فيصل فى ١٥ فبراير ١٩٢٠ فى حديث مع جريدة المفيد الدمشقة (لما كنت فى لندن ، قدمت صورة من هذه المعاهدة التى تقررت مع الانجليز إلى رئاسة مجلس الوزراء البريطانى فأنكرت وجودها كل الأنكار وقالت أنه لا يوجد عهد ولا كتاب ينطق بهذا التصريح) وهكذا (لم ير العرب بعد انتهاء الحرب وبعد أن وضع الانجليز أيدهم على العراق وفلسطين وسيلة للخروج من الموقف الذى صاروا إليه مع العرب سوى إنكار هذه العهود وتجاهلها والادعاء بأنهم لم يقطعوها أو لم يتعهدوا بها).

١٠- والعجيب أن بوادر الارهاصات بخديعة الانجليز وتآمرهم على المسمين بهذا « الأسفين » الذى حملوا به العرب والاتراك وكلاهما مسلمين على القتال والفناء وكان الكسب فيه للصليبية الانجليزية والفرنسية، هذه البوادر كانت واضحة ودليلها تصريح عزيز المصرى إذ ذاك بهذا التعبير الجرى

« يلوح لى أن الانجليز يريدون القضاء على العرب والترك فى وقت واحد وذلك بأن يتركوهما مهملين حتى يفنوا بعضهم بعضا فلا يرسلون القوى والمعدات لنضرب الأتراك الضربة القاضية ولا هم يتركوننا وشأننا فيقضى الترك علينا .

١١- استمرت انجلترا نحو أربعة أشهر لا تمد الحسين بالقوى والمعدات ، وقد قاسى الحسين خلالها ألوانا مظلمة سوداء من مطل الانجليز وتسويفهم فقد عرف أن بين قادة الانجليز من يقاوم الحركة العربية .

١٢- بدأت الثورة فى مكة صباح ١٠ يونيو ١٩١٦ بأن أطلق الشريف رصاصة من قصره على قشلاق الترك فكانت الاعلان الرسمى للثورة العربية .

وألقت الطائرات فى سماء جده على معسكر الترك منشوراً جاء فيه .

١ ـ إن مكة المكرمة والطائف أصبحتا فى يد دولة أمير مكة المعظم الشريف حسين بن على .

٢ ـ الحركة ليست لتأسيس خلافة عربية إسلامية ، وإن العرب لا يكرهون الترك من حيث هم لأنهم مسلمون مثلهم وإنما يريدون التخلص من الحكومة الاتحادية الجائرة .

١٣ـ هذه بعض نصوص من منشور الشريف العام الصادر فى (٢٦ يونيو) قد كتبه الشريف حسين بنفسه ووزعه واختصره الانجليز وضيعوا معالمه ونشروه مشوها .

١ ـ الاتحاديون ـ حادوا عن صراط الدين ومنهج الشرع الشريف ، وسلبو شوكه السلطان المعظم ، وأسرفوا فى أموال الدولة وحملوها الديون الفاحشة ، وفرقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية بالقوة القاهرة ، وخاضوا بالدولة والأمة غمرات هذه الحرب الأوربية فوقفوا بالدولة موقف الهلكة واتخذوها ذريعة للفتك بجميع المخالفين لرأيهم ، والتنكيل بالعرب .

نشروا الصحف والكتب التى جاهرت بالطعن فى الاسلام ، وانتقاص الرسول والخلفاء ككتاب (قوم جديد) ، وتحريف نصوص الكتاب والسنة ، وأبطلوا التزام الصـــلاة ، واستحلوا قتل المسلمين والذميين بغير محاكم شرعية أو حكم .

أما ماخصوا به العرب من الاضطهاد فهو أعظم ماجنوه على الدين والدولة ، حاولوا قتل اللغة العربية فى جميع الولايات بابطالها من المدارس ومنعها من الدواوين ، قتلوا كبار رجال الدولة العربية ، صادروا أموال مالا يحصى من الناس ، نفوا كثير من الأسر إلى بلاد الأناضول .

١٤ـ تآمر جمال مع الحلفاء على أساس القيام بحركة انفصالية وسعى لاقامة مملكة يتوارثها أبناءه من بعده وقد دارت بينه وبين الحلفاء مكاتبات وانتهت بالفشل .

١٥ـ بدأ الحلفاء يتآمرون على العرب بالمفاوضات التى كانت تجرى فى سرعة عجيبة بين روسيا وانجلترا وفرنسا لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية ، وفى الوقت الذى كان الانجليز يحرضون الشريف على الثورة كانوا يقيمون هذه المملكة العربية التى وعدوه بها ، وكانت المفاوضات تدور فى القاهرة بين السر مارك (ساكس) المندوب الانجليزى لشئون الشرق العربى والمسيو جورج (باكو) المندوب الفرنسى لشئون الشرق الأدنى للاتفاق على تقرير مصير البلاد العربية واقتسامها وكان يشرف على هذه المحادثات مسيوسازانوف معتمد روسيا العام فى القاهرة .

(٢) كانت رغبة الانجليز فى اخراج الساحل الشامى من حدود الدولة العربية الوهمية التى تعاقدوا مع الشريف عليها فى كتابهم فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ إنما كان مرماها ومغزاها قبول انجلترا بتسليم هذا الجزء لفرنسا

(٣) اقتنع الانجليز بأنه فى الامكان اقناع الشريف بقبول ملك الحجاز فحسب ، وعملوا على عقد تسوية على مسائل سوريا والعراق فيما بينهم .

١٦ - سعى الانجليز إلى تعويض الفرنسيين على الساحل - عن أساس التهام انجلترا له - بمستعمرة (نيجريا) الغنية فى أفريقيا فلم يقبلوا عن سوريا ولبنان عوضا (تلبية لطلاب مسيحيها ورعاية لتقاليدهم وبمالهم من مصالح اقتصادية ومدارس فى بيروت)

١٧ - وقفت انجلترا وحلفاءها بعد الحرب موقفا أملته القوة وحدها ولم يمله العدل فهى قد أعطت وعوداً لفرنسا باحتلال سوريا ولليهود بالهجرة إلى فلسطين وللشريف بانشاء حكومة عربية ثم وضعت مع تركيا معاهدة سيفر ولكن الذى تحقق من هذه الوعود والمعاهدات هو ما أملته القوة فقد نفذ اليهود وعدهم بالقوة، وألغى الأتراك معاهدة سيفر بالقوة، واحتلت فرنسا سوريا بالقوة ، أما العرب فهم أصحاب الوعد الوحيد الذى لم ينفذ ، ذلك لأن العرب اعتمدوا على (حسن النية) الموهوم فى انجلترا فكان نصيبهم الاخفاق وكذلك كان شأن المصريين الذين افتتحوا بعد الحرب عهدا جديداً من عهود الصداقة والتحالف فكان نصيبهم ونصيب العرب الغبن والظلم والاجحاف وكما استلبت انجلترا حق مصر فى الحرية بعد انهيار سلطة الأتراك بعد أن وعدت خلال الحرب بالمحافظة عليها حتى تسلمها للمصريين كاملة بعد الحرب ، كذلك اعتبر الانجليز اتفاقهم مع الشريف قصاصة ورق ، ولم يتورعوا عن أن يقدموا له مشروع معاهدة بعد الحرب لاتعترف به إلا ملكا للحجاز فحسب ، وقد ارتاع الشريف فعلا لحادثين خطيرين فجأته بهما انجلترا دون أن يحسب لها حسابا هما : معاهدة سكس باكو التى قسمت سوريا وأعطت منها جزءاً لفرنسا ولتصريح بلفور الذى اباح لليهود استيطان فلسطين

وهكذا تنكر الانجليز لعهودهم التى أعطوها خلال الحرب ، والتى قصدوا بها إلى استغلال العرب والمصريين للقيام بمعاونة الامبراطورية فى وقت الشدة فحسب

وقد وصل العرب والمصريين إلى هذه النتائج لضعف خبرتهم بمؤامرات السياسة وللثقة العمياء التى وضعوها فى دولة مجرمة آثمة لاترعى عهدا ولا تحفظ وعـــداً ولا تقول كلمة تصدق فيها إلا إذا كانت القوة هى التى تدفعها إلى تنفيذها

١٨ - أرسل الانجليز إلى الشريف بعثة عسكرية رافقت الجيوش العربية فى حركة زحفها وعلى رأس هذه البعثة الانجليزى الداهية (لورنس) الذى كان فى الواقع قائد الحملة الفعلى وسفير انجلترا الغير رسمى فى الحجاز . ويشبه هذا الموقف فى نظرى موقف الانجليز تماما فى استعادة السودان فقد أرسلوا بعثة عسكرية وعلى رأسها (كتشنر) جعل لها قيادة الجيش المصرى الزاحف إلى السودان وبهذا الجيش المصرى وضعت انجلترا يدها على السودان دون أصحابه كما وضعت انجلترا يدها على البلاد العربية بالجيش العربى دون أربابها وكأنما قدمنا الجيوش المصرية العربية ، هذه الجيوش التى جاهدت واستشهدت حتى أعادت البلاد ، لتسلم هذه البلاد إلى الانجليز أخيرا

وهكذا ضرب الانجليز الأتراك المسلمون أصحاب الخلافة بأيدى العرب المسلمين ، وقاتل المسلمون المصريين سكان الشمال إخوانهم المسلمين السودانيين سكان الجنوب ليؤول كل هذا فى النهاية إلى انجلترا فتتحكم فى أهله وتفرض إرادتها عليهم وتعتبر أنفسها وصية على أصحاب الأوطان !

١٩- ادعى لورنس طويلا أنه نصير العرب ، وليس هذا إلا الكذب والبهتان ، فإن كل انجليزى إنما يؤدى واجبه للامبراطورية وما أظهاره الصداقة للعرب إلا محاولة التمكن بالخيانة فهى الحيل والأحابيل والأكاذيب يصطنعها الانجليز لتغرير العقول وتضليل الناس ، وما مثل لورنس فى الحجاز إلا كمثل بلنت فى مصر ومثل (فلبى) ، أعداء يلبسون ثوب الأصدقاء

جاء لورنس لكون رقيب الانجليز والحلفاء على خطط العرب وعلى تصرفات الشريف وفيصل ، وكان لكل معسكر وجهة فالعرب كانوا يريدون الوحدة العربية والشريف كان يريد تتويجه ملكا على العرب وخليفة على المسلمين وكان بلنت يقول دائما فى معرض الدعاية له

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده ليعود أكمل فى النظام وأجملا

أما وجهة الحلفاء فقد كانت تتلخص فى العمل على تمزيق الامبراطورية الاسلامية وإثارة النعرات العصبية فيها . وهم لهذا سرعان ماحولوا تيار الثورة وسرعان ماقصروها على الحجاز بعد أن أعلنها الشريف بوقت قصير وسرعان ماسار مع الجيش العربى الطامح فى الحرية والقوة ضباط الجيش الانجليزى

٢٠- من الثابت الذى لايقبل الشك أن الانجليز وغير الانجليز كانوا يضمرون تقسيم هذا التراث ، وتمزيق هذه الوحدة القائمة من حدود الخليج الفارسى إلى حدود الأناضول ومن البحر الأبيض إلى الرافدين حتى لا تقوم فيه أمة واحدة ولا تدين بزعامة واحدة

فكما هدم الانجليز الخلافة الاسلامية فى تركيا وبقى للناس الأمل فى الوحدة العربية الحوا عليها بالهدم رغبة فى خلق قوميات قليلة ضيقة ، تتحكم فيها النزعات القبلية ، والدوافع الجنسية وتوقظ الوراثات البائدة كالفرعونية فى مصر والفينقية فى سوريا والأشورية فى العراق وهكذا

٢١- ظل العرب يجاهدون ثلاث سنوات كاملة فما أن دخلوا سوريا وفلسطين بعد العناء الشديد حتى واجه اللورد النبى (قائد الجيوش الانجليزية) الأمير فيصل بالواقع الأليم وأعلن بأن هناك معاهدة بين انجلترا وفرنسا لتقسيم سوريا وفلسطين والعراق ، واحتج فيصل بشدة ولكن الواقع الأليم كان فى اليد التى تفرضه بالقوة وليس فى يد المنطق والاقناع والحق الأعزل

٢٢- سافر فيصل إلى مؤتمر الصلح ليقدم احتجاجه وقد أذن له بعد لأى وجهد فى إسماع صوته للمؤتمر ولكن الفرنسيين استطاعوا أن يدسوا إلى المؤتمر أذنابهم فى سوريا فقد تكلم (شكرى غانم) بعد أن تكلم فيصل وطلب إشراف فرنسا على حكم سوريا وطالب (أميل اده) باستقلال لبنان الادارى تحت إشراف فرنسا وطلب آخر أن يحكم السوريون سوريا

وقد نجحت هذة المؤامرة فأدت إلى اعتبار أن هناك آراء مختلفة واتجاهات منوعة وتيارات مضطربة فاقترح المجلس إرسال لجنة تحقيق . ولجان التحقيق هذه من أكبر المهازل الاستعمارية التى يقصدبهاضياع الحقوق على أصحاب الحقوق وكسب الوقت للظالمين

٢٣- إن (١) طمع الانجليز فى احتلال فلسطين والعراق وطمع الفرنسيين فى احتلال الشام جعلهم يقاومون تقدم العرب ويعملون على تضييق دائرة عملهم فلا تتجاوز الحجاز ولولا ميل الأمير فيصل الشديد إلى إنقاذ الشام وإلحاح جيشه عليه وتهديده بالعصيان لما أجازوا له التحول إلى الوجه ولما وصل العقبة ولظل يدور فى الدائرة الضيقة التى رسموها له وهى الحجاز

الخلاف بين الهاشميين والسعوديين

الهاشميون من الحجاز . والسعوديون من نجد . وكلاهما سكان جزيرة العرب وبين جزيرة العرب من قديم خلاف وتنازع وتنافس .

والسعوديون أصحاب دعوة ولهم مطامح فى أن يكتسحوا جزيرة العرب كلها بدعوتهم ويفرضوها على الحرمين الشريفين ، ويعتقدون أن كل خارج عنها غير سليم فى دينه، وكانوا يعتقدون ذلك فى آل مكة وكان تزعجهم روح التكريم التى يضفيها الناس على الموتى والقبور ، وما يحوطها ذلك من قباب وشموع وأبنية

أما الهاشميون فكانوا يعتبرون أنفسهم سادة الحرمين وأن مركزهم الدينى قائم على القربة وأن أمارة مكة وراثة فى أهليهم وقد بلغ أولئك فى تشددهم حداً بعيداً وبلغ هؤلاء فى مغالاتهم إلى أبعد حد

وهذا الخلاف فى ذاته قديم منذ سنة ١٨٧٥ فقد كان الشريف غالب يحاول القضاء على عرش آل سعود ودعوته وكان الأشراف يريدون القضاء على أى سلطة أو نفوذ للوهابيين فى جزيرة العرب

وأصبحت الحرب سجالا بين (الشريف) و (السعود) وقتا طويلا وهاجمت الدعوة أطراف الحجاز مرات وعرف فى الأغلب أن حالة الأمن فى عهد الشريف لم تكن مطمئنة كثيراً

وعند ما إنضم شريف مكة إلى الحلفاء اتصل الود بينه وبين إمير نجد غير أن رغبة الشريف التى أعلنها بجعل نفسه ملكا على العرب ضايقت (ابن السعود) وانتهى ذلك إلى قطع العلاقات مرة أخرة لاعتراضه على اللقب ، وأخذت المساعى تبذل للتوفيق فلم تصل إلى نتيجة ما

وعقدت انجلترا لتسوية النزاع وحسم الخلاف بينهما مؤتمر الكويت ١٩٢٣ ففشل وقد كان للدعوة الوهابية بعض أثرها فى نفوس القبائل المتاخمة للشريف فأسرعت إلى نجدة سعود وكان موقفها بالنسبة للشريف غير ما كان يتوقع أو ينتظر

وهنا بدأت محاولات سعود لاحتلال الحجاز وقد بدأت فى ٤-٦-١٩١٩ لولا أن وجه له الانجليز انذاراً بإيقاف هذه الحركة

أما ابن السعود فقد اتصل بالانجليز فى مايو ١٩٠٤ بواسطة (برسى كوكس) المندوب الانجليزى بالخليج الفارسى .

---

(١) (ص ٢٧٦ - ١) الثورة العربية لابن سعيد

وقد عرف الانجليز منذ ١٩٠٦ أن (ابن السعود) سيكون له فى شبه الجزيرة شأن وقد أرسل برسى كوكس فى ١٦-٩-١٩٠٦ إلى حكومة الهند مذكرة يطلب فيها وضع سياسة ثابتة مع الأمير ومما قاله أن ابن السعود يساعد الانجليز على وضع حد للقرصنة فى شمال الخليج ، وإن تدخل الأتراك فى شؤون أواسط بلاد العرب سيدعو إلى توحيد كلمة القبائل تحت زعامة ابن سعود فعلى انجلترا أن تسارع إلى اقتناص هذه الفرصة .

ولكن حكومة الهند أرجأت هذا الاقتراح رغبة فى عدم التدخل فى الوقت القائم — إذ ذاك — خوفا من تعكير صفو العلاقات بين انجلترا وتركيا ، ورأت أن يكون ذلك بعد أن يتم تفاهمها مع روسيا على إيران ، ومع تركيا وألمانيا على خط سكة حديد بغداد .

* * *

وفى الوقت الذى كان هناك انجليزى يعاون (الشريف) هو لورنس الذى عمل على ادخال تلفيقات الوهم والخداع فى نفوس العرب ، كان هناك برسى كوكس نصير ابن السعود والعامل الجد على تحطيم مركز الشريف

وقد ظهر ذلك فى اجتماع ٢٣ مارس سنة ١٩١٨ عند ما عقد مؤتمر القاهرة للبحث فى المسألة العربية برئاسة (ريجنلد) المندوب الانجليزى بالقاهرة ، وقد دافع برسى كوكس عن رأيه فى استحالة تكوين إتحاد عربى تحت زعامة الشريف وان ابن السعود يشك كثيراً فى نيات الشريف ، وأن بينهما غيرة وتنافسا ، وأن ابن السعود لن يقبل زعامة الشريف مع اعتراضه على تلقيبه بملك العرب

* * *

عرف (الشريف) بصلابته ووقوفه فى وجه (ابن السعود) وعدم تقديره قوة النجديين وشعورهم ، والنجديون الذين لم تنكس لهم راية ولم ينكسر لهم جيش فيهم غزور وأنفه وفى الأشراف اصرار على اعتبار (ابن السعود) ليس إلا رجل بدوى أو شيخ عشيرة (١)

وفى سنة ١٩٢٢ ساءت العلاقات بين الملك حسين والانجليز عند مارفض توقيع المعاهدة التى قدموها إليه ، وكره الهنود موقفه من الاتراك ، وكان تجاهله عن تأمين الطريق بين مكة والمدينة له أكبر الأثر فى شعور الحجيج من مختلف الاقطار بالنسبة للشريف .

وإلى تغير موقف الانجليز من الشريف عند ما رفض المعاهدة يرجع أبعد الاثر فى إيقاعها بينه وبين ابن السعود فقد أعانت على اشعال الحرب بينهما كما فعلت من قبل بين الأتراك والعرب

وكان لهذه الخصومة أثرها إذ إمتنعت عن عون الشريف عند ماهجمت جموع النجديين الحجاز وقد حرضت عليه كل قبيل وأثارت عليه حملة عاصفة وهيأت له جواً ملبداً مما قضى على سلطانه وأطاح بعرشه كما سنفصله فيما بعد .

---

(١) كتاب جزيرة العرب ص ٢٤٩

انتهز السعوديون فرصة الأزمة التى وقع فيها الشريف مع الانجليز واتخذ من موسم الحج مناسبة وتعله وهاجم الاخوان الحجاز فى أغسطس سنة ١٩٢٤ وأدى ذلك إلى خلع الحسين والمناداة بالملك على فى أكتوبر سنة ١٩٢٤ بعد انسحاب الهاشميين إلى جده .

وتوسط الحزب الوطنى الحجازى إلى أبو السعود فأجابهم بأنه (لا يمكن نشر روح السلام فى الجزيرة مطلقا مادام الحسين وأولاده حكام الحجاز وأنه لا يقصد الطمع فى امتلاك الحجاز والتسلط عليها ولهذا فهو يترك للعالم الاسلامى أمر تلك البلاد المقدسة ... وختم كلامه فقال (وإذا خرج الحسين وأولاده فأنتم آمنون فى بلادكم) وهكذا أعلن الملك عبدالعزيز أنه سيجعل أمر البلاد الاسلامية شورى بين المسلمين حقنا للدماء وانهاء للقتال .

بين الشريف والانجليز

بينا فيما سبق من القول أن الانجليز بدأوا الشريف بالإساءة وكشفوا له الخديعة بعد أن أعلن الثورة واطمأنوا إلى أن الحرب قد اشتعلت بين المسلمين التركى والعربى وقد تولى توجيه دفة السياسة الانجليزية بمؤامراتها رجل خائن اسمه (لورنس) إدعى أنه صديق العرب وقد كشفت الأيام عن خبيئته عندما ألف كتابه عن بلاد العرب وسب كرامتهم واتهمهم بكل نقيصة ، وليس هذا بعجيب ، فكثيراً ما صرح تصريحات حملت معنى الالتواء والعدوان والنية المبيتة ضد العرب كقوله (إنها (أى انجلترا) ستحافظ على كلمتها لفظاً ومعنى وأن العهد المتأخر ينسخ العهد القديم)

ولكن الذى يحز فى النفس ويزعج المؤرخ ، هو هذا الاستسلام العجيب من الشريف وكتائبه لهذا الرجل وانقيادهم له وأكبارهم وتصديقهم لدولته دون تحفظ أو احتياط .

وقد بدأت حلقات الخلاف بين الشريف والانجليز مبكرة فى ٢٩ أكتوبر ١٩١٦ عندما أعلن الشريف نفسه ملكا على العرب واحتج لذلك (أبو السعود)واضطر الانجليز تحت ضغطه إلى عدم الاعتراف بهذا اللقب

وقد أدى الشريف وكتائبه الجهد الكبير فى استخلاص الحجاز وفلسطين وسوريا من أيدى الأتراك طمعا فى تحقق آمالهم فى إقامة الدولة العربية ، ولكن الأمور تكشفت لهم على وجهها الصحيح بمجرد أن ألقى الجنود سلاحهم ١٩١٧ قد اتضح أن هناك وعدين أعطيا وهما نافذين لا محاله وأنهما كما قال الخائن لورنس من العهود المتأخرة التى تنسخ العهود القديمة .

ذلك هما (١) معاهدة سكس باكو بين انجلترا وفرنسا على تقسيم فلسطين وسوريا والعراق وقد وقعت سنة ١٩١٦ وظلت سراً مكتوما إلى أن ألقى الروس صوراً منها معسكر العرب فكذبها لورنس وقال أن أمراً كهذا لم يتم بعد .

(٢) تصريح بلفور ٢ سبتمبر ١٩١٧ والعجيب أن التصريحين كانا بيد الأشداء الأقوياء القادرين فقد نفذ

الفرنسيين معاهدتهم بالقوة وأخرجوا فيصل بعد تتويجه ملكا على دمشق وحطموا قوة العرب بمعركة ميسلون بالغدر والبغي .

واستولى اليهود على فلسطين وبدأت هجرتهم إليها بقوة السلاح والمال .

هنا تحرج الموقف بين الشريف والانجليز فحاول الانجليز تصفية ما بينهم وبين الملك حسين بمعاهدة سياسية وقد قدروا أنه يكفى أن يكون ملكا على الحجاز فحسب ، وقد حاول هذه المحاولة (الكولونيل لورنس)

وقد رفض الشريف هذه المعاهدة لوجود مواد تتضمن قبوله للحالة الجديدة القائمة فى سوريا وفلسطين وقد جاء فى هذه المعاهدة المادة التالية .

(إن جلالة الملك حسين يعترف بالمركز الخاص لصاحب الجلالة البريطانية فى العراق وفلسطين)

وقد أعلن الشريف رأيه أزاء مسألة فلسطين والصهيونية بدون تحفظ حتى صرح متحدث رسمى بلسان الحكومة البريطانية (بأن الحكومة لم تطمئن إلى موقف الملك حسين الجديد (الخاص بمقاومة الصهيونية فى فلسطين) إذ كتب فى جريدة القبلة فى ٢٩ أكتوبر ١٩٢٢ يقاوم وعد بلفور ويشجع الأحزاب العربية مما دعا إلى أن يصرف الانجليز النظر عنه)

المفاوضات

فى عهد وزارة العمال (مكدونالد) ١٠ ديسمبر ١٩٢٣ اعلن ان المفاوضات الدائرة بين وزارة الخارجية ومندوب ملك الحجاز انتهت ، وأن انجلترا تخير العرب بين أمرين

فإما أن تدخل فلسطين فى المعاهدة وينص فيها على قبول وعد بلفور بعد تفسيره تفسيرا رسميا بأنه لا ينطوى على إنشاء حكومة يهودية فى فلسطين التى تكون موطنا عاما لليهود يلجأون إليه متى شاءوا وذلك طبقا للكتاب الأبيض

(٢) وأما إخراج فلسطين نهائيا من المعاهدة والسكوت عنها وإنشاء الاتحاد العربى من العراق وشرق الأردن والحجاز .

ولكن الشريف رفض ذلك وطالب بمفاوضات جديدة بأن ترسل إليه انجلترا مندوبا بريطانيا إلى الحجاز أو يرسل هو مندوبا حجازيا إلى لندن فأجيب بأن (معتمد بريطانيا فى جده هو الواسطة المثلى للمخاطبات بين الحكومتين)

وأخذ مندوب الشريف يسافر إلى لندن (يوليو ١٩٢٣) ويعود إلى مكة (يونيو ١٩٢٤) ثم يعود إلى لندن (سبتمبر ١٩٢٤) ثم وصلت الأنباء قبل أن يصل إلى لندن بمهاجمة السعوديين للحجاز واحتلالهم الطائف فتنازل الملك حسين بسقوط مكة وعلى أثر ذلك أذاعت لندن فى ١٥ أكتوبر ١٩٢٤!

« إنه بالنظر إلى تنازل الحسين عن الملك فليس فى وسع الحكومة البريطانية أن تواصل المفاوضة !!!) وبذلك اعتبرت انجلترا نفسها فى حل من الوعود التى قطعتها للشريف ، واعتبرتها وعود شخصية فى حين أنها عهود قطعت للعرب وليس للشريف

شروط المعاهدة

فى المعاهدة التى قدمها الانجليز للعرب تشابه عجيب مع مشروع ملنر ، وبين هذه الخطط التى اتبعت فى مصر تقارب يشبه الاجماع على خطة واحدة ومن هذه الشروط التى قدمت للشريف :

« يعترف صاحب الجلالة الهاشمية بالمركز الخاص الذى للجلالة البريطانية فى العراق وشرق الأردن وفلسطين ويتعهد بأن يبذل غاية جهده فى التعاون مع الجلالة البريطانية على القيام بتعهداته فى المسائل التى تقع ضد نفوذ جلالته الهاشمية بشأن هذه البلاد »

ومن هذا النص يتبين مدى ماقى هذه المعاهدة من أجحاف ومدى الوضع الذى يريد الانجليز أن يضعوا فية المسألة الاسلامية العربية

وقد عرض الانجليز على الشريف بالنسبه لفلسطين

(١) إنشاء حكومة عربية فى فلسطين يرأسها الأمير عبد الله

(٢) تكون العربية والعبرية لغتين رسميتين لهذه الحكومة

(٣) تخضع اليهود لهذه الحكومة ويساعدون فى إنشائها

(٤) تحدد الهجرة الصهيونية إلى فلسطين بنسبة الحاجه

(٥) يساوى بين العرب واليهود فى الوظائف

وقد رفض الشريف قبول هذه الشروط ، ومنها يتبين مدى ماحاكه الانجليز للعرب والمسلمين ومدى ماهيأوا به سبيل الاقامة لليهود ليستقر بهم المقام (رسميا) فى فلسطين

وأن فى هذه الشروط المعروضة تحقيق صريح لوعد بلفور

وقد عقد الفلسطينيون مؤتمرهم السادس فى يافا ١٦ يونيو ١٩٢٣ فقرروا رفض المعاهدة لأنها تناقض العهود المقطوعة .

والواقع أن الانجليز والفرنسيين معا تآمرا على اعداد فلسطين لليهود وقد عزز هذا المعنى صك الانتداب الذى وضع فلسطين (فى أحوال إدارية وسياسية واقتصادية يضمن معها تأسيس الوطن القومى اليهودى على أن يؤول ذلك فى النهاية إلى إيجاد حكومة مستقلة بشرط ألا يعمل شىء يضر بحقوق غير اليهود فى فلسطين) .

وعمل الانجليز على تشجيع الهجرة واليهود دون مبالاة بالمعارضة الضمنية المتصلة التى أبداها العرب وقد أعانت الحكومة المدنية التى أبدلت بالحكومة العسكرية فى فلسطين بعد مؤتمر سان ريمو على تحقيق مطالب اليهود وقد عهدت رئاستها إلى يهودى متطرف هو (هربرت صمويل) وسنفصل ذلك فى مكانه .

وقد أدى رفض الشريف لتوقيع المعاهدة إلى قيام الخلاف الفعلى بينه وبين انجلترا ، ذلك لأن الحلفاء اعتبروا عهد جمعية الأمم جزءاً من معاهدة فرساي ، واعتبروا الدول التى قاتلت إلى جانب الحلفاء ومن

جملتها الحجاز مؤسسة لجمعية الأمم بشرط أن توقع على المعاهدة وتقر نصوصها . وأبى الحسين توقيع المعاهدة حين عرضت عليه لأنها أقرت بقبول الانتداب لبلاد العرب ولا تتفق مع العهود الصريحة المقطوعة له بالاستقلال .

وقد أرسل الحسين إلى الانجليز مذكرة جاء فيها :

« نهضت مع شعبي بعد نيل ضمانات تضمن مصالحهم ومستقبلهم وخضت غمار القتال جنبا إلى جنب مع الحلفاء ، وكنت وطيد اليقين بأننا نحارب فى جانب شرف الأمة الانجليزية فأقدمت على خوض القتال وأنا ممتلىء ثقة فى حين كانت فيه راجحة ..... فلبى العرب دعوتى فى العراق وسورية وفلسطين وكانت بيدى وثائق الساسة المسئولين ، وتصريحاتهم الرسمية والخصوصية التى فاهوا بها على رءوس الأشهاد وكلها تجمع على أن العرب سيفوزون بوحدتهم واستقلالهم .

وقد أبى العرب صلحا منفرداً يعقد مع العدو الذى عرض عليهم أن ينيلهم استقلالهم وقطع لهم المواثيق والضمانات المؤكدة

فلهذه الأسباب ألفت نظر انجلترا إلى ما حل بحلفائها العرب ، فقد مزقت وحدتهم وقطعت أوصالها وتفككت بلدانهم وصارت محتلة وأخذ العالم الاسلامى وقوى يرميانى بتهمة إنى بعت بلدانهم لبريطانيا

لئلا يقع عليهم لوم إذا ما توسلوا بوسائل أخرى إلى درء هذا الذى يسود تاريخهم المجيد غير مكترثين للعواقب مهما كانت ... » ٢٤ نوفمبر ١٩٢٣ الحسين بن على

* * *

وقد اضطرت ثورة (ابن السعود) وزحفه أن يترك الشريف جزيرة العرب وقد أخذت انجلترا فى ترضية الشريف وأبنائه فاعدوا فيصل لعرش سوريا وعبد الله لعرش العراق ولكن الفرنسيين بعد انتصارهم فى معركة ميسلون التى قتل فيها ٨٠٠ عربى والتى انتهت باحتلالهم لسوريا عملت على إلغاء عرش فيصل فى سوريا فرشحته انجلترا لعرش العراق ، وأنشأت إمارة شرق الأردن للأمير عبد الله .

وقد وصل الشريف إلى عمان فى أول يناير ١٩٢٤ وفى عمان علم بأن الأتراك قد ألغوا الخلافة فسعى (الأمير) عبد الله لأخذ البيعة لأبيه بالخلافة وأخذت البيعة فى ١٢ مارس ١٩٢٤

ودخل السعوديون الطائف فى ٧ سبتمبر ١٩٢٤ بعد مبايعة الحسين بالخلافة بثمانية أشهر

وكتبت جريدة التيمس تقول (لو وقع الشريف حسين المعاهدة لأنقذته انجلترا من ابن السعود)

وهكذا استغل الانجليز الثورة العربية وقتلوا روحها وتنكروا لعهودهم إزاءها وجعلوها لمصلحتهم وكذلك قتلوا روح ثورة ١٩١٩ فى مصر وسلموا مجدها لجيل من الزعماء يؤمن بصداقة الانجليز ويقبل المساومة فى حق الوطن ويرتضى التفاهم والاذعان .

وقد أخذ على (الشريف) استئثاره(١) بالحكم وتفرده بالعمل ومحاولته ابقاء القديم على قدمه وتجاهله روح العصر وإهماله إعداد القوى والمعدات . كل ذلك عجل بالقضاء على دولته فلم تعش سوى تسع سنوات ولعل فى(٢) ذلك عبرة لأمراء العرب الذين لا يزالون يميلون إلى الاستئثار ويظنون أنفسهم من طينة أسمى من الشعب . وقد ابتهجت الصحف اليهودية يوم سقوط الدولة الهاشمية وانهيارها لأنه حرر بريطانيا من عهودها وأنقذ اليهود من خصم عنيد كان يضايقهم . وحذت الصحف البريطانية حذوها فقالت إن بريطانيا تخلصت من عهودها للعرب بسقوط الدولة الهاشمية .

المؤامرة الانجليزية على الاسلام

أظلت الخلافة العثمانية العالم الاسلامى أربعة قرون كاملة بدأتها محاربة فاتحة وظلت قوية ناهضة ترهب العرب وتزاحمه فى قوة وثبات ثم جنحت بعد إلى العزلة والغفلة فغلبها النعاس طويلا ، استيقظت خلاله دول الغرب وأخذت ترنوا إلى الشرق وهى تطمع فى احتلاله واستعماره .

وقد كانت دول الغرب تندفع إلى الشرق وهى حذره خائفة فقد كانت تخشى روح محمد الفاتح وسليمان القانونى تلك الروح القوية الجبارة التى هزت أوربا وأقرت فيها حضارة الاسلام وحاصرت فينا حتى أزعجها الحصار وكانت فى هذا الزحف إلى الشرق تصدر عن خصومة حاقدة طاغية هى خصومة الهزائم الضخمه التى منيت بها الحملات الأوربية الصليبية فى القرون الوسطى إلى الشرق وإلى بيت المقدس وردتها مصر وسوريا وردها صلاح الدين على أعتابها مهزومة كاليلة .

وباسم هذه الخصومة الحاقدة الصليبية اخذت أوربا تناوىء الشرق وتناهضه وتحاول أن تستعبده وتستذله وتجعله مزرعتها ومرعاها . ولقد آتتها ظروف الضعف والذل والغفلة لأن تمد يدها وتثبت قواعدها وتقيم أركان احتلال أمتد إلى الشرق الاسلامى كله ولم يواجه الكثير من المقاومة أو النضال .

وأخذت أوربا وفى مقدمتها انجترا تقاوم روح الاسلام ووحدة الأمة وجلال اللغة وكرامة الوطنية بوسائل شتى فتغلغلت فى ميدان الاقتصاد والسياسة والاجتماع والروحية فأصابت الأوضاع كلها بالكثير من الآثام والاخطاء .

وانتقلت أوربا وانجلترا فى مقدمتها من حركة الاستعمار باسم التجارة إلى الاحتلال المقنع فلما أقبلت الحرب الكبرى الأولى كانت أوربا قد أعدت عدتها وضربت ضربتها فمزقت الشمل وهدمت الخلافة وفرقت المسلمين ثم مزقت العرب

ولا شك أن الخصومة التى استفحلت بين العرب والأتراك كانت من صنع انجلترا ودول أوربا

---

(١) الثورة العربية (٣ — ١٣٤) الاستاذ أمين سعيد — ص ٦١٤ نفس المصدر

المتربصة بالرجل المريض الدوائر وليس من شك أن العرب فى سوريا والحجاز ومصر كانوا حديثى عهد بالسياسة وألاعيبها ومؤامراتها ودسائسها ، فاستطاعت انجلترا الطاغية الباغية أن تتلاعب بالعهود والوثائق والمواثيق وإن تتآمر مع سبق اصرار على تمزيق وحدة العرب وهدم الوطنية المصرية جميعا .

ومما يحز فى النفس أن العرب أسرعوا فى إعلان ثورتهم وتنفيذ خطتهم فى إحياء القومية العربيـة قبل أن تنضج ، وقد استغلت انجلترا الحركة أبعد الاستغلال فبعـد أن أعلن الشريف الخصومة السافرة لتركيا ضربت انجلترا على يده فأوقفت نشاطه وحصرت الثورة عندحدود شبه جزيرة العرب فحسب

وما أن انتهت الحرب حتى تبين للشريف أن المملكة العربية التى تعاهد الانجليز معه على إنشائها قد قسمت بالمعاهدات السرية بين انجلترا وفرنسا واليهود . . .

وقـد أزعج الشريف هذا وأزعج العرب وخاصم العرب الشريف وأعلن الشريف خصومته للانجليز واكتفى الانجليز بأن جعلوا منه ملكا على الحجاز فحسب ، وأرسلوا إليه معاهدة ليوقعها يقر فيها بالأوضاع التى أرادها الانجليز فى سوريا وفلسطين فرفض ذلك

عندئذ انتهز أبو السعود الفرصة فهاجم الحجاز وامتنع الانجليز عن معاونة الشريف أو مد يد المساعـدة إليه فانتصر النجديون وبذلك أفلت الدولة الهاشمية قبل أن تستفتح عهدها وهكذا ضاعت على العرب الدماء الغالية والجهود الضخمة ، وهكذا قضى على العرب الذين استخلصوا بلادهم بأنفسهم وجيوشهم من مسلمى تركيا أن يسلموها إلى صليبى أوربا

وقـد انتهى أمر انجلترا بأن أيدت (أبو السعود) وأباحت لفرنسا احتلال سوريا ولبنان ، وقسمت فلسطين قسمين جعلت فى شرقى نهر الأردن منها أمارة أرضت بها أحد أبناء الشريف وأعانت الثانى على أن يكون ملكا للعراق وبذلك أرضت الهاشميين والسعوديين والفرنسيين جميعا

وهكذا نجحت انجلترا الغادرة فى تمزيق الجامعة الاسلامية ثم سحق الوحدة العربية

وأخذت تعمل بجيوشها الحربيه ومعاهدها وجامعاتها وثقافاتها على خلق جيل جـديد لا يعرف الإسلام والعروبة ، وإنما يعرف لندن وباريس ; ولـكن الموجه مالبثت أن كرت عائدة تحمل الخير والنور

إن الانجليز خصوم الاسلام لاشك فى خصومتهم وأن فى مؤامراتهم هذه لعبرة جلية واضحة على النية المدبرة لتمزيق الوطن الاسلامى وقتل روحه المعنوية